محطِّم القارب

مؤلف رواية (الانتظار) الحائزة على جائزة الكتاب الوطني

ها جين

محطم القارب

رواية

ترجمة: د. بكر بني خير

«رواية نقدية جميلة... من أكثر الكتب المثيرة للجدل حول الأبعاد الأخلاقية للصحافة المُعاصرة»

الواشنطون بوست

Qindeel | قنديل

THE BOAT ROCKER

A Novel

HA JIN

محطم القارب

رواية

ها جين

© 2018 Qindeel printing, publishing & distrubtion
لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو نقله على أي نحو، و بأي طريقة، سواء
أكانت إلكترونية أم ميكانيكية أم بالتصوير أم بالتسجيل أم خلاف ذلك،
إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة مقدماً.
الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

موافقة « **المجلس الوطني للإعلام**» في دولة الإمارات العربية المتحدة
رقم: MC-02- 01-9433675 تاريخ 2018/7/9

ISBN: 978 - 9948 - 24 - 726 - 5

قنديل | Qindeel

للطباعة والنشر والتوزيع

Printing, publishing & Distribution

ص. ب: 47417 شارع الشيخ زايد

دبي – دولة الإمارات العربية المتحدة

البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae

الموقع الإلكتروني: www.qindeel.ae

© **جميع الحقوق محفوظة للناشر** 2018

الطبعة الأولى: آب / أغسطس 2018 م – 1439 هـ

قالوا عن الكتاب

« يُمكـن القـول بـأن روايـة هـا جيـن هـي الروايـة السياسـية الأكثـر مُتعـة لغايـة الآن».

-صحيفة نيويورك

«مُقنعـة وملائمـة فـي الوقـت ذاتـه.. وتحتـوي علـى محـور أخلاقـي قـوي».

-مرصد العلوم المسيحية

«إن الإطـار القصصـي عبـارة عـن أرض خصبـة لبراعـة جيـن ولملاحظاتـه السياسـية والاجتماعيـة المتنوعة».

-صحيفة سياتل

« ان انتقـاد جيـن للشـيوعية الصينيـة الحديثـة مدهشـة، إنهـا - وبـكل بسـاطة - الجـزء الأفضـل المحبـوك بشـكلٍ جيـد مـن الروايـة. تذكرنـي بعـام 1984، والنصـوص التـي كان يقرؤهـا وينستون وجوليا بصوت جهوري مـن كتـاب النظرية والتطبيـق للأقليـات الحكوميـة الجمعيـة».

- نانديني بالايل، لوس أنجلوس

«إن ها جين يتطور إلى الأفضل. في رواية محطم القارب، إنه يقوم بالاستمرار في إشباع كتاباته النثرية المُنمقة، كما هو الحال في كتابات تشيكوف المثيرة للعاطفة.. ولكنه أيضاً صوَّر لنا بشكلٍ لطيف؛ صعوبة إمكانية الملاحظة، من خلال بعض الأسئلة العميقة، أولاً حول الهوية الصينية الأمريكية، وحول هوية أي شخص؛ ومن ثم حول القيمة والمخاطر، لأي شخصٍ كان، للعيش بكرامة».

-بيري لينك

«رواية مثيرة للشغف؛ ولكنها عميقة التغيرات والتحولات في الصراع بين دانلن وهايلي، جعلت من محطم القارب رواية مثيرة للقراءة، ولكن وجهة نظر جين حول القومية والوطنية والثمن الحقيقي لحرية الصحافة، التي منحت الرواية عمقاً وبراعة».

- صفحة كتاب

« إن غرور جين مثير للاهتمام، وحتى إنه أيضاً إبداعي، وهو أيضاً يُبهر في كل مشهد تتعرض فيه تقاريره الصحفية للقوى العدوانية، إنها رواية أخّاذة وقوية؛ في نصها الذي يترصد العديد من الرسائل المهمة: «الحقيقة تعتمد على كيفية تشكيلها وتقديمها».

- صحيفة الوطن

« ضحكـتُ عاليـاً بشـكلٍ مضحـك، بينمـا كنـتُ مسـتنيراً بشـكلٍ مطلـق».

-مراجعات كركيوس النقدية (قراءة متميزة)

« روايـة هـا جيـن الحائـزة علـى جائـزة الكتـاب الوطنـي، تسـتخدم فكاهـة سـوداوية للإشـارة لثمـن الكرامـة الباهـظ، ولنتائـج الخيانـة، ولقـوة الكلمـة المكتوبـة».

-صحيفة المكتبة

« تنتقـد الروايـات الاسـتغلالية والعلاقـات الدوليـة، وتعتبـر كتابـات جيـن النثريـة ممتعـة للقـراءة».

-صحيفة الناشرون الأسبوعية

المؤلف

غادر ها جين موطنه الأصلي، الصين، في عام 1985 ليلتحق بجامعة برانديس. وهو مؤلف سبع روايات سابقة، وأربع مجموعات قصصية، وثلاثة أعداد من المجموعات الشعرية، وكتاب من مجموعة من المقالات. حاز جائزة الكتاب الوطني، وجائزتي فولكنر وهيمينغواي للآداب، وجائزة المكتبة الأمريكية الآسيوية، وجائزة فلانري أوكونر للقصة القصيرة.

تم انتخابه في عام 2014 للأكاديمية الأمريكية للآداب. يعيش ها جين في بوسطن، وهو مدير لبرنامج الكتابة الإبداعية في جامعة بوسطن. للكاتب ها جن حضور في عدد من المقابلات والحواريات. ولإمكانية الاستعلام أو طلب المقابلات في إحدى الحواريات، يرجى التواصل مع مكتب بنقوين للمتحدثين على الإيميل

speakers@penguinrandomhouse.com

أو زيارة الموقع الإلكتروني:

www.prhspeakers.com

مؤلفاته

بين لحظات الصمت

مواجهة الظلال

محيط الكلمات

تحت العلم الأحمر

في المستنقع

الانتظار

العريس

الحطام

المجنون

قمامة الحرب

حياة حرة

الكاتب كمهاجر

سقوط موفق

تعويذة نانجنغ

خريطة الخيانة

الفصل الأول

قبل أسبوع من الذكرى السنوية الرابعة لأحداث الحادي عشر من أيلول، اقتحم مكتبي كاي مينغ، رئيسي في العمل، مُحْدثاً بعض الأصوات بثلاثة أوراق مطبوعة كانت بين يديه. قال: «انظر إلى هذا، دانلن» ورمى الأوراق على مكتبي. وأضاف «هذا فظيع، كيف لهم أن يدَّعوا أن جورج بوش قد وافق على تأييد كتاب من تأليف «يان هايلي»، بإمكان الجميع أن يدركوا أنها كذبة بحجم السماء».

التقطت مقالة مطبوعة من صحيفة «يانتزي الصباحية»، كانت تتمحور حول «رواية تاريخية» لم تنشر بعد. لقد وقّعت مؤخراً عقداً لكتاب لي، حيث إنني اعتدت على التبجح في مهنة النشر، ولكن ما خطف أنفاسي هو اسم الروائية، يان هايلي، لقد كانت زوجتي السابقة، هذه الساقطة.. لم تتوقف أبداً عن المنافسة في جذب الانتباه.

أبرزت تلك المقالة في الصحيفة الأدبية والملحق الفني،

وتحدثت بحماس عن روايتها المعنونة بـ«الحب والموت في سبتمبر»؛ كانت مذهلة جداً، وكانت عبارة عن قصة غرامية زاخرة بالتأزم، حدثت أدوارها في شمالي أمريكا، الصين، أستراليا، إنجلترا، روسيا وفرنسا. كانت هايلي تعمل على روايتها بشكل مندفع منذ أن عرفتها، ولقد كانت تصفها بـ «الرومانسية العالمية المذهلة»، ولم تستطع أبداً أن تنهيها. لم تنجح أبداً في إيجاد جوهر القصة، ولا في القدرة على ربط مختلف الأحداث بالحبكة والوصول إلى نهاية مرضية. لقد كانت ترجع الكتاب إلى الرف مرات عديدة، واعتقدت أنها تركت هذا المشروع نهائياً. ولكن الآن ـ بدأتُ بتصفح المقالة بعدم اقتناع ـ حيث كان الناشر يدعي بأن المكتب الإداري للحزب الشيوعي الصيني؛ قد تم التعاقد معه من قبل البيت الأبيض، وأن الرئيس جورج بوش سوف يصادق على الترجمة الإنجليزية لرواية هايلي.

لماذا؟؟

لأن الكتاب «يجسد الروح التعاونية بين الولايات المتحدة والصين حول الحرب العالمية على الإرهاب»، اقتلني إذا كان هذا الكلام صحيحاً!

لقد أدركت أن هذه الساقطة لن تتغير أبداً. لن أدعها تنجو

هذه المرة، سوف أتوصل لطريقة تكشف جميع احتيالاتها وادعاءاتها الباطلة، حتى لو ركعتْ وتوسلتْ أمامي، لن أعطف عليها!

«هذا غير منطقي»، قلت لرئيسي في العمل، «يجب أن يكون البيت الأبيض مهتماً بالكاتب أكثر من الكتاب نفسه، أقصد أنّه يجب أن يكشف إذا كانت يان هايلي تعمل بشكل سري كعميلة للصين».

قال كاي مينغ «هذا سيمنحها أهمية كبيرة». «هي ليست ذكية كفاية لتعمل كجاسوسة». إنه يعلم كم أكره زوجتي السابقة ـ وأن زواجنا دام ثلاث سنوات فقط، قبل أن تجد شخصاً آخر وقد نفد صبري في تحملها أكثر، لقد كان يسمي هايلي أمامي «المرأة التي بلا إحساس».

قلت له: «إذن، ماذا تريدني أن أفعل؟ هذه قصة ثقافية وفنية، ولم أكتب أبداً مثل هذا النوع في العمود الصحفي الخاص بي من قبل».

أجاب «ستفعل هذه المرة، إنه وراء ما تخفيه الكتب، وأنا أعتقد أنه جزء صغير من خدعة أكبر».

لقد كنت سعيداً بهذا، ولكن لم أظهر ذلك، أجبت بحذر «ألن يشكل هذا تضارباً في المصالح؟».

أجاب «تضارب في المصالح؟ نحن نتعامل مع مجموعة من الحثالة الذين لا يعملون شيئاً ضمن القانون، لن تستطيع التعامل معهم كرجل نبيل، أريد منك أن تلقي كل غضبك على هذه القضية».

«إذا أردت مني أن أكشف هذا الخداع، فإنه من الأفضل أن تكون لديك فكرة للبدء بذلك».

قال كاي مينغ «لقد قابلت الشهر الماضي جياو فانبنن، الناشر الخاص بها في بكين، إنه ليس ناشراً غير صادق فحسب، بل واستغلالي أيضاً. أريدك أن تكتب شيئاً يفضح كذبهم قبل أن يقوموا بتوريط الكثير من الصينيين الأمريكيين هنا في أمريكا؛ علينا أن نقتلع ذلك الاحتمال من الصميم!».

«إنني أخشى بأن الأمر تطور كنبتة شريرة قد تفتحت».

«ما زال بإمكاننا أن نقتلعها من الجذور».

«سيصبح الأمر قضية شخصية»، أجبت وحاولت الابتسام؛ ولكن شعرت بأن وجهي كان ممقوتاً «أريدك فقط أن تقوم بعملك» أجاب رئيسي في العمل كاي مينغ.

«سأرى ما أستطيع فعله».

نهض كاي مينغ راضياً وغادر متوجهاً إلى مكتبه، وقد

كان طرف قميصه الأزرق الباهت متدلياً بعض الشيء وأكتافه ضخمة حتى بان أنه أحدبُ قليلاً.

خارج النافذة كان طفلان يلعبان بشكل مزعج في مكان يتجمع فيه صغار طائر الكناري في حديقة الجيران. لقد كانت بداية شهر سبتمبر، وكان الجو لا يزال دافئاً، وخلف الحديقة كان هناك سور خشبي من الشجيرات الصغيرة، وعلى طولها دعامة خفيفة ممتدة على حافة خليج بحري صغير. وعلى مسافة من ذلك بدت أسراب من طيور البحر تحلق في السماء كالغيوم المتناثرة، وكانت ناقلة نفط بحرية موشحة بالصدأ واقفة على جانب المرسى، وظلها مقابل حافة الشاطئ القديمة في المنطقة المائلة المتقاطعة مع الطريق السريع المشجر. عندما كنت أحدق خارجاً، بدأت التفكير حول السبب الذي جعل كاي مينغ يوكل لي قصة هايلي على الرغم من علاقتي الشخصية بها، وذلك من بين الأربعة عشر محرراً في شركتنا (وكالة الأنباء العالمية)، كنت أنا الشخص المعروف باعتراضاتي وإلقائي الضوء حول الفساد المتزايد في السياسات الصينية والإعلامية في عمودي الصحفي الدوري. كان لساني اللاذع معروفاً للجميع، وتعليقاتي تطعن القلوب، آرائي كانت متعنتة وتوقعاتي كانت في بعض الأحيان تستشرف المستقبل. كان من الطبيعي أن أكون مكروهاً من

المسؤولين والمشاهير، وملعوناً من كل من انتقدته. لذلك عندما اكتشف الناس من الشتات الصيني كتاباتي هذه، كانت، وحسب قولهم، «كاكتشاف قارة جديدة». العديد من الذين يقرؤون لوكالة الأنباء العالمية هم من الصينيين الذين يعيشون في الخارج، ولكن البعض من أعمدتي الصحفية أحدثت لهيباً حارقاً في المكان؛ هنا في المجتمع الصيني في نيويورك، فإن النُخب منهم يتجنبونني بحذر معتبرين أنني مصدر إزعاج وقلق؛ من الأفضل الابتعاد عنه. لقد أقحمني رئيسي في العمل في قضية رواية هايلي المعروفة لسبب أكثر واقعية: على خلاف معظم المحررين لموقعنا الإلكتروني باللغة الصينية، لقد كانت لديّ طلاقة في اللغة الإنجليزية، ولم أكن أبتلع اختصارات الحروف في الكلام. وهذا يساعدني في تحقيقي حول التورط الأمريكي في هذه الشؤون جميعها. (لقد كان يعرف بأن تأييد البيت الأبيض عبارة عن تفاخر لا أكثر).

أعدت قراءة مقالة مجلة يانتزي الصباحية، وعندما وصلت للنهاية شعرت بالتوتر. لقد كان هذا ـ وبشكل متعمد ـ كتاب هايلي الذي كانت تعمل عليه طوال هذه السنوات، ولكن لم يسبق لي التفكير بأنها ستتهور في استغلال تراجيدية أحداث الحادي عشر من أيلول.

حسب المقالة، تدور الرواية حول قصة زوجين يافعين، رجل أمريكي نبيل وامرأة صينية جميلة، تم إلغاء شهر العسل الخاص بهما في «بالي»؛ بسبب اختفاء العريس بعد انهيار مركز التجارة العالمي. لقد كان موجوداً في البرج الشمالي، كانا متزوجين قبل أسبوع واحد فقط. انهارت العروس بسبب موت زوجها، لقد كانت تحتضر من شدة الحزن. ولعدة أشهر؛ أينما كانت تذهب كانت تعتقد بأنها تستطيع أن تلمح شكله القوي البنية في الزحام أو في زوايا الشارع. أحياناً عندما ترفع سماعة الهاتف، كانت تسمع صوته، وأصداء ضحكاته راسخة في عقلها تجعل عينيها تمتلئان بالدموع. كان هذا الرجل يحلم أن يصبح رساماً بالألوان المائية، يفتح معرضاً في باريس على ضفاف نهر السين. كم هي نادمة وحزينة؛ لأنها لم تحاول إقناعه لكي يمضي لتحقيق طموحه. لم تستطع الذهاب للعمل لمدة سنة ونصف بعد وفاته، وكانت خائفة حتى من عبور الشوارع واستخدام المصاعد. ولكن الآن، لقد تملكتها الشجاعة أخيراً، الشجاعة لكتابة هذا الكتاب؛ والذي من الممكن أن يُقال عنه «سيرة ذاتية مطلقة»؛ لأنها أرادت أن تشارك الآخرين سعادتها وحزنها على السواء.

أعرف زوج هايلي الحالي، لاري كليمنتس، أمريكي الجنسية، وهذا كل ما يتقاسمه مع شخصية العاشق المأساوي

في كتاب هايلي. قبل أسبوعين فقط، التقيت به أمام مركز لنكولن بجانب النوافير المرتفعة. كان لاري رجلاً عادي الهيئة في بداية الأربعين من عمره، عريض البنية وبكرش ممتلئ بعض الشيء، وذا شعر شبه رمادي أشهب. لم أعدْ أشعر تجاهه بالكراهية كما كنت سابقاً؛ لقد أدركت أن هايلي تزوجته؛ لا لأنه الرجل الأفضل، ولكنها كانت تبحث عن شخص يمنحها البطاقة الأمريكية الخضراء، وبداية حياة سعيدة في أمريكا. ولذلك، فإن لاري الذي يعمل في مكتبه المستقل كمحلل أسهم وأرصدة في بورصة وول ستريت، كان فرصتها المثالية.

وكانت هي الفتاة الفاتنة الجذابة التي لم يجد مخرجاً من الوقوع في حبها. كان لاري يرتدي دائماً بدلة وربطة عنق، كان ذوقه صعباً، وكان من هواة الأوبرا. في اعتقادي، لقد كان شخصاً مادياً، كما كان أيضاً برجوازياً بعض الشيء.

حسب ما جاء في الصحيفة، بدأت هايلي بالترويج لكتابها في الصين، لقد قامت بالعديد من اللقاءات العامة في بكين وشنغهاي قبل شهر. وصفتها المقالة بالسيدة الجميلة الفتية الغامضة القادمة من نيويورك، والتي تمتلك «أخلاقاً رفيعة المستوى»، وأنها «رشيقة الجسد»، و«ذات صوت ناعم محبب»، و«ذات عينين حالمتين مملوءتين بالذكريات». لقد

كانت ترتدي عقداً على شكل قلب من الأحجار الكريمة (جالب الحب)، والذي تدلى على جلدها الرقيق المكشوف. لقد أظهرت الجمال والثقافة الرفيعة. «لقد كانت بشخصيتها الكاملة، ولغة جسدها، تمثل المعنى العميق للحياة: الحب». لا عجب أنه من المتفق عليه في الكون أجمع، أن هذا هو النمط المراد في الشخص.

في حالة يان هايلي، سأغامر بالقول بأن جمال الكاتبة الشخصي وكتابتها النثرية الزاخرة، كلاهما يعززان ويعمقان بعضهما البعض. ما تم تناقله في الإعلام هو أن الكاتبة أسرت جمهورها الفتي منذ اللحظة التي بدأت فيها بالتحدث عن كتابها؛ لقد مرت بمرحلة مؤلمة وخاصة جداً، خصوصاً من ناحية الإفصاح عنها أمام العامة، والآن عليها التوقف عن التفكير بذلك، وعليها أن تستجمع قواها مرة أخرى. لقد وجّه الجمهور، وخاصة طلاب الجامعات، أبصارهم نحوها طوال الوقت. ودون أية أسئلة يوجهونها لها، أصابت كلماتها أوتار قلوبهم؛ العديد من الفتيات لم يستطعن التوقف عن مسح عيونهن الدامعة. إنني أعلم أكثر من أي شخص آخر كيف كانت هايلي إنسانة جميلة وجذابة؛ لقد كانت جميلة إلى الحد الذي يجعل الناس تقطع محادثتها عند دخولها المكان.

ولكن من المؤكد أنها لم تكن كاتبة موهوبة؛ بالرغم من ذوقها الرائع كقارئة، لقد أحبت النمط الكتابي الواقعي المصحوب بالسحر والخيال: مثل أجاثا كريستي وديفيد هربرت لورنس، ومارغريت ديوراس. عندما كنا زوجين صغيرين في السن في الصين، ساعدتها في مراجعة وتدقيق قصصها وقصائدها النثرية، وقد كانت أودعتها عند العديد من المجلات والمسابقات الشعرية. وحتى بجانب مساعدتي لها، كانت نادراً ما تنجح في طباعة ونشر مقطوعاتها الشعرية. بالرغم من قلة ثقتها بنفسها، إلا أنها بحماسها وطموحها المبدع تمكنت من منح نفسها بعضاً من الأسماء الفنية؛ مثل ريشة من الجنة، وفراشة بلون السماء. وكباقي الكتاب الصينيين، استعملت هذه الألقاب كحماية لها، ولإظهار نوع من التواضع. منذ طلاقنا، قبل سبع سنوات، ما زلت أتابع منشوراتها، والتي كانت كتابات صغيرة لا يتعدى حجمها (حجم طبق توفو) في الجرائد المحلية. ولقد قامت أيضاً بنشر بعض القصص على صفحاتها الإلكترونية، والتي، كما أدركت مؤخراً، كانت يجب أن تكون فصولاً من روايتها. لقد كانت تلك القصص رديئة بشكل محرج. لقد كانت العديد من علامات التعجب تفسد القطع النصية التي كانت تكتبها. ووضعتْ يميناً ويساراً الكثير من التعابير التي توحي بالغطرسة؛ حيث كانت تبدو

مثل معكرونة حبوب مهروسة غير منسقة؛ ممزوجة بحلوى التنين الصينية، وكحبوب اليانسون ذات الشكل النجمي. لقد حاولت أن أخفف من هذه الاندفاعية المتهورة في الكتابة الشعرية لديها، ولكنها ساءت أكثر بعد أن انفصلنا عن بعضنا البعض. لم أستطع أن أتصور كيف تحولت إلى روائية ناشرة بين ليلة وضحاها. لقد كنت أتساءل ماذا حدث لهوسها بالسفر في ريعان شبابها... هل ما زالت تتطلع لرؤية أنحاء العالم جميعها؟ أشك في ذلك. لقد كانت مرتاحة جداً للعيش في نيويورك، «عاصمة العالم»، وقد أحبت التفاخر بذلك. بالعودة للدراسة في الجامعة في مدينة شنغشن، لقد كانت تحلم بأن تعمل دبلوماسية، تجوب العالم وترتحل من دولة لأخرى. كانت تقول «في كل صباح جديد، سوف تستيقظ على شمس بلد جديد». لقد كانت تطمح بأن تكون أوديسة-امرأة تعيش في رحلاتها الطويلة، ولا تخاف من الموت في أرض بعيدة، أو في قاع بحر مجهول الموقع. عندما كانت تفضي إليّ بأفكارها السرية في البستان المليء بشجر الأسبين خلف بيتها المبلط بالسيراميك، كنت مأخوذاً بها؛ ولدرجة أنني لم أستطع أن أخطو خطوة واحدة خارج مقاطعتنا جيلين. لقد سحرتني روحها الجامحة، وفتحت آفاقاً كبيرة في عقلي. نعم، نعم، لقد أخبرتها، يجب أن يذهب الإنسان حيث يقوده

قلبه، يجب أن تبقى تجاربنا مرتبطة بالعواطف التي تبقينا على قيد الحياة. ولذلك شجعتها أن تواصل حلمها كما كانت تقول «تبني منزلاً في السماء؛ حتى يزدهر تدريجياً كنجمة لامعة في ليلة خالية من الغيوم».

لقد عملت بجد على تطوير لغتها الإنجليزية، مما جعلها الأولى من ضمن سبعة وثمانين طالباً في سنة 1994 في قسم الموسيقى في الجامعة. قالت لي «اللغة الإنجليزية تعني لي الحرية، وستمنحني أجنحة قوية»... كالغبي، أشرت برأسي موافقاً.

ماذا حدث لأحلامها في التحرر؟ والتي بالنسبة لها، لا تستطيع التعبير عنها إلا باللغة الإنجليزية؟ أين ذهبت أجنحتها؟ وكما أعلم، لقد توقفت عن الكتابة بالإنجليزية منذ مدة طويلة. ورأت فرص أكثر ونسبة قراءة عالية في الصين. كانت تدعي بأنها أصبحت الآن «حرة وسعيدة».

كم هو صحيح هذا القول الشائع: «القناعة تكبّل الروح».

كان المحرران اللذان يعملان لدينا، متدربين، وغير ملمين بالفن والأدب في الصين. ولذلك؛ كنت أقوم بنفسي بالبحث. بدأت بالبحث عن تغطية إعلامية أكبر للرواية في خدمة الأخبار الصينية و أخبار وكالة سينا. وجدت أن الناشر الخاص بها، جياو فانبنغ، قد نسق لها قبل بضعة أيام مقابلة في المجلة

الأسبوعية لدليل القُرّاء، ادعى من خلالها أنه (تم الاتفاق مع دار نشر) اشترت الرواية مؤخراً لشخصية مهمة غير معلن عنها، وأنه يتم العمل على مفاوضات مع ناشرين من أوروبا واليابان وأمريكا اللاتينية وتايوان.

أفصح جياو قائلاً: «كل المؤشرات تخبرنا بأن هذا الكتاب المميز؛ سيصبح من أكثر الكتب العالمية مبيعاً»، وأضاف «لقد سمعت خبراً الجمعة الماضية؛ أن هوليوود تطلب حقوق تحويل هذه الرواية إلى فيلم». ما رأيكم بذلك. لا شك أنه حدث استثنائي ورائع، وتقدم مفاجئ في محاولات بلدنا تصدير منتجاتنا الثقافية للخارج».

ما أعرفه عن جياو فانبنغ، أنه الابن الوحيد لمسؤول كبير في مجلس المدينة، صنع جياو ثروته من خلال سوق الأسهم الصينية، وبدأ بعد ذلك ببناء إمبراطوريته الخاصة؛ والتي بدأت أولاً ببناء دار نشر صغيرة وبعض المقاهي ومحلات الحلويات بجانب حرم الجامعات، وكل ذلك كان في بكين. في السنوات الأخيرة، قام بالتفرع بأعماله في صناعات الموسيقى والأفلام. كانت تعليقاته حول كتاب هايلي أكاذيب واضحة. لقد شككت بأنها أكملت الرواية أصلاً، ناهيك عن تسويقها بين الناشرين الأجانب. ولحين تكمل

الكتاب بشكل فعلي، ما زالت هايلي تنتمي إلى المجموعة الكبيرة من الروائيين الذين لم يُنشر لهم شيء بعد.

مررت بالممر السفلي المؤدي لمكتب رئيسي في العمل، وخاطبته، «كاي مينغ، قد تكون الحيلة التي تحيط برواية زوجتي السابقة أكبر وأبشع مما نتصور».

أجاب «لهذا السبب أريدك أن تتفحصها وتمعن النظر بها، لا أحد غيرك يستطيع كشف القصة كاملة».

«صدقني، لن يكن هناك ناشر ذو مسموعية عالية يأخذ هذا الكتاب على محمل الجد، إنه رومانسية سطحية ليس أكثر».

«حسناً، أنت تعلم أنه في الصين لا يوجد فرق بين الرواية الأدبية والرواية الرومانسية؛ كل الأساليب الأدبية مختلطة مع بعضها البعض. وبكل الأحوال، فإن معظم القرَاء لا يستطيعون إيجاد الفروق بينهما».

«هذا صحيح، وأيضاً اليابانيون لا يستطيعون التميز بينهما، ولكن تبقى للجودة مكانتها؛ لا أتوقع بأن هنالك أي ناشر محترم سيخصص؛ ولو جزءاً صغيراً من يومه لتلك الرواية».

«لا تعلم ماذا سيحصل، فمن الممكن أن يتم تسويقها هنا كرواية رومانسية، وفي الصين كرواية أدبية، حيث يتم

التخطيط هناك لجلب الأموال كيفما اتفق. أريدك أن تكشف هذه الحيلة».

«أنت تعلم بأنني لا يمكنني المساعدة في ذلك، ولكن أنا متحيز لتلك النقطة».

«هذا من حقك، بإمكانك أن تستخدم ذلك لصالحك».

ابتسم كاي مينغ ابتسامة عريضة، أظهرت أسنانه المربعة، لقد عرفته لمدة طويلة؛ بما يكفي لأعرف أنه كان يريد أن يوظف مشاعري بأكملها في هذه المهمة. كان عادة يشدد على أن ننقل كل جزء من الأخبار التي تأتي من المصادر الفريدة من نوعها. ومن خلال تعريفه «العبقرية هي الأصل» (والتي أشكك بها؛ لأن العالم بأجمعه مزدحم بالحمقى المتأصلين). إذا استمرت وكالة الأنباء العالمية ببث الأخبار بطريقة فريدة من نوعها، باعتقاد كاي مينغ، سنصبح المصدر الأهم لوسائل الإعلام الصينية حول العالم. وشدد أيضاً «الصدق وقول الحقيقة؛ هي طريقتنا الوحيدة لنبقى في مجال وكالات الأنباء، وحتى نستطيع جني الأموال على المدى البعيد»، وهو أيضاً متخصص في التعليق السياسي، ويستطيع في معظم الأحيان أن يتوقع مجريات الأحداث الحالية؛ آراؤه كانت دائماً تنال تقييماً عالياً، بما في ذلك من

بعض الخبراء الصينيين في الولايات المتحدة. لقد كان يُعتبر كأحد الموسوعات المهمة في دائرة الأحوال السياسية في بكين حيث كان لديه بعض المصادر السرية هناك. يعرف كاي مينغ كيف يؤدي المهمات جميعها على أكمل وجه؛ في قصة (الحب والموت في سبتمبر) كان يرى مشاعري نحو هايلي؛ الشعلة الأقوى تأثيراً في تحقيقنا الذي نجريه حولها.

الفصل الثاني

في الصباح التالي؛ هاتفت هايلي. أجابت بعد الرنة السابعة، في البداية كان صوتها يبدو نعساً، ولكن كلما تحدثت أكثر أصبح صوتها أكثر حيوية ونشاطاً. ذلك الصوت الذي عادة ما كان يمدد أوتار قلبي، ويوثق أحلامي بالكثير من الرسائل، ولكن الآن العلاقة في ما بيننا علاقة عمل، وكلانا مرفوض من قبل الآخر. بدأت بإطلاق أسئلتي على الفور، وكنت أستطيع أن أسمع أصوات أنفاسها الهائجة والمصحوبة بغضب شديد. بقيت هادئاً ومتأكداً أن هذا الاتصال خارج المجاملة. لقد طُلب مني أن أخصص أحد أعمدتي الصحفية للجلبة التي تحيط بقصة (الحب والموت في سبتمبر) «لا تفترضي أنني مستمتع بمحادثتك، إنه جزء من عملي، ويجب أن أستمع للجانب الخاص بك من القصة، هل أستطيع أن ألتقيك بعد الظهر؟».

بعد صمت طويل، وافقت أن نلتقي في مقهى في القرية؛

حيث كانت تعيش هي وزوجها لاري. طلبت منها أن تسلمني نسخة من الكتاب؛ حتى أستطيع كتابة التقرير بشكل دقيق. وقلت لها «إذا كانت ذات تأثير في نفسي، سأضع ثنائي الخاص فوق كومة الثناء الذي تتلقينه».

«أنت لست المحرر الخاص بي، فلماذا أريك نسخة منها؟».

أجبت «إذا لم تفعلي ذلك سأقوم فقط بإعادة ما تحدّث به الآخرون، وهذا ليس عادلاً بحق الكتاب أو بحقك».

ردّت بانزعاج «ما الذي سمعته؟ لم أقم بذكرك في الكتاب».

رجعت إلى الخلف، لم أتصور أبداً أن أمثّل شخصية معينة في قصة (لم أمانع بالرغم من ذلك، إذا تم إدراجي ضمن كتاب بسيط بشخصية المحبوب). أخبرت هايلي ببعض التعليقات التي تم تداولها إلكترونياً. أخبرتها «يجب عليك التفكير في العواقب الناجمة عن نشر هذا الكتاب... لقد كثُر الحديث عنه، ولم يكن كله إيجابياً، حالما تتم طباعة كلمات هذا الكتاب؛ لن تستطيعي إلغاء أي شيء».

أجابت «أشكرك شكراً جزيلاً لحكمتك».

«هل يمكنني أن ألقي نظرة على نسخة الكتاب؟». صمتت مرة أخرى وقالت: «حسناً، سأريك بعض الفصول منه».

هذا يفي بالغرض، لا أريد أن آكل الخروف بكامله؛ لأعرف كيف يبدو مذاق لحمه.

ما زلت أكره هايلي. لأكثر من عقدٍ كامل، لم يكن مسموحاً للأزواج الصينيين السفر مع بعضهم للخارج، ولذلك لم أكن أستطيع أن أغادر الصين معها. قبل أن نأتي للولايات المتحدة منذ سبع سنوات؛ لأنضم إليها للعيش في نيويورك، لاحظت بعض التغيرات في انسجامها وتوافقها معي، في اتصالاتها، وكنت أتساءل في ما إذا كانت على علاقة برجل آخر. يُقال إن الناس في أمريكا يبدلون شركاءهم بسرعة وبسهولة، كما يغيرون حميتهم الغذائية، هذه «الحرية» التي تتضمن التحرر من القيود المادية، والتي تقول بأن الهدف المطلق من الحياة؛ هو تحقيق السعادة الشخصية؛ مهما كلَف الأمر. لقد أصررت ـ وقد كنت معذباً بالشك ـ بأن هايلي جعلتنا نغادر الصين؛ ليس فقط من أجلنا، ولكن من أجل أن أحصل على فرصة أخرى في الحياة. لقد كانت مهنتي كمالك صحيفة إخبارية في مدينة شانغشن متعثرة النمو: المحرر المسؤول هناك كان دائماً يضايقني كلما سنحت له الفرصة، والذي كان أيضاً سكرتيراً موكلاً عن القسم الذي أعمل به. لقد أخبر الجميع بأنني جعلت شعري مموجاً كالنساء، بينما في الحقيقة كلما كان يزداد طوله؛ كان يتموج من تلقاء نفسه.

هذا الرجل ـ الذي ترك دراسته الثانوية ـ كان غيوراً لأنني أكملت المرحلة الجامعية في الصحافة من جامعة جيلين؛ وأنني تزوجت من امرأة جميلة كهايلي. كان عادةً يرى أنني سأغادر وعلى وجهي ابتسامة تشبه ابتسامة النمر، وقد أراد أن يسألني «متى ستتوجه إلى نيويورك، دانلن؟ إن الطريق ممهدة أمامك، وأنت حر في الذهاب متى أردت».

لقد عرفت أنه يريد التخلص مني، وأن يسلم وظيفتي لأحد أقربائه أو أصدقائه. ولذلك كان يجب عليّ علي أن أعود للولايات المتحدة وأنضم لزوجتي؛ وإلا سأتهور وأرتكب عملاً فظيعاً.

بعد مضي رحلة طيران لمدة عشرين ساعة، هبطت في مطار جون كيندي الدولي؛ حيث كانت هايلي تنتظرني. بدت أفضل من قبل، اتصلت بتاكسي توصيل أصفر، وأخذتني إلى فندق قديم في مركز المدينة الصيني، قريباً من مطعم إيطالي بسيط، وأخبرتني بأنها قد عثرت لي على وظيفة في مطعم، وأنه من الأفضل لي أن أسكن على مسافة منها؛ حيث يمكنني قطعها سيراً للوصول إليها.

أجبتها محتاراً: «لا أفهم ذلك، لماذا يجب علينا المكوث هنا؟»، أجابت: «هذا فقط بشكلٍ مؤقت».

في اللحظة التي ألقيت بها حقائبي على الأرض وتمددت على السرير لأريح ظهري المتعب، سلمتني ظرفاً مقفلاً يحتوي على حزمة من النقود، خمسمائة دولار وبعض الوصولات. وأخبرتني بأنها دفعت إيجار هذا الشهر بالكامل لهذا المكان، ولكنها يجب أن تبقى بعيدةً عني في الوقت الحالي، لأنها كانت مشغولة جداً في وظيفتها التعليمية والإدارية. قالت لي «البداية دائماً شاقة في أمريكا» وأخبرتني، كما لو كنت طالب موسيقى أتتلمذ على يديها: «وأنت رجل قوي قادر على أن تشق طريقك هنا وتصنعه جيداً، أمريكا هي المكان الذي يدفع لك جيداً مقابل العمل الشاق، وبتحصيلك العلمي وبخبرتك؛ ستجد وظيفة احترافية. فقط ابقَ صابراً ومثابراً».

قالت لي بأنه يجب عليها الذهاب، وأنها ستراني في اليوم التالي. كنت مشوشاً بسبب فرق الاثنتي عشرة ساعة بين المنطقتين، ولم أكن أستطيع أن أفكر وأحلل ما كان يجري من حولي. حملتها من ذراعيها وضممتها إليّ لأنظر إليها عن قرب وقبلتها. ولكنها ابتعدت، وأصرت أنه يجب عليّ أن آخذ قسطاً من الراحة. بعد أن غادرت؛ خرجت لأتناول العشاء، وتناولت وجبة من أرز «يانغ شو» المقلي، حيث كان مذاقه أفضل وأقوى من ذلك الذي يباع على بسطات الطعام في الصين، إضافة لزيت الطهو الطازج والبيض الإضافي والجمبري.

البصل والحبوب الحلوة المذاق؛ تمنح تلك الوجبة نكهةً مذهلة، كانت وجبة جيدة بكاملها. ولقد كنت مندهشاً بأنهم قدَموا الأرز في صحن مربع الشكل؛ بدلاً من وعاء مجوَف.

بعد هذه الوجبة، رجعت للفندق ونمت لمدة إحدى عشرة ساعة متواصلة.

في ظهيرة اليوم التالي، أتت هايلي مرة أخرى، حيث كانت ترتدي رداءً قرمزي اللون وحذاءً ذا كعب عالٍ، تضع مكياجاً مكثفاً وعطراً ليلكي الرائحة. لقد بدت امرأة غربية مغوية، وقد كنت على وشك أن أقترح عليها أن ترتدي قفازاتٍ طويلة. وبعد برهة، جلست وسلمتني ملفاً أزرق شفافاً، وقالت: «هذه أوراق طلاقنا»، ونظرت بعيداً؛ وأكملت «أرجو أن تقوم بالتوقيع عليها». تلعثمت قائلاً «لماذا؟.. لماذا تفعلين هذا بي؟»، صمتّ، وبالكاد خرجت مني الكلمات.

أجابت: «لقد تغيرت الأمور، دانلن، والحب في ما بيننا أيضاً تغير. أحتاج لشخص أستطيع الاعتماد والاستناد عليه، ولكنك كنت بمقام الأخ الأصغر لي. لقد كنت أعتني بك منذ أن تزوجنا، تعبت من هذا، وأحتاج لشخص يعتني بي. ولذلك؛ فلقد التقيت بشخص آخر».

أجبت؛ وقد كنت أصارع التنهيدة المتصاعدة في جوفي:

«ولكنني ما زلت أحبك»، بدموعٍ حارَة وغير منقطعة انهمرت على وجنتي. استدرت وأمسكت بوسادة ومسحت بها وجهي.

قالت: «في هذه الحالة، ستحتفظ بأجمل ذكرياتي في مخيلتك، أليس كذلك؟ من فضلك وقّع تلك الأوراق». طوت الملف أمامي؛ حيث تحول حزني إلى غضبٍ شديد. ولقد أدركت أن لا جدوى من الاعتراض في هذه اللحظة. أحتاج لاستجماع فطنتي. ولذلك لجمت غضبي وتمتمت: «سأفكر بذلك».

وضعت بطاقة محاميها المزخرفة على الملف، ثم نهضت وغادرت. في اللحظة التي أغلقت بها الباب وراءها، انهرت أرضاً وبكيت بشدة، ولكمت الملاءة والأحرمة وعضضت الوسادات. لم أكن أتوقع أن أحاصر في مثل تلك المصيدة.

بقيت جاثياً أرضاً على ركبتي أعاود البكاء وأتوقف عنه لمدة ساعات. كان كل شيء في هذا الغرفة المخصصة لغير المدخنين؛ يطلق رائحة الدخان، حتى لوحة الزهور الباهتة، رائحتها لاذعة كالدخان، وأثارت غضبي. بدا كل شيء مزيفاً في هذه الأرض المدعوّة بالجميلة.

كلما استمررت بالبكاء، كان وجهي يبلل المنديل، وركبتاي تحتكان بالسجادة المفروشة على الأرض.

كان الظلام يظهر في الخارج شيئاً فشيئاً، والشارع يعُج بالأشخاص وبالسيارات.

بعد ذلك، قامت سيارة أو شاحنة بإصدار صوت زامور قوي مع صرير احتكاك الفرامل. وأُطلق صوت صفارة إنذار قوية؛ من المحتمل أنها كانت من محرك ناري ذي صوت حاد.

أخيراً، تمكنت من النهوض عن الأرض، مسحتُ أنفي وغسلت وجهي. كان صدري ممتلئاً بالضيق؛ حتى لم أستطع أن أفكر بشكل متماسك، وكانت أوردتي تخفق متوترة، ولذلك خرجت لأستنشق الهواء النقي. بدأت التفكير بأنني لن أوقع أوراق الطلاق أبداً، لن أجعل هايلي تذهب دون أن تدفع ثمناً مقابل ما فعلته بي.

ولكن بينما كنت أجول شوارع مانهاتن، كان هناك ألمٌ يخدر جسدي، ويغوص في أعماقي أكثر فأكثر، ومن ثم بدأت أهدئ من روعي.

تمددت فوق سكة الحديد على جسر بروكلين لوقت طويل، أشاهد التدفق اللامع لحركة المرور المزدحمة في تلك الساعة من على جسر مانهاتن فوق النهر. بدت تلك الجسور مدهشة في الليلة الماضية؛ عندما كنت أشاهدها أثناء هبوط الطائرة، موجة واحدة من الأضواء الحمراء مقابل

واحدة أخرى بيضاء. والآن؛ إلى جانب هذا السيل المروري المتوهج احمراراً، كانت هناك في السماء الزرقاء طائرة مُتجهة بعيداً، متمايلة كشبح إنارة السقف المتأرجحة. كانت الرياح في كل مكان، والمطر النازل متقطعاً، يتلألأ كجداول المياه الواسعة. وعلى الرغم من ذلك، كان المطر مندفعاً بعنف الموجات الرعدية فوق الجسر. بينما عبرت موجةٌ من السحب المتلاطمة محدثةً صخباً وضجيجاً مع مرور مركبٍ شراعي صغير، تخيلت أنني ألقي نفسي في الجانب الشرقي من النهر. ولكن ماذا سيحدث بعد ذلك؟ لم يكن بمقدوري أن أتخيل شيئاً واحداً بعد حصول ذلك... لن يلاحظ الناس هنا غياب هذا الرجل القوي صحيح الجسم، ووجود شخص آخر مثلي لن يشكل فرقاً هنا في هذه البلاد. (لقد تذكرت أن هايلي قالت إنها تمتلك أكثر من بطاقة هوية شخصية)، وحتى لو جرف الشاطئ جثتي لن يعيرني أحد انتباهه. ومن الممكن أن تأكلني الأسماك قبل أن يحدث ذلك. هل ستحزن هايلي على اختفائي؟ من المحتمل لا. هل ستُقلق نفسها في البحث عني أو ستتساءل عمّا حدث لي؟ على أبعد احتمال، لا. ستشعر بالارتياح، ولن تبلغ حتى الشرطة بذلك. ستعتبر أنها تخلصت مني بالطريقة الأسلم، وستتابع حياتها بعد ذلك. من المحتمل أن تزعجها بعض ذكرياتنا معاً، لمدة أسابيع، ولكن

ستمحوني من حياتها بعد ذلك. ومن أجل ذلك، سيكون من الغباء الشديد أن أموت هنا بهذه الطريقة، إنه ضربٌ من الجنون إنْ فعلتُ ذلك. لا، لن أختفي من حياتها بتلك السهولة.

إنه لمن غير المنطقي أن تحاول إنقاذ زواجٍ فاشل، لذلك وقّعتُ أوراق الطلاق بعد مضي أسبوع. التحقت بمدرسة تعليم اللغة، وسجلت مادتين كطالب متفرغ، وبذلك أستطيع البقاء في أمريكا بشكل قانوني. وبمساعدة رفيق المدرسة السابق؛ حصلتُ على وظيفة في صحيفة محلية. انسحبتُ من صف اللغة حالما بدأ رئيسي في إجراءات كفالتي للحصول على البطاقة الخضراء؛ التي تضمن بقائي في أمريكا. بعد مضي سنتين، ابتداءً من اللحظة التي أصبحت فيها مقيماً دائماً، انتقلت للعمل في صحيفة أكبر وأهم؛ على الرغم من توبيخ رئيسي السابق في العمل لي بسبب الخيانة التي قمت بها بتركي للعمل لديه. بعد أن تنقلت في الوظيفة الجديدة في أكثر من ثلاثة مواقع، أخيراً حصلتُ على منصبي الحالي.

كان المقهى الذي في القرية، حيث كنا أنا وهايلي سنلتقي، كئيباً وحزيناً من الداخل، بالرغم من وجود شمعة كهربائية متوهجة داخل مصابيح على كل طاولة. كانت موجودة هناك عندما وصلت، رفعت يدها لتصافحني وكانت أناملها

النحيفة تلمِّح لي بخاتمها الألماسي. جلست في الكرسي المقابل لها.

«أنت تعمل على روايتي إذن»، تحدثتْ بفتور وعيناها موجهتان نحوي تماماً.

«صدقيني، كنت أُفضل أن أمضي وقتي بشكلٍ مختلف، ولكن رئيسي في العمل أوكل لي هذه المهمة. لا شيء شخصياً في ذلك».

قدمت نادلة شابة مرتدية سروالاً قصيراً من الجينز. ظلّت ترفع نظارتيها الكبيرتين؛ بينما كانت تدوّن القهوة التي طلبتها، من المؤكد أنها طالبة جامعية. كانت هايلي تحتسي قهوتها الاسبرسو التي طلبتها من قبل، وكان الطبق الموضوع أمامها ما زال محتفظاً برسمة أذن الفيل على حاشيته، وقد تفاجأتُ بأنها قد أنهت الفطيرة الكبيرة بالكامل. تابعتْ: «ولكن أنا أعتبر ذلك مسألة شخصية، بعد مضي سنواتٍ عديدة من العمل الشاق وخيبة الأمل؛ أخيراً أقوم بتحولٍ مفاجئ. وأنت تبدو مصمماً على تدميره، أليس كذلك؟».

أجبت: «الشيء الوحيد الذي يمكنه تدميرك؛ هو افتقار روايتك للجودة، فقط حماقاتك هي التي تحطمك، وهذا منطقي».

«ما زلت تلعب دور الرجل الحكيم. ولكن هذه المرة،

ستُفضّل أن تنتبه لعملك. روايتي عبارة عن مشروع وطني مُمَوّل من الحكومة الصينية».

أجبت مذهولاً: «حقاً؟». احتجت للحظات قبل أن أتمكن من الرد «هل يمولون المشروع؟».

قالت: «سأكتفي بالقول بأن أشخاصاً ذوي مناصب عالية يدعمون كتابي. أنت لا تتعامل معي وحدي فقط».

مثل اللجنة المركزية للحزب والبيت الأبيض؟ تذكرتُ المقالة السخيفة، ورغبتُ بالضحك، لكنني منعت نفسي عن ذلك. بالطبع، أي شيء يمكن أن يكون مشروعاً وطنياً، إذا كان هناك لدى بعض المسؤولين مصلحةٌ منه. بغض النظر عن صوت هايلي الهادئ، شعرتُ ببدء غضبها.

كانت عروقي أيضاً بدأت تتوهج غضباً، شيئاً فشيئاً، وبدأ جرحي القديم يتفتح بداخلي مرة أخرى ويتصدعُ قيحاً. قلت: «على حسب علمي، لقد بدأتِ العمل على الكتاب منذ سنواتٍ عديدة، وليس له علاقة بأحداث الحادي عشر من سبتمبر. كان من المفترض أن يكون كتاباً للسيرة الذاتية، كيف بحق الله خسرت زوجك في انهيار مركز التجارة العالمي؟ وكيف بدا لاري فناناً مُبهراً؟».

أجابت: «إنها عبارة عن رواية، حيث يُمكنني تأليف الدراما والشخصيات حسب ما أشاء... يكمُن جمال الكتابة الخيالية؛ في أنك تستطيع صنع الشخصيات والأحداث حتى تكتمل القصة بشكلٍ كامل. بإمكانك أن تفرض منطِقك وتربطه مع الشخصية التي تعبر عنها درامياً. في بعض الأحيان يجب عليك الكذب حتى تصل للحقيقة الأكبر والأهم».

«ولكن الشخصيات الرئيسة مذكورة بعد شخصيتك أنتِ و«لاري»، وفي حديثك مع الإعلام؛ كنتِ مُصِرّة على أن الشخصية مبنية على أحداث تجاربك الشخصية، وأن كلّ حدث مستمد من أحداث واقعية. لقد كان ادعاؤك بالصدق المُطلق؛ يُحجّم هويتك ككاتبة».

«هذا الغرور هو جزء من الرواية».

أجبت وقد زاد غضبي خلال لحظات: «ولكن تلك التصورات والألفاظ المدوِيَة؛ لا تضيف قيمةً إلى العمل الفني. إنها مناسبة لاستغلال شفقة الآخرين».

وتابعتُ: «ماذا سيخطر في أذهان العائلات المتضررة من أحداث الحادي عشر من سبتمبر؛ عندما تقرأ ما كتبته؟ ألن يتهموكِ باستغلال آلامهم وخسائرهم؟ حتى إنّه لمن الممكن أن يصل الأمر بأحدهم للقول إنّك ارتكبتِ جرماً بحق أمريكا».

«يا إلهي، توقف عن ذلك. أنت معتدٌ بنفسك، كعادتك». أجابت، وقد لوحت بيدها صارفةً النظر عما قلته، وتابعتْ: «هل تعتقد بأنني لم ألقِ اهتماماً لتلك القضايا؟ ولكن موهبتي الفنية هي بوابتي للعبور للحرية الخلاّقة. أضف إلى ذلك، أن العديد من الناس قد استخدموا التراجيديا بشكل جيد. البعض من أصدقاء لاري صنعوا ثرواتٍ عديدة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر. بالتحديد كل شخص ساهم في البورصة؛ قد استفاد جداً من هذا الهجوم».

ودون أن أعطي أي رد فعل على ما قالته، أجبت: «هذا لا يبرر بأنك محقة بما تفعلينه»

أجابت؛ وقد كنت أرى أن عقلها في سباق «على النقيض من ذلك، أنا صادقة أكثر بكثير من أي وسيط تجاري، لقد أمضيت أكثر من ألفي ساعة في كتابة تلك الرواية. ونتائج عملي هذا ستكون جيدة ومفيدة للعالم بأجمعه، سيحفز التبادل العاطفي بين الصين وأمريكا، وسيساعد القُرّاء على التعاطف مع عائلات الضحايا».

أملت رأسي للخلف وضحكت، واجتذبت ضحكتي انتباه النادلة الشابة ورجلين آخرين جالسين على كرسيين مقابلين للرف المخصص للبار. أعلم أن هايلي تستطيع دائماً اختراع

التفسيرات المزيفة في لحظة (اندفاعية). لم يكن هنالك أي سؤال يخطر في عقلي بأن زوجتي السابقة والناشر الخاص بها يتقصدان خداع الشعب. والأسوأ قادم، روايتها كانت رخيصة، رديئة، وأيضاً، بحسب ما تم تناقله، مليئة بالتعابير الرديئة وفياضة بمشاعر مبتذلة. ولكنني لم أستطع أن أعبّر لها أكثر من ذلك، بقدر ما كنت أرغب بذلك. لأنني كنت بحاجة أن أستلم نسخةً من الرواية ـ بحسب ما وعدتني به.

أجبتها: «سأكون عادلاً عندما أكتب عن روايتك».

«دانلن، أنت رجلٌ نبيل»، أخفضت صوتها قليلاً، وحدقت فيّ بشرارة صغيرة من رفرفة عينيها، وقالت: «أستطيع أن أعتمد عليك بذلك، أليس كذلك؟».

لم أكن أستطيع أن أعدها بشيء في تلك اللحظة، ولكن كما قلت «سأكون مُنصفاً».

ابتسمت وقالت «سأعيرك واحدةً إذن»، واحمرّت وجنتاها.

بالنسبة لهايلي، فإنّ علاج المسألة معي كان يتدرج من دعوة على العشاء في مطعمٍ راقٍ، إلى بطاقتي تذاكر لحفلة أوبرا؛ كانت تفترض دائماً أنه من السهل عليها التعامل معي. كنت منزعجاً، وكنت أريد إخبارها بأن تبعد مفاتنها القديمة، ولكنني قلت فقط: «هل بإمكاني الحصول على الأوراق؟».

فتحت حقيبتها المحمولة والمبطنة ذات السحاب النحاسي على كلا الجانبين، كان من الواضح أنها ذات صناعة صينية رخيصة، وأخرجت منها حزمة من الأوراق يضمها مشبك أحمر: أكثر من مئة صفحة سميكة. «هذه بعض فصول الرواية، كل منها مستقل، إلى هذا الحد أو ذاك، عن بقية الفصول. بعد أن يتم تدقيق الكتاب؛ سيكون بوضع أفضل بالطبع. لذلك لا تكن متصيداً للأخطاء»، ووضعت ضفيرةً متدلية من شعرها خلف أذنها. وضغطت بأصابعها على حلقها الملتف، ثم انزلقت أسوارة من الأحجار الكريمة على يدها، ومالت برأسها قليلاً متوجهة إليّ وعيناها متلألئتان.

«بما يتعلق بهذه النقطة، وكما قلت سابقاً، سأكون منصفاً. شكراً جزيلاً»، ووضعت الأوراق داخل حقيبتي الكتفية المصنوعة من القماش.

سألتني: « كيف حال كيتي؟».

«إنها بخير».

لقد ذكرني سؤالها بأنها تربت مع صديقتي، وربما باعدتهم الطرق مؤخراً. ولكن كيتي لم تلمّح لشيء قط. ماذا كانت تريد هايلي من سؤالها؟

قالت: «أبلغها تحياتي».

«سأفعل».

سألتْ؛ وقد ارتسمت ضحكتها الوردية على وجنتيها أعلى وجهها النحيل: «متى ستتزوجان؟».

لم أستطع أن أحكم إذا كان هذا السؤال ذكياً أم مجرد مهزلة. يجب أن تعلم هايلي بأنني لم أعد مهتماً بالزواج، وأنني تكيفت مع حياة العزوبية. بالرغم من ذلك، أجبت: «نخطط لأن نتزوج خلال الصيف المقبل، خلال هذه الفترة؛ ستكون كيتي قد أنهت كتابها، وستكون مستعدة للترقية في عملها».

«لا تنسَ أن تدعوني أنا ولاري».

«بالطبع».

فكرت بالسؤال حول لاري، لكن منعت نفسي عن ذلك، لأنني كنت أعلم أن زواجهما لم يكن بالهدوء الذي قد يظهر به للعيان. بحسب ما سمعت، لقد كانا عادةً ما يتشاجران. وأُشيع بأن هايلي كانت تناديه بألقاب عديدة حتى أمام ضيوفها، لأنها تتحدث معهم باللغة الصينية؛ وهو لا يفهمها، ولا يعرف بها شيئاً، بل بالكاد يجري بوجه مقفر، مسحاً بسيطاً للآخرين عندما يتحادثون أو يبتسمون. وقفتُ واستأذنتُ بالانصراف، كنت مسروراً لأن أوراق هايلي كانت بحوزتي.

الفصل الثالث

لم تكن هنالك أية خطط للزواج؛ على الرغم من أنني أخبرت هايلي بذلك، لأنني لم أكن أهتم بهذا الموضوع أبداً. عندما تلدغك الأفعى للمرة الأولى؛ ستصبح خائفاً، حتى من منظر حبل متمدد بين الأعشاب.. كنت مصدوماً كما لو كنتُ أمام هذا المشهد، لم أكن مجروحاً كما كانت أختي تعتقد؛ لقد كانت تتساءل في ما إذا كنت غير قادر على الوقوع بِحُبِ امرأة طوال حياتي. (ضحكت من هذا الاعتقاد المبتذل). باعتقادي، إن العديد من حالات الزواج ليست أكثر من غطاءٍ للخداع والخيانة، بمظهر خارجي مزيف من الاحترام. نظرياً، من المفترض أن هذا الرباط (الرسمي)، يضمن بقاء الحب دون أي انحراف عن مساره، ولكن في الواقع، نادراً ما يتحول الحُب إلى التزام.

بقدر ما كنا أنا و«كيتي» مولعين ببعضنا البعض، كنت أتجنب أن نتطرق لموضوع الخطبة. ولحسن الحظ، هي أيضاً لم تكن مهتمة بالزواج، وبدت مقتنعة وراضية بالأشياء كما هي.

كيت تورني، هي ابنة لأب إيرلندي وأم ألمانية فليبينية، وُلدت في ولاية كاليفورنيا (المليئة بالثروات)، وترعرت في جورجيا الخضراء والفخمة، وفي جنوب كارولاينا. لقد كانت تدعو نفسها بالفتاة الآسيوية الأمريكية؛ بالرغم من عينيها الخضراوين وشعرها الطويل الكستنائي اللون. كما لو كان ربع دمها الفلبيني؛ هو الذي يُعرِّف عن أصلها وعِرقها. هذا الشيء الذي لم يكن بمقدوري اكتشافه عن أمريكا، حيث القليل من قطرات الدماء السوداء؛ قادرة أن تسم الشخص بأنه أسود أو ثنائي العرق، بينما في الصين لا يكترث الناس كم يكون دم الإنسان مختلط الأعراق، أو ما هو لون بشرتك، تعتبر شخصاً صينياً إذا عشت مع الصينين لفترة طويلة. بالطبع، إذا كنت من الأقلية العرقية؛ ستتحول الآن إلى شخص من الثقافة البربرية.

على أية حال، بالرغم من كرهي للعنصرية، الذي كنت أحتفظ به سراً، لقد كان هناك مكان مستتر داخل عقلي فيه بعض من الاعتداد بمواعدة كيتي ذات البشرة الناعمة والكنية الإيرلندية، واللتين (توحيان) بأنها امرأة أمريكية بيضاء؛ فهايلي، بالمحصلة، كانت قد هجرتني من أجل رجلٍ أمريكي أبيض.

تعمل كيتي كبروفيسور مساعد في علم الاجتماع، متخصصة في الثقافة والمجتمع الصيني في جامعة نيويورك. وتعمل على

كتاب عن توفير الخدمات الطبية في الريف الصيني، حيث يمثل هذا الكتاب مشروعها للترقية في الفصل المقبل، وكان بالنسبة لها مسألة حياة أو موت، ونقطة تحول قد تحيي وظيفتها أو تميتها. قبل التقييم، كان يجب عليها أن تحصل على موافقة على نشر كتابها من ناشر معروف وحسن السمعة، والأمر الأمثل، أن يكون ذاك الناشر هو صحافة جامعية رسمية. الضغط الذي يشكله الجدول الزمني للترقية؛ كان يجعلها متوترة ومشتتة في بعض الأحيان، كانت تأتي لتراني مرة في الأسبوع، ولمدة قصيرة من الزمن، وأحياناً أخرى أذهب عادةً في نهاية الأسبوع إلى القرية، وأبقى هناك حيث تقطن. لقد اقترحت عليها مسبقاً؛ أن ننتقل للعيش معاً؛ حيث يمكنني أن أراها تنام بجانبي كل ليلة، ولكنها قالت إنها يجب عليها أن تركز على بحثها وكتابتها، ووعدتني بأنها حالما تنهي كتابها؛ ستأخذ اقتراحي بعين الاعتبار وبجدية. لقد كان من غير المحتمل أن تترك شقتها ذات الأربع غرف المقدمة لها بدعمٍ من الجامعة، ولذلك من الأفضل، أن تقترح عليّ أن أنتقل للعيش معها في تلك الشقة، والتي قد تلائمني جداً، سأكون سعيداً جداً بالسكن قرب جامعة نيويورك؛ لأحضر المحاضرات والمؤتمرات هناك.

بعد سنوات من طلاقنا، انطويت على نفسي وحيداً، ولم

أواعد أي فتاة مطلقاً. وكنت أحلم بصور هايلي عندما كانت في سنواتها الجامعية الأولى، ولكني كنت أشعر بالاشمئزاز في كل مرة. بدأت أشعر بالخوف من النساء، خاصة اللواتي من مدن الصين. يا إلهي، كم تشعرني تلك النساء المشدودة الوجه بالاشمئزاز! قاسيات قلب وعديمات رحمة! وحتى اللواتي تجاوزن الأربعين من أعمارهم، ما زال لديهن شغف الثورة في قلوبهن، ليس من أجل السماء ولا من أجل الدنيا (أنا متأكد أن بودهن أن يقطعن لساني فقط لأنني ضايقت بعضهن في مجلات التحرير). ولكن كوباً من الشاي سيبعد عني فكرة الصين المزعجة، وسيجعل من تلك النساء في واقع لا تحمد عقباه.

وحتى أقلل من اضطراباتي؛ وجدت ملاذي في العمل، وقمت بالكثير من العمل الإضافي.

ومع مضي الوقت، تجرأت أكثر وواعدت القليل من النساء، كورية، وسنغافورية، وتايوانية، ولكنهن جميعاً تركنني خلال مدة أقل من شهرين أو ثلاثة، ولم يستطعن تحملي أكثر. (بالنسبة إليهن، حقيقة أنني لم أُحب طعام الديم سوم الصيني ودجاج الكونغ باو الحار، وفن الخط والفنون القتالية، ولعبة كرة الطاولة اليابانية، والعلاج بالوخز،

أو شخصية الملك القرد، بالرغم من قدراته السحرية، والتي مكنته من تحويل نفسه إلى اثنين وسبعين مخلوقاً... هذه الأمور كانت تعني لهم أنني أكره الصين. وبالنسبة للمرأة الكورية، بالرغم من أنني أحببت طعام الكيمتشي الكوري، فهي لا تزال تعتقد بأنني شخصٌ حقود). ولكنني أحب فقط الأشياء تلامس قلبي! من ذا الذي يجرؤ على القول إن ابراهام (العازف الألماني) الشهير؛ لم يقم بتأليف سيمفونياته أيضاً من أجلي؟. ولجعل الأمور تسوء أكثر، لقد كن جميعهن يتوقعن مني أن أخطب، كما لو أنني قتلتهن جميعاً؛ وحكم عليّ بالموت في حفلة الزواج.

أخبرتهن بأنني غير مهتم بالزواج، وبأني بكل الأحول لا أملك أي شيء يمكنني من البدء في تكوين أسرة. إحداهن أصرت على أن أي رجل يواعد امرأة دون قصد الزواج منها، إنما هو شخصٌ متطفل؛ إن لم يكن أشبه بالحيوان المفترس. لقد اتهمنني جميعهن بأنني «كارهٌ للنساء»، (لقد كنّ يعرفن هذا التعبير الإنجليزي بطريقة ما)، وأنني أقوم باتخاذ جميع الحسابات المتعلقة بأمرٍ ما «مخطط كبير»، وبحسب كلمات المرأة التايوانية، معلم رقص ذو شكلٍ جميل وعينين مخمليتين. وللأمانة، لم يسبق لي أن أخفيت خطة سرية أو حصلتُ على

منفعة منهن. وبالرغم من ذلك، كلما كن يتذمرن أكثر، أصبحتُ متوتراً، وشعرتُ بالعجز أكثر.

لقد ظهرت كيتي في حياتي مصادفةً؛ كنتُ عادةً أتعجب من حظي. أو هل كانت هذه هدية أنعمت بها عليّ المقاطعة؛ بسبب بعض الأفعال الجيدة التي قام بها أسلافي؟ لقد كانت باحثة صينية طموحة، لديها بعض العلاقات في البر الرئيس في الصين، وأيضاً في تايوان وهونغ كونغ وجنوب شرق آسيا. لقد كان لقاؤنا الأول في سوق المزارعين المحلي في فلاشينغ، حيث اعتدتُ الذهاب هناك للتسوق. كانت تحاول التفاوض مع بائع الفواكه؛ ولكن لم تتمكن من فهم لغته الكانتونية. ساعدتُها قليلاً؛ ومن ثم أجرينا محادثةً بلغة الماندرين. وافقت على أن نلتقي مرةً أخرى، متشوقة لتعلّم هذه اللغة بشكلٍ أكبر.

بعد أسبوع من أول موعد لنا لتناول القهوة، كنا نتحادث عن شتى المواضيع، بدءاً من نقص المياه في المدن الصينية؛ إلى حياة الأمريكيين الأصليين في الأراضي الخاصة بهم، ومن الثوم الأوروبي إلى الخيار والبروكلي الذي كان يكرهه الرئيس بوش الأول؛ والذي بالرغم من ذلك لم يبدأ النمو في الصين قبل عقدٍ من الآن كالقرنبيط الأخضر. جلسنا في مقهى يقع في ساحة واشنطن، ولقد كانت تحتسي القهوة؛ بينما كنت أشرب الشاي الذي كان خفيفاً جداً بالنسبة لذوقي. إذن،

يبدو لي أن مذاق الشاي الأمريكي بأنواعه، صناعيٌ وضعيف الجودة. في نهاية لقائنا؛ رغبتْ بفنجان قهوةٍ آخر، وسألتني إنْ كنت أرغب بتناول شيءٍ آخر، في تلك اللحظة لم أكن أرغب بتناول القهوة بعد، ولكني أجبت «لا بأس بالقهوة»، ظننتُ أنه من الوقاحة ألّا أتناول شيئاً.

سألت مرة أخرى: «ما حجمها؟»

«لا بأس بأي حجم».

طلبت فنجانين من القهوة ذي الحجم المتوسط. تناولتُ رشفةً بسيطة، لم أحب مذاقها، ولم أتناول منها مرةً أخرى. تحادثنا لبضع دقائق إضافية قبل أن أتوجه عائداً إلى حي فلاشينغ، ألقيتُ فنجان قهوتي في القمامة حالما غادرنا. نظرت إلي كيتي محدقةً ومشدوهة، وكانت عيناها تقدحان غضباً. ودّعنا بعضنا البعض، وتوجهت بعيداً نحو الشارع الثامن، كان لقدميها عضلات خلفية طويلة.

في تلك الليلة، تلقيت رسالة غاضبة منها؛ حيث قالت فيها بأنني كنت مستهتراً، وأنني كنت سبباً بإنفاق مالها بغير حق؛ كتبت: «إذا لم تكن ترغب بالأصل في شرب القهوة، فقد كان عليك ألا تجعلني أدفع ثمنها. قد تدعوني بالبخيلة، نعم أنا بخيلة. لقد كان مالي الذي ضاع هباءً، وليس مال أحد آخر».

كنت مصدوماً! كيف لها أن تغضب كل هذا الغضب من أجل فنجان قهوة؟ إنها تعمل بروفيسور في الجامعة، ومن المؤكد أن مرتبها الشهري يليق بها كبروفيسور. على الرغم من ذلك، شعرت بالخجل من فعلتي تلك؛ بعد أن فكرت بها للمرة الثانية. لقد كانت محقة بأنني لم يجب عليّ إلقاء القهوة. إذا حُولت 1.75 $ إلى الين الصيني؛ فإنها مبلغ جيد يكفي لشراء طبقين من المعكرونة. اعتذرت لكيتي، وأبديت تقديري لصراحتها، بعد ذلك بقيت أشعر بعدم الارتياح، وكنت أفكر ملياً ما الذي دفعني لأفعل ذلك بغير تفكير. كتبتُ عموداً صحفياً بعنوان «فنجان قهوة»؛ كنوع من البحث عن الذات، سألت نفسي من خلاله: لماذا؟. فقيراً كما كنت، لقد كنت مبذراً، و كل ما كنت أفكر به هو أن أترك انطباعاً جيداً عني لدى امرأةٍ جميلة. كانت إجابتي بأنني بلا شك، ما زلت أحمل بعض الرواسب الذهنية من خصائص وظيفتي السابقة كصحفي في الصين. بالعودة إلى هناك، كان يُعتبر المراسلون أشخاصاً مهمين جداً من قبل العامة، وكان المسؤولون في المناصب الأقل يعاملونهم بشكل جيد جداً؛ بالرغم من أننا بالنسبة لرؤسائنا في العمل؛ بالكاد كنا بمثابة بعض الكتبة. عندما نزلتُ المدن والمجالس المحلية لأكتب عن الأحداث والأشخاص هناك، لا أذكر أنني دفعت مالاً مقابل تناول الطعام. ودائماً ما كنت أحصل على العشاء

والنبيذ، وتعاملني الكوادر الإدارية كمراقب رسمي أو ما شابه ذلك، حتى أكتب عنهم وعن الإقطاعية العامة بشكل إيجابي. وحتى بالعودة لمكتبي في الصحيفة، كنا ندفع أجراً زهيداً: عبارة عن ينَين للعمال المسؤولين عن تحضير وجبات الغداء، والتي كانت باذخة، وتستحق على الأقل عشرين ضعفاً من هذا الأجر الزهيد. الكثير من الشركات المحلية كانت تعمل بالطريقة نفسها؛ حيث تقدم الغداء للموظفين مجاناً. وكنتيجةٍ لذلك، كبرتُ وأنا غير مهتم بالطعام والشراب، وكنتُ عادةً أرمي بقايا الطعام في القمامة. أدركتُ في الحقيقة، عادةً ما يكون الشخص كريماً حين يستخدم مال الآخرين. أنهيت مقالتي بهذه الجملة «من الآن وصاعداً، من الأفضل أن أعامل كل فنجان قهوة أو شاي، كشيءٍ تم شراؤه من العشرة سنتات الخاصة بي».

لاقى هذا العمود الصحفي إقبالاً جيداً، وتمت إعادة طباعته في العديد من الصحف والمجلات باللغة الصينية في الولايات المتحدة وكندا. وعلى الرغم من أنني لم أذكر فيه اسم كيتي، أرسلتُ لها نسخة منه. أعجبها المقال، وأرسلت لي تخبرني بأنني كنتُ رجلاً صادقاً، وأرادت مقابلتي مرة أخرى.

بدأنا نلتقي معاً أكثر من ذي قبل، كانت كيتي تصغرني بثلاث سنوات، ولكن كانت لديها الخبرة في المواعدة أكثر

مني. وكانت واضحة منذ البداية بأنها لا تريد أن تشكل علاقة دائمة في ما بيننا؛ لأنها لم تكن متأكدة كم ستبقى للعيش هنا في نيويورك. وكان هذا الوضع أفضل بالنسبة لي. قالت بأنها مشدودة تجاهي، لأنني الرجل الأول الذي يقترب منها دون مبالغات منذ اللقاء الأول. كانت كيتي رشيقة ممشوقة، وتحافظ على لياقتها بالذهاب إلى نادي اللياقة البدنية؛ ما جعلها تبدو بمظهر فتان. شعرت مع كيتي بأنني أشعر بالحب لأول مرة في حياتي. لقد جعلتني أشعر بذاتي. ومن أجل ذلك سأكون دائماً ممتناً لها مهما حصل بعلاقتنا معاً.

جاءت كيتي حيث أقطن بعد الساعة السابعة مساءً، كانت ترتدي فستاناً معرّقاً فوق جوارب سوداء. وكانت حقيبة يدها ممتلئة بمجموعة من المقالات الصينية. لقد تعلمت اللغة الصينية في جامعة جون هوبكنز كطالبة في المرحلة الجامعية الأولى، ولكنها لم تكن تستطيع قراءتها بشكلٍ سريع. طلبت مني أن أطّلع على مجموعة من المقالات، وأَن أتخلص من المقالات التي لا تفيد بحثها.

كنت دائماً أنا الذي أعدُ الطعام لكلينا. في بداية علاقتنا، أخبرتها أن هايلي أخبرت القرّاء الصينيين معلومة خاطئة؛ تدّعي فيها أن الرجل الأمريكي إذا كان يطهو الطعام لامرأته؛

فهذا يعني أنهما غير لائقين لبعضهما في السرير. ضحكت كيتي وقالت بأنها كانت تواعد رجالاً يتفاخرون بمهاراتهم في إعداد الطعام. كان واضحاً أن الحياة المنزلية ليست أكثر ما يلائمها. وفي حال عدم وجود أي رجل في حياتها في وقت ما، كانت تحضر الساندويشات من مطعم المأكولات السريعة، أو كانت تطلبها وتأكل خارجاً، أو تتناول الطعام داخل المطعم. يمكننا القول ـ بحسب المقاييس الصينية ـ بأنها كانت مسرفة بشكلٍ كبير. ولكن ما كان يوازن تلك الصفة؛ هو أنها لم تكن دقيقةً في اختيارها؛ فعندما كنا نخرج معاً، كنا نذهب لأي مكان مثل مطاعم المعكرونة، البيتزا، الزلابية، ماكدونالد، صب واي، وحتى إلى أكشاك الطعام الريفي الرديء في الدور الأرضي من مركز التسوق الذهبي في الشارع الرئيس.

في هذه الليلة كنت أطبخ معكرونة باللحم، مختلط مع الهيليون المقطع والبصل الأخضر. عندما جهز الطعام تناولنا ببطء. كانت كيتي بمزاج غير جيد؛ بسبب رفض القنصلية الصينية لطلب الحصول على التأشيرة الذي قدمته مسبقاً. لقد عُرفت بين الباحثين في الصين؛ بأنها ناشطة تحت السن القانوني، وأنها قبل سنتين ساعدت مجموعة من أبناء التيبت في الصين بتنظيم مؤتمر دولي في جامعة نيويورك. بعد ذلك، كتبت مقالة عن السياسات الصينية تجاه الأقليات، وتحدثت

فيها أن الصين قامت بخطوة عظيمة ذات اتجاه عكسي في تلك المنطقة (حيث يقوم رجال الشرطة عادة باعتقال أو احتجاز الناشطين دون تهمة محددة). وضعت تلك المقالة كيتي في ورطة مع المسؤولين الصينيين، أحدهم قال لها في حفلة وبلهجة حادة «لقد كنا نبقي أعيننا مركزةً عليك، لا تفترضي أنه يمكنك الهروب بعدوانيتك تجاه الصين. نحن لا ننسى شيئاً، بإمكاننا أن ندمر وظيفتك... وبإمكاننا مساعدتك على النجاح بها». في الحقيقة، لقد قاموا بعرقلة عدد لا بأس به من الباحثين، هذا إنْ لم يقوموا بتدميرهم أصلاً، عن طريق عزلهم مهنياً، وعن طريق منعهم من دخول الصين، وحتى عن طريق مقاطعتهم في المؤتمرات. تلك الإجراءات؛ حثّت بعض الصينيين في أوروبا والولايات المتحدة قبل سنوات، على توصية حكوماتهم بعدم انتقاد الصين على المحضر المهين الذي قدمته بشأن حقوق الإنسان. وناقشوا فقط الالتزام بالعمل التجاري مع الصينيين، وجني الأموال بقدر الإمكان. حالما تتجذر الرأسمالية في تلك المدينة، ستظهر الطبقة الوسطى بقوة، وتتكون الديمقراطية في طريقها إليها. والآن جميعنا يعرف أن الصين، التي تمثل التنين صعب المراس، قد تطورت لمزيج خاص وغير مسبوق، مكوَّن من طرف واحد لأقلية رأسمالية جشعة.

سألتُ كيتي عن طلب التأشيرة: «هل قدموا لك أية أسباب هذه المرة؟».

«كلا، لقد أخبرني المسؤول هناك: أنت تعلمينَ لِمَ يجب علينا رفض طلبك مرة أخرى». قالت ذلك عابسةً، وقد بدت التجاعيد الرفيعة على جبينها، والتي جعلت وجهها الذي أخذ شكل القلب يبدو نحيلاً وهزيلاً.

وتابعتْ: «ربما لم يجب عليّ إخبارهم بأنني خططت أن يكون مجال عملي في مقاطعة هينان».

«هل تعتقدين بأن هذا كافٍ لجعلهم يصممون على منعك؟».

«من الصعب الحكم على ذلك».

«هل ذكرت لهم أنك تودين مقابلة الناس المصابين بفيروس الإيدز؟».

«كلا، لستُ غبية إلى هذا الحد».

«سأسأل كاي مينغ أن يوصي بك جيداً، من المؤكد أن لديه علاقات جيدة في القنصلية».

فقالت وقد بدا الحماس في عينيها: «أرجوك، افعل ذلك».

وهنا بدأت بإخبارها عن القصة التي أحقق فيها، وكانت كيتي قد سمعت مسبقاً عن رواية الحب والموت في ديسمبر؛ فقد وصل ضجيجها إلى وسائل الإعلام الصينية في الشتات الصيني، وكانت أيضاً قد قرأت مقالة عنها في صحيفة «ساعة الصين»، وهي صحيفة شعبية تُوزّع في المحلات الصينية وفي زوايا الشارع، ولكن لم تكن لديها أية فكرة أن المؤلفة هي زوجتي السابقة.

أخبرتها عن لقائي بهايلي، وكيف كانت تدّعي بأن الرواية عبارة عن «مشروع وطني»، ابتسمت كيتي وقالت «إنها امرأة مخزية». قلتُ لها: «لأكون منصفاً، لا أعتقد أن بإمكانها أن تأتي بخدعة مدروسة لوحدها فقط. إنها ليست بهذا القدر من التعقيد، ولا تمتلك أية استراتيجيات للقيام بذلك. لهذا، ربما تكون على حق، وربما توجد عُصبة من الأشخاص يعملون خلفها، ولكن لماذا يستخدمون أحداث الحادي عشر من سبتمبر كوسيلة بيع لتلك الرواية؟».

«لاقتحام سوق الكتب الأمريكي».

«ولكن لماذا؟».

«ثمن الكتب هنا باهظ جداً، وهي تريد أن تحصد أكبر قدر من المال».

«قد يكون هناك تفسير أنسب لذلك...».

«وما هو؟».

«لم أستطع وضع يدي على السبب بعد.. كاي مينغ يقول إن الناشر تقصّد أن يجني معظم المال في السوق الصيني، لذلك سيعتبر النشر الأجنبي لهذا الكتاب بمثابة مصادقة».

«مصادقة على ماذا؟».

«على جودة الكتاب».

«يا له من فعلٍ شاذ! هل وصلنا إلى وقت باتت فيه حتى الروايات الرومانسية الصينية بحاجة إلى مصادقة أجنبية؟».

«الكثير من قرّاء القصص هناك، لا يصدقون بالدعايات الوطنية؛ لأنهم معتادون جداً عليها. ولكن إذا حصلت رواية ما على سمعة دولية، فإنها ستجلب الانتباه بشكل أكبر».

بعد تناول العشاء، وضعت هايلي ألبوماً موسيقياً لفرقتها الشعبية المفضلة؛ «بروباغاندي»، وبدأت بغسل الصحون، بينما كنت أنا أتصفح بعض المقالات التي أحضرتها معها، وقد وجدتُ ثلاثاً منها قد تساعدها في بحثها. بعد ذلك، تمددت على الأريكة وبدأت أقرأ النسخة التي سلمتني إياها هايلي.

كان السرد مرحاً وسلساً بمعظمه، وتسهل قراءته بسرعة،

ولكن كانت هناك أيضاً مواضع يبدو فيها ثقيل الوقع وسوقياً. شخصية الراوي ضمن روايتها؛ يان هايلي، كانت تعيد وتكرر مرات ومرات؛ أنّ ما تحكيه هو رواية لسيرة ذاتية بشكلٍ مطلق. لقد كانت تذكر ذلك كلما سنحت لها الفرصة، وكانت تدّعي بأنها قابلت عدداً لا بأس به من المشاهير: سول بيلو، آرش بيشوب، ديسموند توتو، ساندرا بولوك، هيلاري كلينتون، لاورا بوش. شيء واحد كنتُ متأكداً منه في هذا السياق، هو أن هايلي أخذت صورة مع دالاي لاما، ولكنها لم تذكر اسمه خوفاً من مراقبة المطبوعات في الصين. لقد قدّمت نفسها على أنها ابنة فنانين متميزين، نحاتة ورسام مناظر طبيعية هاجر من تيانجن إلى ملبورن في أواخر عام 1970؛ عندما كانت طفلة صغيرة. ترعرت كيتي في الخارج، وكانت تكتب عن طبيعة الحياة الغربية، وهي مدركةٌ لها تماماً. ولكنها كانت أيضاً تحافظ على جذورها في الثقافة الصينية، والتي غذّت حياتها وفنها، ولهذا كانت تستمر في الكتابة بلهجتنا الأصلية المحبوبة، واستطاعت بسهولة أن تكتب هذه الرواية باللغة الإنجليزية، لقد تفاخرت بذلك، ولكنها كانت تريد في المقام الأول أن تشارك القرّاء الصينيين بخبراتها. وبشكلٍ أساسي أكثر، فقد اضطرت أن تحافظ على

ولائها تجاه لغتنا الأم الجميلة والعميقة والمعقدة بشكل لا محدود، وبذلك تستطيع أن تحتفل وترقص بإرادتها فرحاً بذلك. ولذلك، كانت اللغة الصينية بمثابة حمولتها الأثمن (كنزها الذي لا ينضب).

كانت الحكاية بأكملها، بطريقةٍ ما، تدور حول شخصية هايلي. لقد كان هذا تصرفاً روتينياً بالنسبة لي، وعرفتُ الآن مع من كنت أتعامل، لم يكن هذا الأمر يزعجني كثيراً.

الفصل الرابع

لم أذهب إلى المكتب في اليوم التالي، وتابعت عملي في البيت بدلاً من ذلك. وجدتُ الكثير من المعلومات في ما يخص رواية هايلي على وكالة أخبار إكسنهوا، وأخبار تنسينت والموقع الرسمي لمؤسسة الكُتاب الصينيين. يبدو أن الضجيج حول هذه الرواية منطلق بقوة في وسائل الإعلام الصينية. صرّحت مقالة مطوّلة نُشرت في صحيفة الفن والأدب، من ناشر اسمه جو بينغ، بأن نشر رواية الحب والموت في ديسمبر؛ يُعتبر حدثاً رئيساً في الأدب الصيني المعاصر. لقد كانت في طريقها لأن تصبح من أكثر الكتب مبيعاً دولياً، حيث كتب:

«إن من شأن نشر هذا الكتاب؛ أن يفتح أبواب أسواق الكتب الأمريكية والأوروبية على مصاريعها للكُتاب الصينيين الآخرين. إن هذا الكتاب يُعد نوعاً أدبياً جديداً، يحاول إخفاء الفرق بين الخيال واللاخيال، لقد حفزت الصور النقية والمذهلة؛ حيوية هذا الكتاب وأصالته. والأهم من ذلك،

كانت بطلة الرواية متمرِسة، ولا تعرف الخوف؛ وبذلك قدّمت هذه الرواية لنا وللأدب القصصي المعاصر، ولادة شابة صينية؛ أخذت من هجراتها حالة إنسانية وتاريخية، امرأة كانت تتجول هنا وهناك لا تتبع هدفاً سوى عواطفها، وتطمح لتحقيق الانسجام الجسدي والروحي في حياتها الشخصية، امرأة تختلف عن معظم الصينيين الذين لم يكن باستطاعتهم السفر خارجاً، تجوب العالم، وتستطيع التحدث بعدة لغات، تستطيع دون جهد أن تخالط الناس من شتى أنواع الثقافات، وتشعر أن منزلها في جميع القارّات. ولأن الصين قامت بفتح أبوابها على مصاريعها، وأصبح باستطاعة الناس أن يسافروا للخارج، فقد أصبح من المؤكد أن باستطاعة الفتيات ممن يمتلكن هذا النوع من الشخصية؛ أن يظهرن في القصص الخيالية واللاخيالية. علاوة على ذلك كله، تُمجّد هذه الرواية ثبات وعمومية المشاعر الإنسانية من حيث كونها غير مقيَدة بالحدود الثقافية واللغوية».

كناقدٍ، قال جو بأنه يجب عليه أن يرفع قبعته للظهور الأول للمؤلفة ذات الأسلوب المخادع والضعيف، والتي استطاعت بقوة قلمها، وبضربة واحدة؛ أن تؤمن موقعاً دائماً لها في الكتابات الأدبية الصينية.

تساءلت، من يكون جو بينغ هذا؟ هل هو محتال نهم؟ تذكرت اسمه بعد برهة؛ لقد قرأت عنه قبل سنوات قليلة. لقد كان مدير المحررين في مجلة فنون الأُدباء، وهي مجلة شهرية مطبوعة، تتفاخر بأن لديها مئة وأربعين ألف نسخة، وهي واحدة من المجلات الصينية الدورية التي لا تدفع مبلغاً جيداً للمساهمين بها. من أحد مقولاته السيئة التي وجهها بسرية لمدربة رقص شابة «أنا معيار فنونك»، ولكنها صرّحت بها أمام العلن. إنّ ناقداً بقوة جو ومكانته، بإمكانه في الحقيقة أن يبني أو يهدم سمعة أي أديب. ولكن لماذا هو مهتم بهذا القدر بكتاب هايلي؟ هل له أيضاً يدٌ في تلك الخديعة؟ هل تتواطأ هايلي معه؟ ربما. لقد انحدرت هايلي إلى فئة الأشخاص الذين يُطلق عليهم لقب «الفراشات الاجتماعية»؛ والتي تحلق حول الجماعات الأدبية باستمرار مستعدة لفعل أي شيء حتى يتم نشر كتاباتها.

بينما كنت أصنف نتائج بحثي، صادفتُ تقريراً حول تجمع للمشاهير أقيم في فندق يقع في وسط مدينة بكِين ظهر اليوم السابق. لقد كان مؤتمراً صحفياً نوعاً ما، ترَأسه جو بينغ، وحضره العشرات من النُقَاد المعروفين، نصفهم من أساتذة الأدب المعاصر. حيث امتدحوا جميعهم الرواية ومؤلفتها

الشابة، والتي من المؤكد أن بصيرتها الرائعة وطموحها الملتهب؛ كانا مصدر إلهامها. لقد اعترفوا بانبهارهم وذهولهم وحتى إنهم أوشكوا على البكاء. ادّعى أحدهم أن كتابها هو «انتصار وفوز»، وآخر قال «إنه تحفة نثرية مكتوبة بألوان الطيف السبعة ومُعدّة لتُخلّد»، وقال ثالث «إنه عملٌ سحري من الخيال العالمي»، وأضاف رابع «إنه كتاب متفرِد بجماله، وشعره، وعمقه، وتعقيده»، وقال خامس «إن هذا الكتاب تعالى على الأحزان الشخصية، وتوصل إلى عمومية قدر الإنسان ومصيره»، وهذى سادس «تخيلوا، أربعمائة صفحة دون ملاحظة حتى خطأ واحد... كعضو في لجنة الروائيين، أنا متفاجئ كلياً بهذا الكتاب. يا لها من مؤلفة مبتدئة رائعة. برافو».

لم يكن باستطاعتي استحضار الميدان الأدبي الرفيع المستوى الذي افترضه هؤلاء الباحثون مكاناً لتلك الرواية. على أي أساس يصفون هذا الكتاب بـ «المعلم البارز»؟ أعرف بعضاً منهم، لقد كانوا متواضعين ويمتلكون الحكمة، لم أتصور أبداً أنهم قد ينضمون لمثل هذا الإطراء المزيف. من المؤكد أن مبلغاً باهظاً قد دُفع لهم مقابل كلماتهم التي جادوا بها؛ بوجود مبلغ جيد، يمكنك أن توظف الشيطان ليعتني بقدميك ويغسل ملابسك الداخلية.

جو، الذي كانت صورته متصدرة الموقع الإلكتروني لمجلة فنون الأُدباء، برأسٍ أصلع وعينين مقنّعتين ووجه عريض، صرّح بأن العمل جارٍ على ترجمة الرواية التي ستصدر قريباً «بأكثر من ثلاثين لغة في الوقت ذاته»! ـ أعدت النظر مرة أخرى؛ ظنّاً مني أن الرقم كان خطأ مطبعياً، ولكنه ثلاثون بالفعل ـ وتابع جو «هذا عددٌ هائل بالنسبة لثقافة القراءة المضمحلة، مثل سقوط المطر في الوقت المناسب على أرضٍ عطشى».

حركتُ رأسي غير مصدق. لقد كان ذلك اليوم بمثابة اليوم الأخير لهؤلاء النُقّاد على الأرض، لم يعودوا مهتمين بما سيقوله الناس عنهم في الغد. ولكن ما زالت لديهم عائلات... ماذا سيقول عنهم أطفالهم، وأزواجهم؟

اتصلت برئيسي في العمل، ونقلت له نتائج البحث الذي قمتُ به. قال كاي مينغ «إن جو بينغ ليس إلا محتالاً آخر».

سألته: «هل تعرفه؟».

«لقد قابلته في بكين قبل ثلاثة أسابيع».

قلت له، غير متمكنٍ من إخفاء الاستهزاء بهؤلاء النقاد: «لماذا يفعلون ذلك؟ لإحياء ذكرى الحادي عشر من سبتمبر؟».

«من أجل المال. يريدون جني أرباح هائلة، ولذلك فإنّ

الرواية يجب أن تبرز من ضمن آلاف الروايات المنشورة في الصين هذه السنة».

«ولكنها ليست أكثر من قطعة من القمامة، قرأت بعضاً من أجزائها الليلة الماضية».

أجابني كاي مينغ ضاحكاً: «ولهذا أوكلت هذه المهمة لك. لقد توصلت إلى أنه لا يوجد أحد غيرك قد يستطيع الوصول إلى نسخة من الرواية».

«ما الذي يدور بين جو بينغ ويان هايلي؟».

«يعمل جو محرراً خاصاً لديها، لقد نسيت أن أخبرك عنه».

«ولكنني ظننتُ أنه محرر في مجلته الفنية فقط».

«لقد كان يعمل لدى دار النشر الخاصة بجياو فانبنغ بشكل جانبي. لم يستطع الانتظار حتى تصبح رواية هايلي من أكثر الكتب مبيعاً دولياً ويحصل هو على حصته من الأرباح. لقد أخبرني من قبل بأنه يخطط لاستخدام تلك الحصة كدفعة أولية لشراء سيارة من نوع فولكسفاغن جيتا، ولشراء شقة في أطراف بكين».

«لا أستطيع أن أصدق بأنه يريد أن يصبح غنياً بهذه الطريقة».

«قال جو بأنه اتفق هو وهايلي على أن يتقاسما العوائد مناصفة».

«هل أستطيع أن أذكر خطته في عمودي الصحفي؟».

«لا، لا، من الأفضل ألا تفعل، وإلا سيدرك جو بأنني أخبرتك بذلك. وسيبدو ذلك غير مهني وتشهير برئيسك في العمل. صراحةً، إذا كان هذا الكتاب جيداً، لن أبالي كيف قاموا بترويجه».

«ولكننا قد بدأنا بالتحقيق في الأمر وسننشر تقريرنا حوله. لا توجد طريقة تجعلك بعيداً عن هذا».

«سنقوم بنشر التقرير لأننا يجب علينا أن نمنع هؤلاء المحتالين من استعراض مهرجانهم هنا. أضف إلى ذلك، أنهم قاموا بتوجيه الأشخاص الصينيين بشكل خاطئ وجعلوا أمريكا والصين تبدوان متشابهتين».

قلت له: «أتفق معك. في الصين يستطيعون بحيلتهم أن يجعلوا من الأرض والجنة أماكن تجارية، ومن الممكن ألا يستطيع أحدٌ إيقافهم هناك. ولكن لماذا يُحضرون أكاذيبهم جميعها إلى هنا؟».

«يستطيع الكِتاب في نيويورك أن يدخل السوق العالمي. يوجد أربع أو خمس بوابات يستطيع الكُتّاب في الصين أن

يعبروا من خلالها إذا أرادوا تحقيق قراءة عالمية لكتاباتهم؛ باريس البوابة الفرنسية، وبرلين البوابة الألمانية، ولندن ونيويورك البوابة الإنجليزية. التفاحة الكبيرة (مدينة نيويورك) تُعتبر لغاية الآن من أكبر الشبكات اتساعاً. وفقط من خلال هذه المداخل؛ يستطيع الكُتاب من مختلف اللغات غير الغربية الدخولَ إلى الفضاء العالمي. في حالة زوجتك السابقة، اختاروا نيويورك لتكون نقطة الدخول».

«من أين جئت بفكرة البوابة؟».

«لقد استنتجتها بنفسي».

كان كاي مينغ شخصاً وسيماً من شوشان، المدينة التي ولد فيها ماو تسي تونغ. ولذلك فإنّ الكثير من الناس أسموه حفيد الرئيس ماو. لكنه كان أوسم منه، حيث لديه ملامح غامضة، وعيونٌ لامعة وأنف مستقيم قوي وذقن بشق طفيف. الأمر الذي جعلني أفكر بأنني لو كنت مكانه لأطلقت لحيتي. كان كاي مينغ رجلاً رائداً موهوباً في الأعمال: لقد جاء إلى الولايات المتحدة فقط بستمئة دولار قبل سبعة عشر عاماً، والآن يمتلك حصة كبيرة في وكالة الأخبار، حتى أن القنصل الصيني يحترمه بشدة. لقد تمت دعوته إلى جميع المناسبات العامة الكبيرة للمجتمعات الآسيوية في واشنطن ونيويورك.

انتشرت علاقاته الشخصية في العالم: يمتلك كاي مينغ علاقات من جنوب أفريقيا إلى فنلندا. وقبل أن أنهي المكالمة، ذكرت طلب كيتي الذي قدمته للحصول على التأشيرة. وأخبرني بأنه سوف يُحضرها بطلب رسمي إلى القنصل في السفارة.

تابعتُ في المساء البحث في الرواية والتفكير في وضعي. كان من الواضح بأن هايلي كانت متورطة مع الناشر والمحرر، ولكنني أحتاج إلى دليل أمتلكه. وعندما كنتُ على وشك البدء في كتابة الفقرة الأولى من تقريري، رن جرس الهاتف. لقد كانت هايلي وبدا صوتها متوتراً. أخبرتها بأنني لا أستطيع تجاهل أكاذيبها التي كررتها وأنّ علي أن أقوم بعملي، «كي أكون صريحاً معكِ، لا أستطيع أن أفسر ادعاءك بأن روايتك الرومانسية عديمة الوزن هي تحفة فنية».

فصرخت قائلة: «لا تكن متبجحاً. عندما نُشرت رواية جين إير لأول مرة، كانت تُعتبر رومانسية. وكذلك الأمر مع رواية ذهب مع الريح. حتى رواية آنا كارنينا كانت رواية رومانسية. أليس كذلك؟... ليس هنالك من سبب للاستمرار في التصنيفات الهرمية الأدبية في عصورنا الحديثة».

«هذه نقطة غير محورية. السؤال هو إذا كان ما كتبته مهماً جداً كما تزعمين».

«أعرف ذلك، أعرف أنك ستجد طريقةً لتنتقم مني».

«دعينا نكن منصفين، لو كان كتابك مهماً فإنه من حقك تماماً أن تروجي له بأي طريقة تريدينها، حتى لو تغنيت بمديحه، ولكنه فظيع. لقد جعل جلدي يقشعر. كيف لكِ أن تصفي عيون فتاةٍ سوداء بأنها جميلة كجمال الكوكا كولا المثلجة؟ كيف لك أن تقارني مؤخرة لاري بتحفةٍ فنية منحوتة. صراحة، لا أعتقد بأن مؤخرته جميلة بأي حال. هذا يتعدى ذوقي؛ أن أجعل ذلك جميلاً، يبدو...».

«توقف عن مهاجمتي. إنه أدب خيالي، أتفهم ذلك؟ لا يمكنك أن تربط كل شيء بعالم الواقع، كما لو كنتَ تبحث عن كرسي بتذكرة في حفلة أوبرا».

قلت لها: «ولكنك في كتابك ومقابلاتك أكدتِ أكثر من مرة بأن الرواية عبارة عن سيرة ذاتية عميقة، وبأن كل حلقة فيها هي حقيقية، وبأنك فقدتي عذريتك لزوجك الأمريكي. ألم يكن ذلك صحيحاً؟».

توقفتُ وأغلقت عيني. تذكرت ليلة زواجنا، لقد شربتُ حد الثمالة وألقيت بنفسي على فراش غرفة نومي الجديدة، قامت هايلي بتنظيف الفوضى دون أي كلمة. ومن ثم قامت بتحريك الخل مع العسل في زجاجة من الماء المغلي لي.

سألتني: «دانلن، أما زلت هنالك؟».

«نعم».

«أنت تعلم بأنك ما زلت أحد نقاط ضعفي. هل نستطيع أن نتقابل في مكانٍ ما ونتحدث سوياً عن هذا؟».

«ماذا تعنين؟».

«ألم تكن تلمح دائماً بأنك تحب أن تمضي وقتاً معي».

«كان هذا قبل أن ألتقي بكيتي».

«هل نستطيع أن نمضي ليلة واحدة مع بعضنا البعض؟ سأكون متفرغة هذه الليلة وليلة الغد. وسأكون جميلة معك».

«أفهم ذلك».

تظاهرتُ بأنني أريد التفكير بالأمر. سألتها: «أين لاري؟».

«لقد ذهب إلى مؤتمر في مدينة مكسيكو»، وخيّم الصمت. ثم قالت: «أعرف بأنك عدوي، إذا كنت مصمماً على تحطيم قاربي سأدعك تغرق أولاً».

«هذا جيد. افعلي ما يحلو لك».

«أنا أحذرك، لا تتدخل في شؤوني. الرواية مشروع وطني. إن والدي ناشري الخاص لديهما نفوذ لا محدود في الصين، ويستطيعان أن يدمراك ويدمرا عائلتك».

«قد يمتلكان كل شيء هناك، ولكن ليس هنا في الولايات المتحدة الأمريكية. ربما تعلمين بأن مجموعة من الصحفيين قد أطاحوا بالرئيس ريتشارد نيكسون. وحتى لو أن والدي جياو فانبنغ حكموا البيت الأبيض فإنني سأقوم بما تمليه عليّ مهنتي».

«ستدفع ثمن ذلك جحيماً».

«سمعتك جيداً! مع السلامة».

أغلقتُ الهاتف. لقد كنتُ مثالياً جداً في هذه المكالمة. ولكن أستطيع بشكل عملي أن أخرج من هذه القصة؛ لأن والدي كانا متقاعدين ولا أملك سواهما، ولدي أختٌ كبرى في الصين لا تعمل خارج المنزل. هنالك القليل جداً بوسع هايلي ومعاونيها لإيذائهم. بالإضافة إلى ذلك، فإنها باعترافها شخصياً قد أحبت والديّ، وقد زارتهما قبل عامين عندما رجعت إلى الصين للعمل. كانا لا يزالان على غير علم بطلاقنا- حيث اتفقنا أن نبقيهم بعيدين عن وجع القلب. ما زالت تدعوهما: أمي وأبي، وأعرف أنها قد أرسلت لهما عبوتين من الأحماض الأمينية (الفيتامينات المقوية)، كما أنها أرسلت لهما عبوةً من لحم البقر المجفف المبهر بالفلفل قبل مهرجان الربيع الأخير. لا أصدق أن هايلي ستنقلب فعلاً على والدي اللذين أحباها ومدحاها لدرجة كبيرة أمام أي شخص

يسمعهما. أملك ورقة لعب ضد هايلي، لقد تم تجنيسي، وليس عليّ واجب أن أطيع المسؤولين الصينيين هنا، ولا أن أخاف من سحب جواز سفري. لا أمتلك حالياً جواز سفر، لقد أرسلت جواز سفري القديم إلى السفارة الصينية للتجديد قبل بضعة أشهر؛ ولم أحصل عليه بعد. وسلمت بطاقتي الخضراء لوكالة التطبيع والهجرة، أي أنني قانونياً في مرحلة تحول من الجنسية الصينية إلى الأمريكية. تعترف الولايات المتحدة بازدواجية الجنسية، ولكنها لا تشجع عليها، أما الصين فبالتأكيد ترفضها تماماً. أتفهم عقليتهم، أعلم أن الانتماء لا يجب أن يُقسّم. بالرغم من أني أشعر في بعض الأحيان بأن قلبي مقسمٌ، وبأني مُحاطٌ بالشكوك حول التخلي عن جنسيتي الصينية. ولكن حتى لو لسعتُ بنغمةٍ من الحزن، يجب أن أبتعد حتى أتمكن من العيش، حتى أجد مكاناً أعيش فيه بأمانٍ وحرية. الحرية والعدالة هي أشياء مهمة لي؛ حتى لو مررت بإرادتي نحو ألم اقتلاع نفسي من الجذور. لقد أرسلتُ شهادة إثبات الجنسية وصورة شخصية لي تبين أذني الاثنتين للحصول على جواز السفر الأمريكي. توقعت الحصول عليه خلال شهر أو نحوه. تهديدات هايلي كانت لا تساوي شيئاً بالنسبة إلي، فأنا أؤمن بأمريكا؛ فطالما قمتُ بدفع الضرائب وأطعتُ القانون، فإن الدولة ستوفر لي الحماية.

الفصل الخامس

أنهيتُ العمود الصحفي في صباح اليوم التالي، وقام الموقع الإلكتروني بنشره كالمعتاد في وقت مبكر من الظهيرة، وخلال ساعات أرسل نظام الإشعارات يعلمني أنّ مقالتي تم ربطها بمواقع الأخبار في هونغ كونغ، تايوان وأوروبا. أوضحت الطبيعة البشعة لرواية هايلي في المقالة، وذلك بالضد من الصورة الناصعة المعروضة من الناشر الخاص بها، وقمت باقتباس العديد من الفقرات الرديئة لأوضح وجهة نظري. لقد كشفت العلاقات التجارية غير المشروعة بين الناشر والمحرر والمؤلفة بقولي: «إن هذا الكتاب هو من بنات أفكار ثلاثة أشخاص حاولوا استغلال ذكريات الناس حول أحداث الحادي عشر من سبتمبر لابتزاز نقودهم حتى يثروا بين عشية وضحاها»، ولأن هذه الذكرى السنوية المؤلمة كانت على الأبواب، فإن مقالتي لاقت الكثير من الاهتمام، حيث إن العديد من الجرائد المحلية في أمريكا الشمالية طلبت من

وكالة الأنباء العالمية الإذن بإعادة نشرها. وفي اليوم التالي رن جرس هاتفنا دون توقف.

بعض المتصلين كانوا مواطنين عاديين، يشيرون إلى مشاريع تجارية استغلالية في مجتمعاتهم لم تعد عليهم بأي فائدة في محنهم، ولكنهم الآن يأملون أن نقوم بالتحقيق بها. وفي بعض المواقع الإخبارية والترفيهية، مثل ساينا وتنسنت، فإن الكثير من الناس أدانوا يان هايلي وجياو فانبنغ وجو بينغ، وأطلقوا عليهم لقب «المثلث الشرير»، وكذلك «عصابة الثلاثة».

أصر عدد لا بأس به من القراء على أن هايلي أعطت المجال للمحرر الوقح الذي عُرف عنه بأنه زير نساء وذو سمعة سيئة، أحدهم كتب أن «هايلي معشوقة جو بينغ، وهي متسلقة اجتماعية»، مجموعة من الأسماء، ضمت ليس فقط أسماء الثلاثي، بل وأيضاً أسماء بعض النُقاد ممن ظهروا في صور المؤتمر الصحفي الذي عقده بينغ للحديث عن الرواية، هذه الأسماء نشرتها بعض المواقع الإلكترونية تحت مسمى قائمة العار. لقد صنعتُ لنفسي لحظةً قصيرة من الانتصار الخاص، كل شيء كان يدل على أن هذه العصابة المحتالة سوف تنتهي.

ولكن خلال أيام، ظهرت العديد من المقالات الإيجابية عن كتاب هايلي في الصين، في الجرائد والمواقع الإلكترونية، مثل

«اكزنهوا» و«الكاتب الصيني». أظهرت جريدة كوانزو اليومية، مقابلة جديدة تعرض صورة هايلي على قارب بحري في نهر الهدسون، كانت ترتدي نظارات شمسية بلون الشاي الداكن، وتنورتها الطويلة ذات اللون الأبيض العاجي، ترفرف مع نسيم الهواء، وكان شعرها منكوشاً. بدت جميلة وبإطلالة مريحة، كمثال لامرأة ناجحة صنعت مستقبلها في الخارج. لقد ولدت بهذه الثروة ـ كما أوضحت المقابلة ـ وأنها لا تمتلك أي مفهوم للمال، كما لو أن المال يعني لها عيداناً من المعكرونة التي تنمو على الأشجار، (لا تعلم من أين تأتي).

لم تعمل يوماً واحداً في حياتها (بالرغم من أنها كانت تعمل معلمة في مدرسة إعدادية لسنوات عديدة)، وأنها لا تقدر الممتلكات المادية على الإطلاق؛ حيث ادّعت أنها أرستقراطية روحية، وأن كل ما كانت متحمسة لأجله هو الحب النقي والأبدي. كما أظهرت الصحيفة أن الحب، حسب قولها، كان ديناً لها، ولدت من أجله، وأنها ستكون سعيدةً عندما تموت من أجله، وادّعت في المقابلة أنها بدأت بالكتابة بتأليف رسائل حب كل يوم خلال سنوات مراهقتها المبكرة. كانت تضعها في حقائب الكتب المدرسية للأولاد الأذكياء الذين أحبتهم. تأففتُ بصوت عالٍ، عندما قرأتُ هذا ـ لم ترسل لي رسالة حب في حياتها. لقد كنتُ أنا الذي يكتب

لها دائماً. لأضع جانباً كل أحد كان يلاحقها من الفتيان. لقد كان حقيقة أنها عشقت بعض الرجال الموهوبين، خاصة إذا كانوا شعراء موهوبين وفنانين وروائيين ورسامين ومؤلفين موسيقيين، ولكنها لم تعرف الأذكياء أبداً، كما كانت تسميهم. لقد كانت تخبرني دائماً بأنني أنا الأذكى والأفضل من بين جميع الذين قابلتهم. بالطبع بعد قدومها إلى نيويورك، التقت مع جميع أنواع الرجال الأذكياء، وخاصة أنّ الكثير منهم كانوا يفوقونني بذواتهم المختلفة ودوافعهم القوية. لقد توسعت بركتها الذكية وبدأت تشعر أكثر بإحساسها بذاتها.

كيف انحطت لتصبح كاذبة وقحة؟ هل كان ذلك لأنني خيبت آمالها، لأنني لم أكرس حياتي للمستقبل الذي وعدت نفسها به؟، لا أعتقد ذلك. فأنا لم أعدها بأنني سأصبح فناناً أو شاعراً، كانت دائماً تشتكي بأنني لست طموحاً كالفنانين والشعراء، ولكن لا أحد يستطيع أن يتطور أكثر مما تسمح به قدراته، ما الذي تستطيع أن تفعله إذا وُلدتَ إنساناً عادياً؟

هنالك ما هو أكثر... ما أدهشني، هو ما جاء في مقالة في جريدة يانتزي الصباحية، أن هايلي قد باعت نصّ فيلمها الذي تمحور عن روايتها إلى هوليوود بانوراما، بما يزيد على 1.3 مليون دولار. كان هذا أكبر تصدير ثقافي تم إنجازه من مؤلف صيني، كما أوضحت المقالة. وبالتأكيد، فإن هايلي صنعت

مجدها... «لقد أحبوا النص»، قالت هايلي لأحد الصحفيين، وأضافت: «إن مخرج الفيلم وزملاءه قرأوا النص وهم يذرفون الدموع». وكلمسة أخيرة، أوضح جو بينغ للجريدة أن الترجمة الإنجليزية للرواية قد اكتملت على يد أحد المترجمين الأمريكيين المحترفين بالأعمال الصينية، والذي يُدعى إدوارد سلفروود.

لقد كنتُ مندهشاً من وقاحة هايلي؛ هي ومعاونوها، لم يترددوا بالاستمرار في مشروعهم، وتجاهلوا مقالتي والرأي العام ـ كما لو أن هذه الجلبة لم تعنِ لهم شيئاً في مخططاتهم. بل على العكس، كانوا يندفعون بشكلٍ أكبر، كانت كذباتهم تصل لي بشكلٍ أسرع من قدرتي على الاستيعاب، والآن هنالك إعلان في جريدة المرشد الأسبوعية، بأن رابطة أدبية للكتاب الصينيين في ولاية نيوجرسي، ولجنة الترشيح لجائزة نوبل في أمريكا الشمالية، سيقومون بترشيح يان هايلي للفوز بجائزة نوبل للآداب. لقد ضحكتُ غير مصدق هذا، لأنني أعرف أن هذه المجموعة يرأسها صاحب مطعم كانتونيس، وهي مكونة من حوالي عشرين أديباً معتدين بأنفسهم، وكل واحدٍ منهم يمتلك اسم شهرة خاصاً به، مثل «مطر الصيف»، «العيون المدخنة»، «البامبو الصغير»، «آكل الحبر». كانوا في الحقيقة جديين كثيراً في مهمتهم لنشر التذوق الأدبي في

الأدب الصيني المعاصر حول العالم، وكثّفوا جهودهم بطرق غير تقليدية. يمتلكون شركة نشر صغيرة، حازت ستة أو سبعة ألقاب خلال سنة واحدة من المؤلفين المهاجرين. كلّما مرّ كاتب صيني أو مسؤول بالشؤون الثقافية في ولاية نيوجيرسي، يقوم مدير المطعم باستضافته وينشر صوراً له متفاخراً بذلك. في الحقيقة، إنهم يخافون أن يكون العالم نسيهم، يقومون بمساعدة الكتاب الصينيين بإرسال نُسخ موقعة لكتبهم تُظهر أسماء المؤلفين وسيرهم الذاتية إلى الجامعات الأمريكية المهمة. وبالمقابل، فإن أعضاء هذه المجموعة، تتم دعوتهم إلى المؤتمرات والمهرجانات الأدبية في منتجعات السوّاح في الصين، حيث يجلسون معاً على موائد الطعام ويزورون أماكن مختلفة حسب اهتماماتهم. وكذلك يحاضرون في جامعات وكليات مختلفة كأشخاص ناجحين: كأشخاص حققوا المال والشهرة لأنفسهم في أمريكا الشمالية، هذه الأرض البرية الرائعة.

كيف لهم أن يكونوا مؤهلين ليرشحوا شخصاً ما لجائزة نوبل، على المرشّح القانوني أن يكون على الأقل أستاذاً بروفيسوراً أو باحثاً مرموقاً. وأكثر من ذلك، فإن الجائزة لا تُمنح تقديراً لكتاب واحد، بل لإنجازات تجترح على مدى الحياة، (في إحدى ملاحظات النقاد التهكمية، قد تكون

الجائزة رثاءً باهراً لشخصٍ ميت). كنتُ متأكداً أن هايلي لم تكن مهتمة بالجانب التكريمي، ولكنها كانت تضع عينيها على الجائزة النقدية. كيف بحق السماء لمثل هؤلاء أن يتوقعوا قبول الترشيح لجائزة نوبل، المكيدة الناتجة عن رواية هايلي كانت تزداد هزلية ساعة بعد ساعة.

ذهبتُ لمكتب كاي مينغ لأناقش معه القصة. كان يكتب مقالة عن مبيعات الأسلحة من الولايات المتحدة إلى تايوان. وعندما رآني استدار من خلف جهاز الحاسوب، أخبرته بأنني قلق بأن الأمور تسوء أكثر فأكثر. لكنه عرض لي تطورات الموضوع من منظورٍ مختلف؛ برأيه، فإنّ الوضع الفعلي، هو أن احتيالاتهم قد وصلت إلى الحافة، وأنهم مصابون بالحمى، وربما يرتعشون خوفاً، لكنهم لا يستطيعون ببساطة أن يكبحوا دواسات السرعة التي كانوا قد داسوا عليها بشدة، عليهم أن يهدئوا من روعهم ويظهروا أكبر قدر ممكن من اللامبالاة، وإلا فإنهم سيفقدون ماء وجوههم أمام الناس، وسيتلقون الضربات من أعدائهم. يمكن حتى أن يتم طرد جو بينغ من مكتبه إذا اعترف بسوء التصرف. «إنهم يمتطون نمراً ولا يستطيعون النزول عنه». ختم كاي مينغ قوله بهذه الجملة وفرك عينه، كان دائماً واثقاً من آرائه.

لقد حلق شعره وبدا أصغر سناً هذا اليوم، بدا رأسه مستديراً أكثر من المعتاد، وكان ذقنه أفضل. أمسك بيده ذات العضلات المشدودة كوباً من الشاي الساخن يتصاعد منه البخار، الأمر الذي ذكرني بهوايته المفضلة في الإبحار وحيداً في المحيط، كطريقة لتصفية ذهنه. أكّد أنه «علينا أن نستمر في فضح أكاذيبهم».

أدركتُ أن كاي مينغ كان يلاحق القضية عن قرب، بالرغم من علاقاته الحميمة مع السلطات الصينية، إلا أنه أراد أن يبقى محايداً في نقل الأخبار، لذا، يمكننا أن ننمي شهرتنا كمصدر غير متحيز للقراء الصينيين حول العالم؛ مصدر يمكنه نقل الأخبار حيث لا يمكن لإكزنهوا أن تفعل. في الحقيقة، فإنّ الناس بدأت ترى وكالة الأخبار العالمية بهذه الطريقة، وكل شهر يزداد قرّاؤنا آلافاً. مؤخراً، استطاع كاي مينغ أن يوسع دار نشره الصغيرة، التي قدمت كتباً عديدة عن الناس والأخبار والأحداث التاريخية التي من الممكن مناقشتها علناً في الصين. كانت مبيعات كتبه جيدة في هونغ كونغ، وفي بعض المطارات في آسيا الشرقية الجنوبية، وأكثرها للصينيين المسافرين برّاً. وبشكل سرِي، كان كاي مينغ طَموحاً أكثر مما كان يبدو عليه. كان يضرب بأوراقه ضربة قاضية. في مرة واحدة فقط، كان ثملاً في مطعم مع قريبين له، اعترف بأنه يرى نفسه مثل جوزيف بولتزر، وتمنى أن يصبح رجلاً ثرياً

يتم ذكره في الجرائد. لهذا السبب يخطط لنشر جريدتنا التابعة لوكالة الأخبار والمجلة حول العالم، عندما يجمع الثروة اللازمة لذلك. لقد أُعجبت به دون الحاجة لقول ذلك، لقد أصبح عمره ثلاثة وأربعين عاماً، وكان دائماً رجلاً عصامياً، امتلك مشروعه الخاص، وطفلين جميلين وزوجة محبة. لقد كان النجاح بعينه.

وباتباع تعليمات رئيسي في العمل، بدأت أتحقق من ادعاءات هايلي الأخيرة حول روايتها. كان المترجم إدوارد سلفroود مشهوراً جداً في الصين، والفضل يعود للعديد من مقابلاته التلفزيونية، وكان أستاذ الدراسات الآسيوية الشرقية في جامعة ديوك. اتصلت به صباحاً، ولكنه لم يكن موجوداً في مكتبه. وحوالى الظهيرة، اتصلت به مجدداً، وفي الجرس الثاني أجاب صوتٌ خشن، لقد كان الأستاذ البروفيسور سلفroود، الذي كان يمتلك صوت رجل عجوز، بالرغم من أنه كان في الخمسين من عمره. كان يبدو عليه أنه عمل كثيراً الليلة الفائتة ولم ينل نوماً كافياً. وبدأ حديثه مضطرباً عندما ذكرت له اسم رواية هايلي، قال: «ذكرني باسم المؤلف مرة أخرى».

«يان هايلي».

«رجل أم امرأة».

قلت له «امرأة».

ردّ بصوت قوي: «هل قرأت الكتاب؟».

«ما الذي أستطيع قوله؟ إنه أقل من عادي».

«أنا سعيد بأنني لم ألمسه بعد، علي فعل الكثير في هذه اللحظة، لا أستطيع العمل بمشاريعٍ جديدة».

هذا منطقي؛ لقد سمعت بأن الكثير من الكُتّاب الصينيين يسعون ليترجم أعمالهم، بالرغم من سعره المرتفع، بالإضافة إلى رسوم الترجمة المدفوعة من الناشر، فإن على الكُتَّاب أن يتقاسموا الأرباح بالنصف معه. يمكنك الاحتجاج بأن هذا ليس عادلاً، ولكنها كانت استراتيجيته. ما هو رخيص لا يمكن أن يصبح ذا قيمة في ما بعد. لذلك فإن العديد من المؤلفين الصينين، خاصة أولئك أعضاء جمعية الكتاب الصينيين الذين يستلمون رواتبهم من الدولة، يتنازلون للمترجم سلفروود عن حصصهم من النسخ الإنجليزية؛ باعتبار أن ترجماته تمكنهم من فتح الأبواب على الأسواق العالمية للكتب؛ حيث إن الكثير من الناشرين الأوربيين يجعلون عقودهم مبنية على النسخة الإنجليزية من ترجمات سلفروود.

كانت طريقة سلفروود التي يتبعها في الترجمة، تبدأ بقراءة النص، ثم يبدأ بكتابة تلخيص قصير، ومن ثم يترجم

فصلاً واحداً أو فصلين يعتقد بأنهما الأكثر أهمية، ثم يفوض وكيله ليقوم بتسويق مقترح النشر للناشرين في نيويورك. إذا تم بيع الكتاب، يتابع ويُكمل الترجمة.

ولكن قبل شهرين اعترف للجمهور الصيني في مقابلة على التلفاز، بأن رفوف مكتبه ممتلئة بمقترحات الترجمة المرفوضة من هذا النوع من النصوص. لقد أقرّ بأنه ببساطة لا يعرف ما الذي يمكن بيعه. ولليوم، فقد قام بترجمة أكثر من ثلاثين عنواناً، ولكن لا يوجد أي منها حقق أكبر نسبة مبيعات. ولم يتمكن حتى من ذكر أي منهم قد نال إعجابه أكثر. ومع ذلك لم يفقد العزيمة، إنه لا يزال مستمراً في تحقيق حلمه بأن يترجم كتاباً مميزاً، مثل «دكتور زيفاغو»، والذي بعد مضي أكثر من نصف قرن على نشره لأول مرة، لا يزال يُباع منه أربعة آلاف نسخة في السنة في الولايات المتحدة وحدها.

والآن، لقد أكدت محادثتنا الهاتفية أنه لا يوجد نسخة مترجمة إلى الإنجليزية من رواية هايلي. وهذا يعطي انطباعاتٍ كثيرة؛ هذا يعني أن ترجمتها «لأكثر من ثلاثين لغة»، والتي تفاخر بها محررها، غير موجودة من الأساس. العديد منها كان يجب أن تُبنى على الترجمة الإنجليزية، لأن

اللغة الصينية لغة صعبة الفهم، بحيث إنّ العديد من الدول لا تملك مترجمين يقرؤون اللغة الأصلية للنص.

الخطوة التالية، كانت تتمثل بالتواصل مع شركة بانوراما للصور في هوليوود. اتصلت بمكتبهم مرتين بعد الظهر، ولكن لم يُجب أحد حتى ظهر اليوم التالي، حيث تمكنت من التحدث مع مدير التصوير، وبدا هذا الرجل أيضاً مرتبكاً تجاه أسئلتي، تماماً كما كان سلفروود.

قال: «أعد ما قلته مرة أخرى».

كررت: «رواية الحب والموت في سبتمبر».

«لم أسمع بها من قبل. هل أنت متأكد من أن شركتنا اشترت هذا الكتاب؟».

«نعم، بانوراما للصور».

«حسناً، لا تستطيع أن تأخذ هذه الإشاعة على محمل الجد. إذا تم بيع نسخة لنا بأكثر من مليون دولار، فإن هوليوود بأكملها ستسمع بها. هل تعرف من هو وكيلها؟».

«ليست لدي أدنى فكرة».

ضحك بشكلٍ طفولي وقال: «هذا يبدو فعلاً أمراً زائفاً»،

وتابع: «سأخبرك بأمرٍ واحد: لم نطلب أي نسخة من أي كتاب مؤخراً».

شكرته وأغلقت سماعة الهاتف. لم أستطع المساعدة بشيء. ولكن كنت سعيداً بأن بيت هايلي الورقي بدأ بالانهيار. فكرتُ بأن أواجه هايلي بأكاذيبها التي اكتشفتها للتو. هل يجب عليّ إخبار رئيسي في العمل باكتشافاتي الجديدة وأحولها للنشر سريعاً؟ أو هل يجب عليّ أن أمنح هايلي فرصة لإجراء بعض الإصلاحات؟

هاتفتها في المدرسة الإعدادية، حيث كانت تعمل كمدرسة موسيقى، وأخبرتها بأن لديّ بعض الأسئلة لها، ولكنها كانت مشغولة في اجتماع للآباء والمدرسين، واقترحت عليّ أن نلتقي بشكلٍ خاص. وافقت متردداً بأن أراها في حانة (Love-ly Songs) في وسط المدينة بشكلٍ سريع في المساء المقبل.

الفصل السادس

الأمر الذي فاجأني، هو عدم حضور هايلي لوحدها إلى الحانة. كانت معها امرأة شابة ترتدي معطفاً أصفر وحذاءً من القماش المنقط. عرفتها فوراً: إنها شاو نيا. لقد كانت موظفة في جامعة نيويورك، وأسست موقعاً إلكترونياً لصحيفة أخبار باللغة الصينية، اسمها منبر شمال أمريكا، والتي تقع بشكل رئيس في إنجلترا. كانت من (هاربين) وتتكلم لغة الماندرين الصينية بمثالية، مثل مذيعة الراديو، كما يفعل العديد من الأشخاص الذين يسكنون تلك المنطقة. عرّفت هايلي عن نيا أنها صديقتها المفضلة، رفعت نيا يدها النحيلة، وشعرتُ بأنها مجبرة على ذلك عندما صافحتها. كانت الحانة مزعجة ومزدحمة، مليئة برجال الأعمال، الناس المترفين، والسُّواح، لذلك طلبنا مكاناً أهدأ لنجلس فيه. قادتنا فتاة نحيلة ترتدي مئزراً برتقالي اللون إلى غرفة صغيرة للموسيقى الصينية، رفعت من إضاءة الغرفة قليلاً، وأخفضت صوت موسيقى هونغ كونغ؛ عندما طلبتُ منها ذلك.

بعد أن جلسنا على المقاعد المصنوعة من الجلد، طلبت شاياً وسلطة فواكه وبازلاء ومكسرات حارة لكلٍ منا. قالت لي هايلي حالما غادرت الفتاة «ما جديدك؟»، وكانت عيناها محدقتان بي، وكان حاجباها مقطّبين.

أخبرتها: «لقد اكتشفت المزيد عن روايتك البذيئة»، وألقيت نظرة سريعة على نيا التي كانت قد خلعت معطفها ليظهر القميص البنفسجي الزاهي، وكانت تنظر حولها بذهول.

كررت هايلي: «ما جديدك؟».

«روايتك الرائعة، والتي ادّعيتِ بأنه العمل على ترجمتها جارٍ على يد أشهر مترجم؛ لقد اتصلت بإدوارد سلفروود، وقال بأنه لم يسمع عنكِ من قبل».

«أنا لم أذكر اسم المترجم الخاص بي. هل سبق وفعلتُ ذلك؟ هذه معلومة خاطئة أشاعها شخصٌ آخر ربما لينشر سوء فهم حول الرواية. ولكنني أقوم بترجمتها بنفسي».

لقد أذهلتني جرأتها، إنني أعلم بأن كتابتها للإنجليزية ما زالت في بدايتها. صحيحٌ أنها تتكلم الإنجليزية بلكنة خفيفة، وتستطيع أن تستخدم بعض التعابير، مثل «ملعون» و«لم أرك منذ وقت طويل» و«عشرون على عشرين وضوحاً»، ولكنها ترتكب بعض الأخطاء أحياناً عندما تستخدم بعض التعابير:

مثلاً «اكسر رجلك» بدلاً عن «حقق إنجازاً»، أو عندما تشجع شخصاً بقولها «اكسر دماغك» بدلاً من «ابذل جهداً». اعتادت على إخبار الأشخاص بأن أصحاب الدعايات قد خدعوها بأنها دفعت 19.95 دولاراً مرتين لتجمع الجوائز الكبيرة التي وُعدت بها. كانت مضطربةً ذات مرة؛ عندما قالت «لقد جُننت بسبب سيسلي» وهي أخت لاري الصغرى، التي تجاهلت نصائحها وانسحبت من الكلية لتنضم إلى فرقة موسيقية محلية.

وبأمانة، يمكن القول بأن هايلي كانت على مستوى أعلى من الأخطاء التي يرتكبها زملاؤها السابقون في المدرسة. لكن هايلي كانت تحتاج إلى سنوات حتى تكتب شعراً باللغة الإنجليزية يمكن نشره. الأمر الذي كان بوسعها فعله، كان مليئاً بالوهم ومصحوباً بالأنماط المبتذلة.

جاءت النادلة وقدمت الشاي والوجبات التي طلبتُها، وأمسكتُ بنكاشة أسنان قطعة من الأناناس الذي كان طعمه طازجاً ورطباً. قلتُ لهايلي: «ينبغي قول الحقيقة، قد لا يحب جورج بوش ترجمتك».

«لم أقل أبداً بأن البيت الأبيض مهتم بكتابي، لا تلعب دور الرجل العجوز الحكيم مرةً أخرى». وقبل أن أجيب، وافقتها نيا وقالت: «لقد كان جو بينغ هو الذي أعلن إنهاء

الترجمة الإنجليزية للرواية والمصادقة المحتملة من الرئيس بوش. هايلي لا علاقة لها بتلك الاقتراحات».

لقد دُهشتُ من كون نيا على علمٍ تام بهذه القضية، ما الذي كان يعنيها بها؟ لقد تعجبت من ذلك. هل هي متورطة معهم أيضاً؟ هل تقوم بالدور الدعائي لهايلي؟ هل لدينا أربعة في العصابة الآن؟

قالت هايلي: «أترى ذلك؟ لقد قمتَ بافتراضٍ خاطئ عني مرة أخرى. وأشارت إلى أنفي».

وتابعت: «سواء كان جيداً أم سيئاً، لقد تشاركنا أنا وأنت سقفاً واحداً وسريراً واحداً لسنتين، لقد تشاركنا الطعام في صحنٍ واحد، ولأكثر من ثلاث سنوات كنا زوجين. على الأقل، عليك أن تعاملني بطريقة محترمة أكثر».

«انتظري لحظة، أُنهِ كلامي بعد. لقد تحدثت مع مدير البانوراما لصناعة الصور أيضاً، إنهم لم يسمعوا بروايتك العظيمة أبداً، ولا حتى نص الفيلم المبني عليها. من أين حصلت على ثروة 1.3 مليون دولار؟»

خيّم الصمت، وأخذت هايلي تعض شفتها السفلى كما لو كانت تخفي الكثير من الأشياء، ومن ثم قالت: «لقد كتبت نص فيلم، والآن تقوم بدراسته إحدى شركات الأفلام».

«لا بد أنه استديو في شانغوشون أو كانمنج أو شينغ دو، أليس هذا صحيحاً؟».

وتابعت: «هذه هي الجهات الرئيسة التي لديها شركات الأفلام القديمة، وخاصةً الخاملة

منها».

«لا، إنها شركة أفلام أمريكية».

«هل تستطيعين الإفصاح بها لي أو لنيا؟».

قالت نيا: «أنا أعرف الإجابة تماماً».

قالت هايلي: «لا نستطيع التشارك معك في هذه المعلومة، وإلا فسوف تفسد علينا مشروعنا».

أجبت: «هذا هراء، إذا كنت لا تستطيعين الإفصاح عن اسم الشركة، سأعتبر صفقة الفيلم هذه كحزمة من الأكاذيب».

أجابت نيا: «دانلن، أنا أؤكد لك أن هايلي توشك على الانتهاء من نص الفيلم، وأن شكوكك لا أساس لها من الصحة، إنها لم تُنهِ بعد فكيف تم بيعه؟».

قالت هايلي: «ما زلنا في مرحلة المناقشة».

فقلت: «حتى لو كان هذا صحيحاً، إذن لا يوجد اتفاقية. من أين حصلت على 1.3 مليون دولار؟».

وتابعت قولي: «هذا يبدو لي أُكذوبة خالصة».

أجابت هايلي: «لقد اقتربنا من ذلك، أنا متأكدة أن النص الذي كتبته سيجلب لي هذا السعر، لأن ناشري خبير بتلك الصفقات. كل شيء سيأتي وفقاً لتوقعاتنا».

أجبتها: «هذا غير مقنع بالنسبة لي، أليس كذلك؟».

وتابعتُ: «أنا لست مهتماً كم ستصبح ثروتك. أريدك أن تريني الصفحة الأولى من الاتفاقية. كيف لك أن تثبتي ادعاءاتك للعامة؟».

أجابت هايلي: «إن العامة قد تم التلاعب بهم وتضليلهم من قبل أشباه صحفيين مثلك. الحقيقة أنه لا يكاد يمضي يوم دون أن تستخدم مهنتك لتحبط بها الناس الآخرين. لماذا؟ لماذا أنت مصمم على إهانتي؟ ما الذي ستخسره من نجاحي؟ لا أستطيع أن أفكر بسبب إلا بشيءٍ واحد، وهو أنك تستمتع عندما تشاهدني أعاني».

«لا تخلطي الأمور ببعضها وتتهميني بشيءٍ آخر. ألستِ أنتِ من كذبت عليّ كذبة واضحة منذ البداية؟ ألستِ أنتِ من تتاجرين بآلام الناس وخساراتهم بهذه الرواية؟».

وضعت هايلي يدها الصغيرة على وجهها وانفجرت بالبكاء وبدأت تمسح خدودها بأصابعها.

قالت: «ما الذي فعلته لك لأستحق هذا منك؟»، وبدأت بالعويل.

نظرت إليّ نيا نظرة ساخطة وبصقت في وجهي قائلةً: «أيّ نوعٍ من الرجال أنت؟ ألا تمتلك قلباً؟ لماذا تستمتع بإيذائها؟».

«بأمانة، أنا لا أستمتع بمقابلتكما أنتما الاثنتين. أنا أريد فقط أن أوقف هذه الخدع قبل أن تخرج عن السيطرة. فإذا بدأت بالتدحرج ككرة الثلج، فإن الكثير من الأسماء سيتم تدميرها، والكثير منا سيقع بالخزي والإحراج. الكثير من الصينيين سيشعرون بالخجل».

«عليك أن تتوقف عن الأسئلة التي لا تحب الإجابة عنها»، قالت نيا بحدة وعيونها مفتوحة على اتساعها.

أجبتها: «إنها مهنتي، لا أستطيع فعل أي شيء آخر»، وتابعت «أنتما مستمتعتان بكونكما تحت غطاءٍ رطب. من أنتِ؟ أنتِ امرأة متملقة ومتكبرة. كمراسلٍ صحفي، لا أستطيع أن أكذب على العامة».

نظرت إلي نيا باندهاش، وجهت عينيها إلى الأسطوانات الموسيقية وقد احمرّت وجنتاها.

ولكنها قالت: «أن تعطي الأشياء حجماً أكبر من حجمها بكثير، هذه مبالغة شديدة».

بكت هايلي وانتحبت كالأطفال، وقالت: «دائماً ينظر إلي بانحطاط ويعاملني كالقذارة. هو مُعتدٌ بنفسه كثيراً، إنّه الثأرُ متجسداً! إنه يحتقر النساء الصينيات ويكره نجاح أي منهن. إنه شرير ككلبٍ مسعور، وكأفعى تلتف حول قدمي».

صرختُ بوجهها قائلاً: «اللعنة على ذلك، توقفي عن تمثيل دور الضحية، هل ستسقطين مغشيةً عليكِ بعد قليل؟». وهنا، تذكرتُ إساءتها إليّ؛ أليست هي من سلمتني أوراق الطلاق بعد يومٍ من وصولي لأمريكا؟ أليست هي من أجبرتني أن أتقاسم معها في الأتعاب القانونية المترتبة على طلاقنا؛ رغم علمها بأنني لم أحصل على وظيفة بعد؟ أليست هي من خبأت مدّخراتها حتى لا تقوم المحكمة بمنحي فلساً واحداً؟ ألم تكذب في مقال شخصي كتبته بأنني نظرت إليها غاضباً عندما كنا في المخبز؛ لأنها لم توافق على شراء قطعتين من كعك اللوبياء؟ ألم تقل بأن الرجال الصينيين ماهرون كمحاسبين، وندل، وبستانيين، وماهرون في رعاية

الأطفال، وفي أعمال التدليك، أو مثيرو شغب؟ وكلما كانت تلك الذكريات تدور في رأسي أكثر، شعرتُ بالغضب أكثر. كنت سأنفجر لولا وجود نيا. لقد كانت حركة ذكية من هايلي إحضار تلك المرأة برفقتها. تنفستُ بشكلٍ متقطع. نهضتُ وأخذت مظلتي:

«فلنكن عقلانيين تجاه الموقف الذي نحن فيه»، قلتُ لزوجتي السابقة، وتابعت: «لا أستطيع أن أضيف لمعاناً لهذا الاحتيال، ولا أستطيع أيضاً أن أكذب لصالحك. أنت تدينين للعامة بتصريحٍ واعتذار. لا تماطلي؛ كلما اسمررتِ في الإنكار، واجهتِ مزيداً من الاستنكار. من الأفضل لكِ أن تُخرجي نفسكِ من الحفرة التي حفرتِها لنفسك في أقرب فرصة». استدرتُ وتوجهتُ إلى الحانة لأدفع الحساب.

صاحت هايلي: «اللعنة عليك، أنت لا تملك إلا الوسائل التي تضايق أي امرأة تمر بمحنة ما».

التفتُّ نصف التفاتة ورجعتُ إلى الخلف وصرخت «نعم، أنا رجلٌ مولعٌ بفنانة مشهورة مثلك، هذه ضريبة شهرتك».

قالت: «اتركني لوحدي أيها الأحمق! أنا أعلم جيداً بأنك عميل تايواني، عليك اللعنة».

«هيا، هيا، اصرخي أعلى وأعلى، ودمّري المكان بصراخك إنْ استطعتِ!».

بعض الأشخاص، ومعظمهم من الصين، يدّعون أني عميل تايواني، معتقدين بأنه يُدفع لي مقابل أن أكتب كتابات تدعم المصالح التايوانية، ولكن هذا الاتهام لم يكن له أي أساس من الصحة؛ لقد كتبتُ ذلك بمحض إرادتي. صحيح أن رجل أعمال في تايبيه يعمل وكيلاً رسمياً هنا، قد قام بتحرير شيك بمبلغ ثمانية آلاف دولار، وطلب مني أن أكتب مقالة دفاعاً عن سياسات الحكومة التايوانية، كل شهر، ولكنني رفضت عرضه. لقد سمعت أن بعض الكُتاب الصينيين المطرودين في شمال أمريكا، يقبلون هذا النوع من المال، ولكنني لا أفعل ذلك أبداً. فضلتُ أن أبقى مستقلاً بذاتي.

الفصل السابع

قمتُ بإعداد العمود الصحفي الثاني المتعلق بالفضيحة، واقتبستُ من السبق الصحفي الرئيس الذي أُعلِن فيه أنّ رواية الحب والموت في سبتمبر قد تُرجمت إلى ثلاثين لغة، ودحضتُ الادعاء بمحادثتي مع المترجم سلفroود، الذي أنكر أنه سمع بهذه الرواية من قبل. كتبت: «يان هايلي تسمي هذا سوء فهم، وتدّعي الآن بأنها تقوم بالترجمة بنفسها، كم من القصص ستختلق، بعد قبل أن تعترف بالحقيقة؟» وكذلك ذكرتُ فيه مسألة الترشيح لجائزة نوبل من اللجنة في ولاية نيوجرسي، وأشرت بشكل مقتضب إلى أنّ اللجنة كانت مشغولة بإعداد رسالة الترشيح للجائزة ليتم إرسالها إلى ستوكهولم، ورغم أن كتابة الرسالة لم تكن صعبة، إلا أنهم لم يجدوا بعد الشخص القادر على ترجمتها للغة الإنجليزية. وكذلك أيضاً هاجمتُ صفقة الفيلم.

«ادّعى جيو فانبغ بأن بانوراما للصور في هوليود قد

اشترت النص المنبثق عن الرواية بقيمة 1.3 مليون دولار»
كتبتُ ذلك، ولكن لم أُفصّل، تاركاً مساحةً صغيرة لهايلي حتى تنقذ سمعتها. باستطاعة كل شخص أن يُدرك أن هذا آخر الصراعات لادعاءاتهم المستمرة.

لقد أحب رئيس التحرير مقالتي، بالرغم من أنه أمعن النظر مبتسماً قائلاً:

«إنك لم تضع الكثير من الوقود على النار يا دانلن. عليك ألا تدع علاقتك الشخصية مع هذه المرأة عديمة القلب تنعكس في نتاجك. إن قوة قلمك تأتي من عدم اكتراثك للعلاقات الشخصية، لا تفقد أعصابك».

«دعنا نأمل بأن هذا سيضع نهاية للمسألة كلها».

«لا يبدو أن ذلك سيكون سهلاً».

نُشر عمودي الصحفي، وأخذ تداوله يتسم بروح الانتقام، أثار الكثير من الضجة التي تتراوح بين الشجب والاستنكار والسُخرية. شتم بعض الناس هايلي بالعاهرة الرخيصة، ووصفوا المتورطين بالمشروع بأنذال الصين ووصفوهم أيضاً بالمخلّفات البشرية. بدا الكثير من الناس تواقين للمال، وعندما يتم ذكر النقود؛ فإنهم يشتعلون بسرعة. وبالتأكيد فإن مجموعة بشعة منهم بدأت تظهر تعليقاتٍ متبادلة فظيعة، وبدا

أنّ الكثير من المعلقين نساء لديهنَ الكثير من وقت الفراغ، ويشمتنَ بانهيار سمعة امرأة أخرى (بالرغم من أن بعضهنَ كنّ قد أخفينَ أنفسهنَ بأسماء الرجال). إحداهن زعمت بأنها عرفت هايلي منذ عقدٍ من الزمن، ولكنها لا تصدق كلمة واحدة مما تقوله، وكتبت: «إنك لا تشعر بالراحة بالقرب منها، كما لو أنها قنبلةٌ موقوتة تدق بالقرب منك»، وأضافت: «الأسوأ من ذلك أنني كنت أنا وهايلي رفيقتي سكن في شنغهاي، وأنها أخبرت الآخرين بأنها وُلدت وترعرت في بكين، والحقيقة تقول بأن أمها أنجبتها على حصيرةٍ من القش في قريةٍ صغيرة في مقاطعة لايوننغ».

هذا كان بعيداً عن أي شيءٍ تستطيع تسميته بالجيد، عرفتُ حقيقةً بأن هايلي لم تعش أبداً في مكان مزدحم في شنغهاي الضبابية؛ لقد وُلدت في شانغشن، التي لم تكن مدينة سكنية، لقد كانت عاصمة مانشوكو خلال الاحتلال الياباني. مُعلّق آخر (كان بالتأكيد امرأة) صرّح بأن هايلي كانت عقيماً ولا تستطيع الإنجاب؛ لأنها خضعت لعملية استئصال الرحم منذ سنوات عديدة: «يان هايلي لم تعد امرأةً بعد ذلك، وبات عليها أن تأخذ الهرمونات كل يوم، إنها ذات رحم ميت!». هذا تشهيرٌ بحت، لأنني أعرف بأن رحم هايلي ما زال سليماً. أحدهم أيضاً ذهب بعيداً، مدّعياً بأن هايلي تزوجت

من مليونير أمريكي رجل أعمال في مجال النفط، وكان أكبر سناً من أبيها. وبعض الفضوليين الآخرين تطوعوا للتواصل مع شركة بانوراما للصور؛ ليتم التشارك بالمعلومات التي؛ يعرفونها عن هذه الشركات بشكلٍ إلكتروني.

سأل مُعلقون آخرون سؤالاً غريباً؛ وهو إذا ما كان من الحكمة والمناسب أن يتم الإفصاح عن هذه الفضيحة فقط قبل الذكرى الرابعة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر، إذا وصلت الفضيحة للإعلام باللغة الإنجليزية؛ فإن قصة هايلي المخزية واستغلالها سيجلب العار لجميع المواطنين.

ألا يمكن لذلك أن يجعل كثيرين من الجالية الصينية في عُزلة كما عاش العرب في الولايات المتحدة، والذين عانوا من الإساءة والتخويف (حيث استقبلوا الكثير من الرسائل المحشوة بالكراهية وأرجل الخنازير الدموية في صناديق بريدهم)، أليس من شأن ذلك أن يضعنا تحت دائرة رقابة الاستخبارات الأمريكية؟ هذا سيؤدي إلى الانقسام في ما بيننا، لذا، من الأفضل أن ننتظر لبرهة من الوقت حتى تنقضي الذكرى الحزينة من مجرى الإعلام، ويمكن بعدها مناقشة هذه الحالة. كتب شخص آخر: «أنا مع القول بأنه على دانلن أن يأخذ الحيطة والحذر»، وقال

آخر: «علينا أن نتجنب التشهير بأناس كثيرين، وألا نجعل هذا كهجمة مسعورة».

لقد أغاظتني تعليقاتهم وسوء فهمهم. هنالك الكثير من الأشخاص القلقين الذين سيتركون الأكل جانباً إذا خافوا من أن يغصّوا في طعامهم.

لقد تجاهلنا آراءهم، واعتبرناها خارجة عن السياق، لأننا في الحقيقة أردنا للإعلام الناطق باللغة الإنجليزية، وخاصة محطات التلفاز، أن يتولى هذه القصة، ووكالتنا لديها شخص مسؤول عن ترجمة الأخبار إلى اللغة الإنجليزية، وهو السيدة وينا، امرأةٌ صغيرة بحواجبٍ كثيفة وذقنٍ مُدبب، كتبت ملخصاً لقضية رواية هايلي ونشرتها على المواقع الإلكترونية. ولكن، للأسف، وجّه الإعلام الأمريكي القليل من الانتباه إلى تقاريرنا. كانت وينا مترجمةً دقيقة، ولكنها ببساطة لا تستطيع الكتابة كصحفية محترفة في اللغة الإنجليزية، بالرغم من أنها حصلت على شهادة الماستر في الصحافة والإعلام من جامعة إيلونوي الجنوبية، وعاشت في أمريكا لما يقارب عشرين عاماً.

أنا أعرف مدى صعوبة الكتابة في الجريدة وإتقان الإنجليزية بحرفية، حيث كلما تتعلمها أكثر، تنزلق منك أكثر. كنت أتمنى

من الداخل أن تتوقف هايلي عن كتابها الغبي، وأن يخفض جياو فانبغ من طموحاته لينشر في الصين فقط، وأن يتخلى جو بينغ عن خططه للحصول على سيارة ألمانية فارهة وشقة حديثة في بكين. بالرغم من أنني أعتقد بأن الإفصاح عن مشروع هايلي كان هو الشيء الصحيح لفعله، إلا أن آخر شيء فكرت به، هو أن يصبح كاتب صيني مثل زوجتي السابقة أُضحوكةً عالمية، نسخة مشوهة من الحلم الأمريكي، منسوجة من مجموعة من حثالة المجتمع.

بعد ثلاثة أيام، ظهرت مقالة لنيا في صحيفة منبر شمال أمريكا. ونقطة تُحسب لصالحها على عكس الكثيرين في الإعلام الصيني، فإنها كانت تكتب باسمها الحقيقي. لقد قالت بأن هايلي كانت مؤلفة مبتدئة، ولا دراية لديها بالأعمال الخاصة بمجال النشر. وبطبيعة الحال، كانت هايلي على غير دراية بمعظم التفاصيل والترتيبات التي لا يجب عليها أن تهتم بها. وبشكلٍ واضح، فقد أحب الناشر الخاص بها روايتها كثيراً، لقد كان مستمتعاً بها لدرجة أنه لم يتأخر في مشاركتها مع القراء. في الحقيقة، كان المترجمون منشغلين بترجمة الكتاب لجميع اللغات الأجنبية الرئيسة، وهايلي قد كتبت نص فيلم مقتبس من الرواية. وبالنسبة للترشيح لجائزة

نوبل، فقد كان معجبوها يفعلون ذلك تحت إشرافها؛ لقد كانت مغرورة أكثر من أي شخصٍ آخر، ومن ذا الذي بنظرها سيرفض شرفاً كهذا؟

تابعت نيا قولها: «هذه الكاتبة كانت امرأة جيدة ومتواضعة، مدفوعةً بالأدب وليس بالطموح. في كتابها الأول، كل ما فعلته هايلي؛ هو أنها جعلت قلمها يتبع قلبها ليصوغ مشاعرها الداخلية وأفكارها، وبهذا سيمنحها القرّاء الفرصة لتصبح معروفة؛ بحيث يستطيع الروائي أن يفهم فنها وأسلوبها بمبدأ التجربة والخطأ؟ بشكل مطلق، سيتم تقييم هايلي بعملها ككل، ولذلك لا أحد يستطيع اكتشاف النهايات قريباً جداً. بالإضافة إلى ذلك، هنالك الكثير من الأمور المستعجلة في العالم، مثل احتلال العراق؛ حرب ضخمة شُنّت باسم الديمقراطية، ولكن في الحقيقة هدفها الثروة والقوة.

وكان هنالك الملايين من المسلمين تمت معاملتهم كمحاربين خطيرين. القمع الذي قامت به الحكومة الصينية للمجموعات المقاومة بين الأقلية في غربي الصين، والإبادات الجماعية في أفريقيا، والإشاعات الأوروبية، مثل ايرون وورلد كوم؛ والتي أتلفت مدخرات عشرات الآلاف من الناس» عبّرت نيا مشتكية: «بالنسبة لدانلن، لقد كان غير

منطقي ولا مبالٍ، فاستخدم قلمه ببراعة كالسيف فوق رأس امرأة ضعيفة».

وتابعت: «لقد كان من الأفضل له أن يستثمر وقته وجهوده في أمورٍ أهم، كالعمل على هؤلاء الأشخاص الكبار ذوي المصالح الكبرى، وكشف نواياهم الكامنة في التضحية بدماء الآخرين وحياتهم مقابل تحقيق مصالحهم الشخصية. هذا سيجعل السيد فينغ صحفياً مسؤولاً عن تصرفاته وعادلاً في تفكيره».

لم أتوقع أن هايلي ستستخدم نيا لتدافع عنها بشكل علني وصريح. كانت تلك حركة ذكية بطريقة ما؛ بالنسبة للقارئ العادي، بدت المقالة عقلانية وموضوعية، بإعفاء هايلي من أي لوم، وتحميل المسؤولية للناشر والمحرر الخاص بها. لم أكن منزعجاً بدرجة كبيرة من اعتداد نيا بنفسها، ولكن كان هنالك مقابلة مسجلة وموثقة مع المقالة، وكانت حول المحادثة القصيرة التي خُضتها مع هايلي حينما هاجمتني في تلك الحانة. لقد صرّحت بأن فينغ دانلن، كاتب المقالات السيئ السمعة، كان زوجها السابق، وأصرّت على أن دناءته هي السبب الوحيد الذي جعله يلطّخ اسمها في الوحل. لقد فهمتُ أن طلاقنا كان مؤذياً جداً بالنسبة لي، ولكن كان يجب عليّ أن آخذ مشاعرها بعين الاعتبار أيضاً. وصرّحتْ أيضاً

بأنه خلال زواجنا، كنت أسوأ رجل تتكبد عناءه أي امرأة. ولامتني مدّعية أني كنت أمضي معظم الوقت مع أصدقائي وأهملها، وادّعت بأني شخص مُبذّر، وأننا كنا دائماً مفلسين ابتداءً في منتصف كل شهر.

وأضافت نيا؛ نقلاً عن هايلي: «كان يهتم بنفسه فقط؛ كان يحب الحفلات والحانات وألعاب الكرة. لقد كنت أشعر معه بالوحدة والاستياء وفقدان الأمل. كم كنت أتوق للهروب، لأتخلص من هذا الزواج الكارثي، وكانت حياتي معه كليلة طويلة جداً، بدت أن لا نهاية لها. وبشكل طبيعي، شيئاً فشيئاً توسعت الفجوة في ما بيننا، كاتساع الخليج، وأخيراً بدأنا بإجراءات الانفصال». وكذلك فقد كتبت نيا باختصار، أنه لا توافق بيني وبين هايلي من الناحية العاطفية الغريزية.

ذلك الهجوم الشخصي أثار غضبي، والذي تقصّدتْ به أن تثير عاطفة النساء القارئات عن طريق إهانتي وإجباري على الإذعان والصمت. هذا سلوك مناسب لرد الاتهام والضربات. فكرتُ بالكشف عن كيف بدت علاقتها الغرامية مع لاري كليمنتس، وأنها كانت تسكن معه قبل أن تنتقل إلى الولايات المتحدة، وكيف حين وصلت إلى نيويورك كذبت علي عندما قالت بأنها عثرت على وظيفةٍ لي في مطعم،

وكيف ألقت بي في فندقٍ قديم و رثّ وسط المدينة، وكيف قدمت لي ملف أوراق طلاقنا في اليوم التالي لوصولي. ولكن لم أتمكن من الإفصاح عن كل هذا في مقالة تعرض حقائق تخص روايتها. لقد فكرتُ بأن أكتب شيئاً شخصياً باعتباري زوجها السابق، نوعاً من المقالات الشخصية، ولكنني لم أعرف كيف سأفصلها عن تقريري حول تلك الفضيحة. لم تكن هنالك أية طريقة لأفعل ذلك بعيداً كل البعد عن القضية التي بين يدي. ولأكون صريحاً، كنتُ خائفاً إذا كشفتُ الكثير حول كيف كانت تعاملني بشكل سيئ، فإنّ بعض القرّاء سيعتبرونني ضعيفاً ومُضحكاً.

ربما لا يجب عليّ أن أكتب مقالاً شخصياً كهذا نهائياً. عندما تقاتل خنزيراً، يجب عليك أن تتدحرج في الوحل. لن أُهين نفسي بتلك الطريقة. ربما جملة صغيرة ومختصرة ستفي بالغرض.

كتبت: «في الواقع، اعتدتُ أن أكون اجتماعياً، وأن أمضي أربع إلى خمس ليالٍ في المطاعم وبيوت الشاي وحانات الكاريوكي. ولكن كان هذا عندما رجعت إلى الصين، حيث لم يكن لديّ شبكة من الأصدقاء، لا يمكنك العيش هكذا. أعترفُ بأنني بالرغم من أنني كنت زوج يان هايلي في تلك

الأيام، فقد كان قلبي فتيِاً، غير مهذب في بعض الأحيان، ولديّ بعض النواقص. ولكن بالمقارنة مع بقية الرجال من حولي، لم أكن سيئاً بدرجة كبيرة. لم أخن زوجتي أبداً، ولم أخلف وعداً أبداً، ولم أقامر، ولم أكن كحولياً، لم أكن مدخناً أو مُبذّراً، وكنت أرغب دائماً في التغيير لأصبح رجلاً أفضل. وكنت أسمح ليان هايلي أن تمسك بزمام الأمور، بالإضافة للأمور المالية، كانت تعطي كل ما نحصل عليه من مال لوالديها. جميعكم يعلم بأنه قد تمضي سنوات عديدة لينمو الفتى ويصبح رجلاً، لذلك، فإنه من غير المنطقي أن نفترض بأن العريس يعلم الكثير عن جوانب الحياة، وأنه يجب أن يمتلك من الخبرة مقداراً أكثر مما تملكه عروسه عندما يتزوجان. الرجال أيضاً بشر ويحتاجون وقتاً لينضجوا. لقد كان صحيحاً بأنني لم أكن زوجاً متفهماً ليان هايلي في البداية، وأنني كنت أتفادى دور رب الأسرة ودعامة البيت. ولكن تدريجياً، نضجتُ وأصبحتُ رجلاً مختلفاً، والآن أصبحت أستمتع في البقاء وحيداً. لم أعد أعيش وأنفق بما يتجاوز ما أملك من مال، لأنني تعلمت كيف أنه من الصعب الحصول على دولار واحد. يستطيع أي شخص إخباركم بأنني لست من الأشخاص الذين يركضون خلف المال، ولستُ بخيلاً أيضاً. أعترف بأني أحمل وجهة نظر انتقادية،

ولكن لم يكن ذلك يضايقني أبداً، لأنني لا أستطيع أن أحتمل شخصاً لا يملك أي وجهة نظر، أو أية آراء أو أفكار.

دون أي مبالغة في وجهات النظر، كيف أختلف عن الرجل الآلي؟ لأكون صادقاً، أطمح لأكون رجلاً ذا شخصية مؤثّرة، وذات آراء قوية؛ بطريقةٍ أخرى، نموذجاً متغيراً بدلاً من نموذج ثابت. ولا أمانع أن أكون منبوذاً اجتماعياً تبعاً لذلك.

عرضتُ ما كتبته على زميلي لوشينغ، والذي كان يعمل في وكالة الأنباء العالمية، حيث كان يصادق على منشوراتي الصحفية. هزّ رأسه قائلاً: «هذا مبالغٌ فيه. أيها الفتى، من المؤكد أنك فقدتَ أعصابك في هجومك على هايلي. هذا المقال ينقصه التركيز، ويتجول متشتتاً هنا وهناك. أضف إلى ذلك، لا يجب عليك أن تقترب من مجريات حياتك الشخصية لهذا الحد».

«كيف لي بطريقة أخرى أن أنقض هذا الهجوم الشخصي؟»، سألت لوشينغ، كان رجلاً نحيلاً بعينين تفصل بينهما مسافة صغيرة، وذا شعرٍ كثيف ورمادي عند الصدغين. لديه بعض الأسهم في وكالة الأنباء العالمية، يبلغ حجمها تقريباً ستة في المئة من مجموع أسهم الشركة. فكرتُ باستحضار العقيدة الخاصة بنمط كتابتي، وهي «الصدق

والقوة»، ولكنني فكرتُ بأفضل من ذلك، (علمتني خبرتي بأنك إذا تلاعبت بالكلمات، أو حاولت الدوران حول أي موضوع، أو انتزعت الحقيقة في منتصف الطريق، فإنك إذن ستخنق صوتك؛ وهذا لن يساعدك، بل سيجعلك تبدو ضعيفاً ومتردداً. اللغة الغامضة تعكس ضعف العقل وخوف الروح، لذلك يجب الابتعاد عن أيّ مراوغة».

وضّح لوشينغ: «هذا شخصي بدرجة كبيرة. أنت تحرج نفسك بالكشف عن تفاصيل حياتك بهذه الطريقة. إذا نشرنا هذه المقالة كما هي، ستدمر تقريرك عن الفضيحة وستجعلها نقطة لصالحهم».

«إذن يجب عليّ أن أترك هذه الإساءة؟».

«يجب أن تكتشف أولاً من يعمل وراء يان هايلي، من المؤكد أن لديها داعمين أقوياء؛ خلاف ذلك، كانت سقطت منذ مدة طويلة». وضع لوشينغ قلمه الحاد بين إبهامه وسبابته.

قلت له: «قد يستغرق ذلك عصوراً لأكتشفه. في هذه الأثناء، هايلي ستستمر بتلطيخي بالوحل أمام الناس».

«بالرغم من ذلك، سيبقيك الجزء الخاص بحياتك الشخصية في موقف دفاعي. لا يجب عليك أبداً أن تظهر معتذراً في موقفٍ كهذا. أنت تبارز امرأة كاذبة وقحة».

فكرت في ما قاله لوشينغ، وأدركتُ أن عمودي الصحفي الذي كنت أود نشره قد يبدو ضعيفاً. في الحقيقة، إنه يكشف عن حياتي الشخصية أكثر مما يكشف هايلي. وأدركتُ أيضاً، أنه يجب عليّ التحدث إلى كيتي قبل أن أذكرها في عمودي الصحفي، لذلك أخبرت لوشينغ بأني أقدر رأيه، وسآتي بموضوعٍ آخر.

الفصل الثامن

ناقشتُ الموضوع لاحقاً مع كيتي عندما ذهبت لأراها نهاية ذلك الأسبوع. قالت: «لا أمانع إذا ذكرت اسمي. سأخبرهم بأنك غريب الأطوار»، وضحكت ضحكةً قصيرة حتى صغرت عيناها الخضراوان.

«ولكن لا تجعليني أعتاد كوني غريب الأطوار. اتفقنا؟» أجبتها وكنت متوتراً بعض الشيء.

أجابت: «طبعاً لن أفعل ذلك».

«أنا لستُ مرتاحاً بأن أجعل هذا الموضوع شخصياً جداً. بإمكاننا أن نُدرج الموضوع تحت أي جانب آخر من جوانب حياتنا»، قلت ذلك كتذكيرٍ لنفسي حتى أكون أكثر حرفية، وحتى لا أكتب كأي كاتب مقالات عندما كنتُ أمارس مهنة الصحافة.

قالت كيتي: «أنت محق في ما تقول».

بعد أن تناولنا العشاء، ذهبت كيتي إلى غرفتها كي ترتب أوراقها، بينما كنت أرتدي بدلتي المصنوعة من الدنيم القطني الأزرق، وعاودت العمل على بناء خزانة الكتب التي كنت أصنعها لها، إنها مصنوعة من الخشب الرقائقي وخشب الحور، بارتفاع أربع أقدام على طول الحائط في غرفتها المخصصة للدراسة. لقد جمعت القطع اللازمة من قبل، والآن أحتاج فقط أن أصقلها بورق الزجاج. بعد ذلك، سأثبت في السقف القالب المصنوع بشكل تاج، وسأطلي كل شيء باللون الأبيض؛ حتى يتناسب لونه مع لون الجدار. بينما بدأت بتنعيم الخشب بورق الزجاج، بدأت الموسيقى تخفق صادرة من غرفة كيتي. لقد كانت تستمع لموسيقى فرقة بانك.

كان والد كيتي مهندساً في القوة الجوية. لقد ترعرعت في جورجيا وجنوب كارولينا عدا ثلاث سنوات في أوكيناوا في بداية عام 1980. كنت عادةً أمازحها وأقول لها إنه كان من الواجب عليها أن تعير اهتماماتها للوطن أو الإنجيل بدلاً من موسيقى بانك. لم أكن أستمتع بهذا النوع من الموسيقى. كنت أحب الموسيقى الكلاسيكية: باخ، تشايكوفيسكي، مندلسون، وخاصةً سيمفونيات أبراهام، والتي كانت كلماتها ممزوجة بشيءٍ من العطف والرثاء، تستحوذ على قلبي في كل مرة أستمع إليها. في كل مرة أمازح كيتي بها حول الموسيقى التي

تفضلها، كانت هي الأخرى تمازحني مقابل ذلك، وتدعوني «بالأرستقراطي المزيف».

في الحقيقة، كنت أيضاً أحب سماع بعض الأغاني الأمريكية الشعبية، مثل «فرقة جبل الحلوى لموسيقى الروك»، وفرقة «بريتي بوي فلويد»... لم تكن ألحانهم تعجبني كثيراً، ولكن كنت أحب كلمات أغانيهم، والتي تعبّر عن عواطف وأحزان المحرومين.

في أول جولة من صقل القطع بورق الزجاج، استخدمتُ ستين قطعة من ورق الزجاج، بعد ذلك، استخدمت مئة وخمسين قطعة. لم أكن خبيراً في مجال النجارة، ولكن باستطاعتي صناعة بعض الأنواع الأساسية لقطع الأثاث، وأستطيع استعمال جميع الأدوات اليدوية (بالرغم من أنني ما زلت لا أعرف الكثير عن استخدام الأدوات الكهربائية الأمريكية).

تعلمت هذه المهارة من والدي، الذي كان محترفاً في مجال النجارة، وفخوراً بنمط معيشته التي حتى في سنوات المجاعة، وعبر جميع العواصف السياسية التي حدثت، كانت «أفضل من مهنة الطبيب»، كما كان يفاخر دائماً. المهنة التي كان دوماً يفخر بها، كانت تضمنه من الناحية المادية؛ حيث كانت تؤمّن له ما يكفيه ليأكل ويشرب. كل أنواع الزبائن: الأزواج في مقتبل العمر، المسؤولون الجدد المندفعون،

والأشخاص الذين تملكوا بيوتهم الخاصة أخيراً، يأتون بهدايا ويطلبون من والدي أن يصنع أثاث منازلهم؛ لم يصرف بنساً واحداً على الخمر الذي كان يشربه على العشاء كل ليلة. على الرغم من ذلك، لم أكن مهووساً بمهنة والدي، ولم أهتم لوسائل الراحة التي كان يصنعها ليستمتع بها.

كانت والدتي تحثني سراً أن أقرأ المزيد من الكتب، وأن أدرس جيداً؛ حتى أتمكن من دخول الجامعة، ولكن والدي جعلني أتعلم مهنة النجارة قائلاً: «بهذه الحرفة الفردية؛ ستكون قادراً على أن تعيش أينما كان». كنت أعلم أنه كان يقصد أن يزودني بمصدر للمال أعيش منه، ولكن قلبي كان في مكانٍ آخر. لقد أغواني بالسماح لي بالاحتفاظ بجميع الأرباح من مبيع قطع الأثاث الصغيرة التي أصنعها؛ مثل: الكراسي والطاولات الجانبية والخزائن الصغيرة، والطاولات الصغيرة التي تحمل المصابيح الليلية. بالنسبة لمراهق، كانت هذه الأرباح تعني الحصول على الكثير من المال. أنفقت معظمها على كتب القصص المصورة (القصص الكلاسيكية المبسطة، والروايات الثورية للأطفال)، وبعض أشرطة الموسيقى وأشرطة الفيديو، وأيضاً على بعض الوجبات المشتركة مع أصدقائي: سكّر نبات، الفستق الهش، البازلاء الحارّة، التمر المغطى بالحلوى، والكاكي المجفف. لقد كنت معروفاً في حيّنا بالفتى الكريم أو حتى المُبذِّر.

منذ أسبوع فقط، راسلني والدَاي يَحُثانني مجدداً أن أنجب أطفالاً من هايلي. لقد كتبا لي في رسالة: «أصبحتْ في الرابعة والثلاثين من العمر، إلى متى ستبقى منتظراً؟ إن النساء اللواتي فوق السادسة والثلاثين من العمر، ينجبن أطفالاً من ذوي الحاجات الخاصة. لا ينبغي أن تماطلا أكثر من ذلك. نرجو منك أن تخبر هايلي بأن تتوقف عن إضاعة المزيد من الجينات الرائعة التي لدى كلٍ منكما! أيضاً، يجب عليها أن تأكل الكثير من نبات البحر من الآن وصاعداً؛ حتى تحصل على الحديد الكافي ليساعدها في فترة الحمل».

لم أخبرهما بعد بأننا تطلقنا، معرفتهما بذلك ستدمرهما. إنهما معجبان بزوجتي السابقة كثيراً، ودائماً يقولان بأنها كفءٌ أكثر مني، وأنه يجب عليّ علي أن أكون ممتناً لأنني تزوجتها.

لقد كانت تبدو من وجهة نظرهما الكنَّةَ المثالية. اتفقنا أنا وأختي على أن نحتفظ بالحقيقة بعيداً عن والدينا اللذين كانا يهرمان ويتعبان بمرور الأيام. إنهما لا يستطيعان حتى أن يتخيلا أن زوجة ابنهما قد تحولت لشخص آخر؛ لا يزالان يحلمان باحتضان حفيدهما، ويرغبان في امتداد سلالتهما من خلال زواجي الزائل من هايلي.

في صباح اليوم التالي ذهبتُ إلى العمل، وكتبت عمودي الصحفي الثالث حول قضية رواية هايلي.

أولاً، أجبت بطريقة غير مباشرة على مقالة نيا، قلتُ بأنني كنت مدركاً بشكلٍ كامل ما يتعلق بحرب العراق، حيث كان الهدف منها تأمين تزويد النفط للولايات المتحدة، لذلك كنت متعارضاً مع هذا الصراع منذ البداية. لا توجد دولة تملك موارد غير محدودة، وهذه الحرب ستؤدي للكثير من الديون، وستجبر الدولتين على دفع المزيد من الضرائب.

لشراء قطعة واحدة من ساندويش اللحم المشوي في الولايات المتحدة، فإن ذلك يكلف نحو خمسة وثلاثين دولاراً. انتشر الجيش الأمريكي في العراق. حاولوا تخيل النفقات المترتبة على ذلك.

بالعودة لحياتي الشخصية، يجب أن أحتفظ بهذا الموضوع بعيداً عن هذه المناقشة، وكل ما رغبتُ قوله بأنني الآن لديّ صديقة اسمها كيتي تورني، وأني أحيا معها حياةً رائعة. وتابعتُ مناقشة الرواية؛ قلتُ إنني أدافع عن كل كلمة كتبتها، وإنني أملك دليلاً غير قابل للدحض حتى أسحب كلماتي. ختمتُ قولي بتحدي هايلي: «إذا لم تكذبي على العامة، أظهري لنا الصفحات الأولى من عقود الفيلم وعقود الكتاب الموقعة مع الناشرين الأجانب، هذا سيوقف التنظير الذي يحدث، وسيذهب بنا إلى أماكن بيع الكتب حتى نشتري روايتك،

وسأكون مسروراً بشرب نخب نجاحك الساحق». لم أذكر نيا، وتقصّدتُ استثناءها؛ لأنها كانت في نظري امرأة غريبة الأطوار. لا يسعني إلا أن أتساءل عما إذا كانت قد تعرضت للخيانة أو الإساءة من رجال في ماضيها. من المحتمل أنها كارهة للرجال، ومن الأفضل أن أبتعد عنها.

في فترة الظهيرة، كنا نتناول الغداء أنا وكاي مينغ ولوشينغ بمطعم قريب من مكان عملنا، كان اسمه بيت الشيف تشوي، وكان يملكه زوجان كوريان في منتصف العمر، ويقدم بشكل أساسي الطعام الصيني. بإمكانك الحصول على وجبة مشبعة مقابل خمسة إلى ستة دولارات: عبارة عن أرز مقلي، أو كما يسمى لومين، بالإضافة إلى كوب من الحساء وقطعة كاملة من لفائف البيض أو أجنحة الدجاج أو سلطعون الرانجون. أتساءل أحياناً كيف لهم أن يجنوا الأموال عن طريق بيع الطعام مقابل هذا الثمن الزهيد. تحدثتُ في إحدى المرات مع هذين الزوجين من مدينة جوانجزو. إنهما يبدآن يومهما قبل الساعة التاسعة صباحاً، ويغلقان المطعم بعد الساعة الحادية عشرة ليلاً، ويعملان سبعة أيام في الأسبوع، ويأخذان إجازة أيام الكريسماس فقط.

أخبرتني المرأة النشيطة: «لدينا طفلان وُلدا هنا، وابننا

الأصغر يعمل في القوات البحرية الأمريكية. سواء أحببت ذلك أم لا، فهنا موطننا». إنها تضع ضمادات لاصقة على أصابعها، وزوجها يرتدي مشبكاً خلفياً عندما يبدأ الطبخ. الألم الذي كان يعاني منه في ظهره؛ جعل أكتافه محنية. بعد تلك المحادثة، لم أكن قادراً على التوقف عن التفكير كيف يتباهى كثيرون بأنهم اغتنوا من مجال العمل في المطاعم، بينما قلة قليلة تعبّر عن مدى الأحزان والأفراح التي يعيشونها في عملهم هذا؛ مقابل الربح الزهيد الذي يحصلون عليه.

لقد عمل لوشينغ ضابطاً صغيراً في مجال نشر الدعايات في جيش التحرير، وبعد أن تم تسريحه من الجيش، عمل محرراً في مجلة صغيرة للاقتصاد العالمي في مدينة جانجزو. جاء إلى الولايات المتحدة قبل إحدى عشرة سنة، وبالرغم من أنه كان مخلصاً في عمله، لم يكن يفقه في اللغة الإنجليزية كثيراً، وبقي محرراً للأخبار التي يتم تجميعها في وكالة الأنباء العالمية.

عندما كان كاي مينغ يسافر خارج المدينة كان لوشنغ يدير الشركة بدلاً منه. بطريقة أو بأخرى، لقد كان رئيسنا الثاني في العمل، ولكن «تحت إشراف كاي مينغ» تبعاً لما يقول. أحببت لوشنغ، ولكن شعرتُ بأنه كان حذراً جداً ومنطوياً على نفسه

كثيراً. لقد كانت عقليته تنتمي لجيل والديّ؛ بالرغم من أنه أكبر مني بثماني سنوات فقط. لقد قرأ عمودي الصحفي الثالث حول الفضيحة، ولم يُعجب به، ولكن بكل الأحوال سمح بنشره. أخبرني وهو يأكل سندويشة بيض: «عليك ألا تذكر شيئاً بشأن حياتك الزوجية الخاصة». وافقه كاي مينغ قائلاً: «لأكون صادقاً معك، من الممكن أن تضع كيتي في ورطة».

إنني أعلم بأنني كنتُ مغتراً حين ذكرتُ اسم صديقتي لأظهر أنها أمريكية. ولكن كنت أعتقد بأن هذا قد يوقف هايلي عن نشر افتراءاتها التي فشلتُ في إيقافها؛ عندما تطرقت لذكر العلاقات مع النساء. والآن جعلتني كلماتي المُحكمة شخصاً غير سهل. قلت لهم: «لقد كنتُ غاضباً جداً، وربما كان يجب أن أكون متحفظاً أكثر. ولكن يا كاي مينغ، ما نوع الورطة التي قد تقع بها كيتي؟».

هزّ رئيسي في العمل رأسه وقال: «من الصعب قول ذلك» وتابع: «قبل يومين تحدثتُ مع شخص من القنصلية حول التأشيرة التي قدمت كيتي طلبها، وعمودك الصحفي هذا سيورطها بك. هذا لن يخدمها».

في الواقع، لديّ علاقات غير قليلة مع المسؤولين، ولكن المجتمع الصيني في نيويورك كان مترابطاً جداً، من المؤكد

أنهم علموا عني وعن كيتي. الرجال مثل كاي مينغ ولوشنغ لديهم الحاسة السادسة بشأن الأمور السياسية، تطورتْ ونمتْ خلال الانتفاضات الثورية والتحولات السياسية بأرضنا وموطننا، بالرغم من ذلك؛ لم يكن بمقدورهم دائماً أن يفصحوا عن أفكارهم وشكوكهم. لقد ندمت لأني ذكرت اسم كيتي في عمودي الصحفي، قلت لهم: «كان يجب عليّ أن أكون حذراً أكثر».

«لا فائدة من القلق حول ذلك الموضوع بعد الآن»، أخبرني ذلك كاي منيغ وهو يمضغ قطعة من أجنحة الدجاج الحارة. وتابع: «لدي أخبارٌ جيدة لك، لقد سمعتُ للتو من شنغهاي، أن صحيفة دليل القراء الأسبوعية ستعيد طباعة أحد أعمدتك الصحفية غداً».

سألته متفاجئاً: «أي واحد منها؟».

أجاب: «أول عمود، الذي كان عن محاولة زوجتك السابقة التماهي في دور صاحبة منتج من الصنف الأكثر مبيعاً..».

«أيها الرجال، هذا سيجعل الفضيحة منتشرة في جميع أنحاء الصين»، قال لوشنغ ذلك وتجشأ.

في الحقيقة، هذه الصحيفة الأسبوعية تُوزّع في جميع أنحاء

الصين، وهي مرتبطة بجريدة الحزب اليومية؛ جوانجمنغ. تابع كاي مينغ: «هذا سيفيدنا أيضاً؛ كلها تضيف إلينا نقطة جيدة كمصدر لنا. تهانينا يا دانلن». كنتُ ملتبساً بعض الشيء؛ الصحف الرسمية والمجلات في الصين نادراً ما كانت تعيد طباعة أي شيء صادر عن وكالة الأنباء العالمية. إنهم يجتنبون أعمالي خاصةً؛ لأنني كنت معروفاً بإثارتي للمشاكل، وأنني لا أتردد في إحراج المشاهير والبيروقراطيين. من المؤكد أنه يوجد بعض الأشخاص في الوسط الإعلامي في الصين ممن لم تعجبهم الجلبة التي حدثت حول كتاب هايلي، كما الأمر هنا، وأرادوا أن يهدئوا من تلك الجلبة. ولكن كان مبكراً جداً بالنسبة لنا أن نحتفل بذلك. بالرغم من هواجسي، فقد كنت آمل أن تعمل إعادة طباعة عمودي الصحفي في تلك الصحيفة الأسبوعية على وضع نهاية لتلك الفضيحة.

بعد أن أنهينا غداءنا، توجهتُ إلى موقع أعمال بناء في شارع كرفتس لألقي نظرة على الشقق التي يتم بناؤها، بينما كان كاي مينغ ولوشنغ يدخنان سجائر المالربورو ويتنزهان عائدين مشياً إلى مكتبنا. لقد فضّلا أن يلعبا جولة شطرنج قبل أن تنتهي فترة راحة الظهيرة.

كان رئيسي في العمل يعرج من قدمه اليمنى حين يمشي

بضع خطوات، وكان لوشينغ يتمايل في مشيته قليلاً؛ حيث كانت رجلاه قصيرتين. كلاهما كان يرتدي حذاءً دون كعب، كان لون حذاء كاي مينغ بنياً غامقاً، ولون حذاء لوشينغ أبيض قاتماً مائلاً للبيج. أظهرت مشيتهما المريحة أنهما كانا سعيدين وفي رفاهية وراحة في عملهما. راقبتهما للحظة قصيرة. تأثرت على نحو غريب بمشهد هذين الرجلين الضاحكين؛ جعلاني أرى أنه من الممكن أن تكون السعادة بسيطة وذات شفافية عالية. لقد دفئ قلبي حين أدركت ذلك، وصدقوني أو لا تصدقوني، جعلني ذلك أقارب على البكاء؛ فأنا من الداخل حسّاس، وشيء من الشاعرية يتملك شخصيتي.

منذ قدومي إلى أمريكا، كنت معجباً بطريقة بناء المنازل هنا، كلما سنحت لي الفرصة؛ كنت أذهب لأرى المنازل والأبنية قيد الإنشاء، أراقب المداخل، السراديب، والتسويات الخالية، الإطارات المكشوفة، وبلاط السيراميك المنقط، والسجاد المغبر، وحشوات الجدران، وتركيبات رفوف المطابخ، وحاملات مواقد النار مع جذوع شجر خشنة لإشعال الغاز، وأنابيب الحمامات التي لم يتم تركيبها بعد، والبلاط المصنوع من الحجر الجيري الخاص بأرضيات الحمامات. بهذا المشهد في شارع كرفتس، تظهر أبنية مكونة من ثلاثة طوابق، تبعد مائتي قدم عن الشارع،

مقابلةً للخليج البحري الساطع. آخر البنايات الأربع كانت عبارة عن هيكل من الأعمدة والحزم والمسامير والدعامات والعوارض الخشبية وألواح الخشب الرقائقي والدرج الملتف على مختلف المداخل. لقد تم رفع الأسقف، أستطيع أن أرى الدعامات المربعة من الأسفل. لقد زرت الكثير من الأبنية القديمة التي تمت إعادة هيكلتها وتشكيلها، ورأيت عوارض خشبية صلبة، وحتى الحديدية منها التي تدعم الطوابق. ومن حينٍ إلى آخر، فإن جدار الطوب يتغنى بسقوفٍ حجرية ملساء. والآن، فإن هذه الدعامات المربعة الملاصقة للأسلاك والأنابيب البلاستيكية المكشوفة في الأماكن، تعطي شعوراً من القِدَم والرجعية، كما لو أن هذه الشقق البيتية لم تُبنَ تبعاً للحداثة. لقد سألتُ مرةً السيد راندي، مشرف فريق الإنشاء، عن سبب عدم استخدام الدعامات الخشبية الصلبة، فأجاب: «في الحقيقة، إن الدعامات المربعة أخف وزناً وأعلى صلابةً».

يبدو أن هذا صحيح. وبشكلٍ عام، فهي تعطي انطباعاً بعدم السخاء في عملية البناء، وهو الجانب المادي الرخيص الذي أحبطني في الحقيقة، كعملة ذهبت قيمتها. لقد سألتُ راندي أيضاً حول كم دفع أجرة النجارين، وأجاب بأنه يدفع لهم عشرين دولاراً لكل ساعة عمل.

قال أيضاً: «ليس من السهل العثور على نجارين وبنّائين جيدين هذه الأيام، حتى عاملو الطوب أصحاب الخبرة من الصعب أيضاً إيجادهم».

قلت له: «عشرون دولاراً أجرة جيدة، أنا نجارٌ محترف. أتعلم ذلك؟ لقد صنعتُ سريري بنفسي». فكرتُ لبرهةٍ وقلت له: «ألا توظفني إذا كان هنالك شاغر لديك؟». أردتُ أن أعرف إذا كانت أعمال النجارة مصدراً للمال؛ كما أكد لي والدي.

حدّق بي راندي، كما لو أنه غير مصدّق، وقال: «ولِمَ لا يا صديقي، إنْ كان بإمكانك عمل ذلك؟».

لم يكن المشرف موجوداً في موقع البناء، وبعض العمال كانوا يشربون القهوة ويدخنون السجائر، جالسين على مقعد من الطوب المصبوب في ظل شاحنة قمامة.

لقد عرفوني، ولذلك لم يوقفني منهم أحد. لقد ذكّرني المنظر الداخلي للبناء؛ بوالدي الذي جهّز العديد من المنازل، ولكن كان بيتنا رثاً قديماً، وحتى طاولة الطعام كانت مهتزة ومتأرجحة. لقد أزعجتني تلك الذكرى. أدركت أن والدي كان يهتم بسمعته كمعلم في هذه الحرفة، أكثر من اهتمامه براحة عائلته، ويبدو أنّ في هذه النقطة بالذات يكمن سبب حلمي المستمر بامتلاك بيت صغير ومريح.

الفصل التاسع

كان عمودي الصحفي الثالث حول تلك القضية، ورغم كونه قصيراً، إلا أنّه أثار حوله الكثير من الصراخ؛ حيث ردد كثير من المعلقين، التحدي الذي عرضته على هايلي بأن تنشر عقودها مع شركة تصوير الفيلم ومع الناشرين الأجانب. أحدهم صرّح بأنه يجب تنبيه مصلحة الضرائب بأن يتأكدوا أن هايلي لم تتهرب من دفع الضرائب المترتبة على محصولها المالي الجديد؛ وبخلاف ذلك، فإنها قد تستخدم هذه الأموال في أعمال قذرة. من المؤكد أن الناس يحسدونها لثروتها الضخمة المزعومة؛ فأنْ يقع في حضنها 1.3 مليون دولار، فهذا أبعدُ مدىً من كل تصوراتهم الجامحة عن الحلم الأمريكي، وذلك على الرغم من وجود أشخاص في الصين فازوا باليانصيب بمبالغ أكبر من ذلك المبلغ بكثير، وآخرين صنعوا الكثير من الأموال عن طريق صفقات غير مشروعة وغير قانونية. كان هناك أيضاً موجة من المسؤولين الفاسدين الذين كانت لديهم طرق شتى للإثراء؛ مثل الابتزاز المادي، الرشى، العمولات، حصص مجانية في

الأسهم، أو عبر قروض دون فوائد. في الشهر الماضي، ذُكر أن ابن جنرال متقاعد ذي نفوذ، قال إنه لن يقبل أي خطة مشروع تكلفته أقل من خمسة ملايين دولار، وإنه اشترى مؤخراً ثمانين شقة في مدينة نيويورك بغرض الاستثمار. ومن أجل أن يحموا هذه الثروات غير الشرعية، حافظ القادة الشيوعيين على مناصبهم في الولاية، محاولين قمع كل شخص يهدد مناصبهم وسلطاتهم وشرعيتهم. بالرغم من الطلب الشعبي المتزايد، لم يجرؤ الحزب الشيوعي على إعطاء الأوامر للكوادر الإدارية بأن يُصرّحوا عن أصولهم الشخصية للعلن؛ خوفاً من غيظ الناس وغضبهم. في الوقت نفسه، قام الحزب، باسم الدولة، بجمع مبالغ ضخمة من الأموال لليوم الذي سيضطر فيه لشراء الدعم الدولي للبقاء في مواقعه.

اعتقدت أن هايلي من الممكن أن تنسحب وتصمت لفترة، على الأقل تغلق موقعها الإلكتروني، حيث لا تزال طرق الاتصال بها موجودة على الموقع الإلكتروني. لقد بدا الأمر وكأنها لم تكترث أبداً للفضيحة التي كانت واضحة على الإنترنت. لقد استمرت بتحديث موقعها الإلكتروني، تشارك الآراء الإيجابية بشكل منتظم حول كتابها الذي ظهر منذ فترة قصيرة جداً في مركز الصين. لقد رفعت من شأنها ومن موقفها، ووعدت نيا بمقابلة أخرى في صحيفة صينية أخرى

في نيويورك. أكدت من خلالها أنها قد باعت نصّ الفيلم، وأن العقد تمت صياغته، وأنه حالما تستلمه، سوف تنشر الصفحة الأولى منه للعلن. وبالنسبة للعقود الأجنبية الخاصة بالكتاب، فإن على أي أحد أن يتواصل مع الناشر الخاص بها في بكين؛ والذي باستطاعته تزويده بالمعلومات. لقد كانت هنالك بعض تفاصيل ضمن الصفقات، هايلي غير مطلعة عليها، أو ليست مخوَّلة بالكشف عنها.

سألتها نيا: «من المعروف أن منتقدك الأشهر هو، فينغ دانلن، زوجك السابق. هل لديك أي شيء تقولينه رداً على انتقاداته؟».

أجابت هايلي: «ليس لدي أي شيء أقوله لهذا المهرج. كل ما أستطيع قوله إنني سأراه في المحكمة».

لقد أثارت جملتها الأخيرة اضطرابي، هل كانت فعلاً تنوي أن تحط من نفسها وتستخدم القانون كوسيلة لتؤذيني؟

في إحدى المرات، رُفعت ضد إحدى زميلاتي دعوى تشهير، ولأن شركات الإعلام الصينية لم تقم بحماية نفسها ضد هذا النوع من الدعاوى، فقد كانت زميلتي مجبرة على التعامل مع هذه القضية وحدها. واستمرت القضية لمدة سنة. ربحتْ القضية في النهاية، ولكن ذلك كلفها حوالي سبعين ألف دولار، وهذا يعادل ثلث المبلغ الذي استرجعته من

المشتكي. أخبرتني بأن أتعاب المحامي كانت ضخمة، تقريباً أربعمئة دولار في الساعة. لقد صدمني ذلك، عندما تذكرتُ أنني عملتُ عملاً إضافياً كحارس ليلي مقابل خمسة دولارات وربع في الساعة الواحدة. قالت زميلتي أيضاً، على الرغم من أن أمريكا أرض يتم حكمها بالقانون، فالقضايا والدعاوى هي لعبة الرجل الثري، والذي بإمكانه أن يوظّف أقوى المحامين، هو الذي يربح معظم الأوقات.

كنت خائفاً من أن يقوم لاري بتمويل هايلي لكي تسحبني إلى المحكمة. إذا حدث هذا؛ سأواجه مشكلات هائلة. كما كان الوضع في الشركة التي تعمل بها زميلتي، فإن وكالة الأنباء العالمية لا تملك أي حماية أو تأمين ضد دعاوى التشهير. كان كاي مينغ يعتقد بأن الوكالة بإمكانها التعامل مع أي دعوى قضائية عن طريق توكيل أفضل المحامين المناسبين لتلك القضايا.

بالمعدل العام، يتم رفع دعوى واحدة في السنة ضد وكالة الأنباء العالمية، ولكن لم تربح أي قضية منها. كنتيجة لذلك، انتشرت سمعة كاي مينغ كشخص لا يتم العبث معه قانونياً؛ لقد كان دائماً يخبرني ألّا أقلق طالما أقول الحقيقة. والآن أصبحتُ غير متأكد إذا كان كاي مينغ سيساعدني إذا حاولت

هايلي إحضاري للمحكمة. من المحتمل أنْ تُضمن وكالة الأنباء العالمية في الدعوى أيضاً. كان جزء صغير داخلي يلومني على إقحامها في الأمر منذ البداية. كان والدي يوبخني أحياناً قائلاً: «بعض الشكوك الذاتية قد تخدمك في بعض الأحيان»، تمنيتُ لو كنت مهتماً بحكمته.

أربعة أيام من الذعر مضت وأنا أعيش قلقاً كبيراً، لم أكن قادراً أن أوقف تفكيري الطويل بما يمكن أن يؤدي إليه تهديد هايلي برفع الدعوى. هل كان لاري أيضاً متورطاً بتلك الفضيحة منذ البداية؟ هل كان ينوي أن يصنع ثروته من خلال مبيعات كتاب زوجته؟ أو هل كان خلف تلك الأمور كلها؟ هل كان منزعجاً من كشفي لتلك الفضيحة؟

فكرتُ بالاتصال بلاري مباشرةً؛ لأعرف رأيه حول هذا الموضوع. هل سيكون هذا تصرُفاً طائشاً؟ سألتُ نفسي. ولكن ما الذي سأخسره؟ إذا لم تقتحم عرين الأسد، كيف سيمكنك اصطياد الأشبال؟ لذلك، هاتفتُ لاري في العمل، والشيء الذي ارتحت له، أنه وافق على أن نلتقي في مقهى ستارباكس بالقرب من مبنى عمله. لم أعد أكرهه لإفساده زواجي، لأنه؛ وبطريقةٍ ما، بات في الوضع الأسوأ؛ فهو من بقي عالقاً مع هايلي. من المؤكد أنها كانت تظهر في البداية مُحبة ومُتفهمة،

ولكن الآن بعد حصولها على البطاقة الخضراء، وبعد أن نضجت أكثر، لم تعد بحاجة لإرضائه. لقد استحق ما حصل له، بأن تكون زوجته تلك الشريرة التي تتحكم به.

في المقهى، دعاني لاري لأطلب بعض الفطائر، وقال: «كن ضيفي واطلب شيئاً»، وفتح محفظته المصنوعة من الجلد؛ والتي بدت قديمة من كثرة الاستخدام. اخترت قطعتين من بسكويت الماكاداميا، قطعة له والأخرى لي. دفع ثمن القطعتين وثمن قهوته وثمن اللاتيه خاصتي. كان صوت موسيقى الجاز عالياً، وكان صوت امرأة أجش ينطلق مسرعاً، وكأنها تعاني من انقباضات في أمعائها، لذلك ذهبنا نجلس في زاوية أهدأ قليلاً. بدا لاري متوتراً، ولكنه حافظ على ابتسامته، كانت التجاعيد تبدو على وجهه أكثر من المرة التي قابلته فيها قبل شهر. غمز بعينيه الباهتتين. أخبرته بأنني نشرتُ بعض الأخبار في عمودي الصحفي حوله وحول هايلي.

بدا مندهشاً، وتنفس بصعوبة: «عن ماذا تتحدث؟» سأل وتوقف عن الحديث ساكباً السكر الصناعي من المغلف في القهوة.

سحبتُ بعض الأوراق من نص كتابها من حقيبتي، وقلت له: «حول رواية كتبتها هايلي».

حرّك قهوته بعود خشبيٍ وقال: «أنا أعلم بأنها كانت تكتب كتاباً، ولكنها لم تخبرني حول ماذا كان هذا الكتاب».

«الشخصيات الرئيسة في الكتاب هي زوجان يافعان؛ امرأة صينية وزوجها الأمريكي، والذي قُتل بشكل مأساوي في حادثة الحادي عشر من سبتمبر، واسمه لاري كليمنتس».

أجاب لاري؛ وقد شعر بالإطراء بشكل غريب «حقاً؟ أتعني أنني شخصية من شخصيات هذا الكتاب؟».

«نعم، ولكن من المفترض أنك اختفيت منذ أربع سنين، ضائعاً تحت أنقاض مبنى التجارة العالمي. خذ واقرأ كيف وصفتك هايلي عندما ظهرت شخصيتك في بداية الرواية».

قلبت النص إلى الصفحة التي أشرت إليها بملاحظة، وبدأت أقرأ ترجمتي له بصوت عالٍ: «كان طول لاري ست أقدام بأطرافٍ طويلة، وشعرٍ أصفر، وعينين زرقاوين ذابلتين، وكان ذا خطى رشيقة. عندما يتحدث، أشعر بأن الفضاء من حولي يهتز بصوته الهادئ اللطيف. بالرغم من أنه رجل أعمال في وول ستريت للأسهم، كان أيضاً فيلسوفاً، يحب سبينوزا، كانط، هيجل ولاوتسه. أكثر من ذلك، فقد كان مثقفاً بشكلٍ كبير في الفنون الجميلة، والفراشات والعناكب والتاريخ الأوروبي. في أول موعدٍ لنا، تحدثنا كيف تم إنشاء

مصانع الطاقة النووية. كنت معجبةً ومذهولةً به في داخل أعماقي. كنت أقول لنفسي: أيّ رجل هذا!».

ضحك لاري، الأمر الذي أدهشني: «أتمنى لو كنتُ كذلك. حتى أكون صادقاً معك، فأنا لا أعرف حتى كيف أصنع طاولة».

كنتُ مندهشاً بمحادثتي مع لاري التي شابها الكثير من الضحك والمزاح والمداعبة، وشعرتُ أن لاري يمتلكُ روحاً رياضية عالية.

قلتُ له: «أخبرني يا لاري عن درجة تورطك في الرواية. هل حقاً لا تعرف شيئاً عنها؟».

«لقد علمتُ أن هايلي كانت تعمل على مشروع كتاب. هذا حقاً ما أعرفه. وأعتقد بأن أي رجلٍ متزوجٍ من كاتبة، فإنّ ما يقلقه أو ما يطمح له؛ هو أن يكون شخصيةً في رواية زوجته».

وتابع: «من المتوقع أن يحصل على أفضل مبيعات للكتب في الصين. لديّ فكرة عامة عن سوق الكتاب الصيني؛ هناك تستطيع أن تبيع الكثير من النسخ، ولكن أسعار الكتب هناك رخيصة جداً، لدرجة أنك لا تحصل على قدرٍ كبير من المال. والأسوأ من ذلك، أنك لا تستطيع أن تعلم عدد النسخ التي تم بيعها فعلاً. وكل كتاب من فئة الأفضل مبيعاً، تجري قرصنته بعدد كبير من النسخ».

قلتُ له: «هل تعلم بأن هايلي أعلنت بشكلٍ صريح أنها باعت نسخة الفيلم المعدّة عن الرواية بقيمة 1.3 مليون دولار؟».

رد لاري: «يا إلهي!»؛ وبدا مندهشاً بشدة، وأدار عينيه قائلاً: «لا أصدقها لو كنت مكانك. لكن أحياناً يصور لها عقلها أحلاماً وهمية؛ حيث لا تستطيع أن تفرق بين الحقيقة والخيال. إنها كاتبة حالمة، أتعلم ذلك؟».

«لكن هذا ليس خيالاً، إنها كذبة. تم الإفصاح عن الفضيحة في الإعلام الصيني. أتمنى لو أنني لم أضطر لإخبارك بذلك». أطبق الصمت لمدة طويلة، حتى الموسيقى توقفت.

رفع لاري رأسه ورمش بعينيه، كما لو أنه جُرِح من الداخل. وقال: «اسمع يا دانلن، يجب عليّ ألا أستمر بالقيل والقال عن هايلي بهذه الطريقة. أحياناً تفقد صوابها ويجب عليك ألا تأخذ كلماتها على محمل الجد؛ إنها حالمةٌ جداً، حسناً. أليست كذلك؟».

«قد لا آخذ كلماتها على محمل الجد، ولكن هذا لا ينطبق على الآخرين. لقد أجرت الكثير من المقابلات، وحصلت على العديد من المتابعين على الإنترنت من الفتيات من معجباتها. إن صورها منتشرة في وسائل الإعلام الصيني جميعها».

«عليك فقط أن تعلم أنْ لا علاقة لي بكتابها أبداً. إنها هي الكاتبة وهذا عملها، وأنا لستُ متورطاً».

«لقد سُعِدتُ بسماع ذلك يا لاري». لقد شعرتُ بالراحة وشكرته لمقابلته لي. بما أنه ليس متورطاً برواياتها، فإن هذا يعني أنه لا يدعمها ويساند قضيتها ودعوتها التي سترفعها ضدي في المحكمة.

لقد تعجبتُ كيف له أن يكون نبيلاً بشأن رواية مشبوهة ذكرته بالاسم، ولكنه كمعظم الأمريكيين لا يهتم بشيءٍ يحدث خارج عالمه الخاص.

ركبتُ في مترو الأنفاق عائداً إلى الحي الذي أسكنه. عندما صعدتُ إلى الشارع الرئيس، تذكرتُ أنني بحاجة لنسخة جديدة من مذكرات أحد معلمي طائفة زن أوتشان البوذية في تايبيه. لذلك ذهبت إلى متجر الكتب والصحف العالمية الصيني. وبجانب إشارة ضوئية توقفنا عندها مطولاً؛ نتيجة الازدحام المروري، صادفتُ إعلاناً للرحلات الجوية الأوروبية؛ حيثُ برز صف من الكلمات: «متى كانت آخر مرة توفر لديك فيها وقت لمحادثة شخصية بينك وبين صديقٍ قديم؟».

كان ذلك مرسوماً على لوح الإعلانات بجانب طائرة ضخمة من نوع بوينغ كانت تبحر متجهة نحو الضفة الأخرى

من المحيط الهادئ. وكانت هناك أيضاً لوحة إعلانات أخرى تحذّر: «إدمان شخص واحد على القمار باستطاعته تدمير عائلة بكاملها». ولوحة ثالثة: «قل وداعاً لأجرة الصراف الآلي». وكان على زاوية الطريق المشجر ثمانية وثلاثون منصباً لبيع الكباب، كانت تصدر منها بعض الحلقات الحلزونية من الدخان، وكان الهواء يفوح بنكهة اللحم المشوي. توقفتُ لشراء سيخ من اللحم المشوي. اقترحت البائعة الخمسينية الواقفة خلف المنصب قائلة: «اثنان، أليس كذلك؟». كانت ترتدي مريلةً من الكتان. ابتسمت لي بوجه يشبه التفاحة الجافة. اعتدت أن أشتري منها أكثر من مرة، لقد كانت من مقاطعة جانزو، ولقد كانت تعرفني بالشكل فقط، وكان طلبي الدائم منها هو سيخان من الكباب. أحببتُ الطعم المذهل الأصلي والمذاق الطري للحم الذي تشويه؛ بالرغم من التوابل الحارة التي كانت تستخدمها على نار الفحم. دفعتُ لها ورقة دولار واحدة وأربعة أرباع مقابل عودين من اللحم. توجهتُ وأنا أمضغ اللحم في الطريق المشجر رقم ثمانية وثلاثين إلى متجر الكتب. أمام مطعم يقدم مأكولات شعبية من جنوب الصين، مررتُ برجل ذي أكتافٍ مستقيمة متكئٍ على سيارة من نوع بي إم دبليو، ويتحدث على هاتفه: «اللعنة على أسلافهم» صرخ بلهجة الماندرين وبلكنة فوجيان، وقد برز ذقنه عالياً.

قال: «بالطبع لن نتركهم. عندما تصل إلى هناك، اضربهم قليلاً ولكن لا تقتل أحداً». وبصقَ على الرصيف. حدّقت عيناه المنتفختان نحو امرأة شابة وفتاة صغيرة عندما مرتا بجانبه. لقد كادت كلماته أن تقطع عليّ طريقي، ولكنني تابعت المشي، وبقيتُ أراقبه بطرف عيني. لقد عرفته؛ لقد كان من القنصلية الصينية، رأيته عدة مرات في اجتماعات عامة. لقد بدا فظاً جداً بالنسبة لدبلوماسي. من المؤكد أنه كان بيروقراطياً أو رئيساً لوحدة حراسة. لماذا كان يختبئ في هذا الشارع الجانبي، ينبح بتلك الأوامر المخيفة عبر هاتفه؟ مع من كان يتحدث؟ لماذا بدا غاضباً؟

لم أجد الكتاب الذي أريده في متجر الكتب، ولذلك توجهتُ عائداً إلى شقتي، ماشياً جنوب الشارع الرئيس. كان الرصيف ممتلئاً بالمشاة، معظمهم من السوّاح والمتسوقين. أمام أحد المتاجر، كانت هناك لوحة مزروعة في كومة من نبات الليتشي، تُعلن باللغة الصينية:

«وصلت للتو طازجة، مقابل دولار وخمسة وسبعين سنتاً لكل باوند»، وكان هنالك أيضاً خوخ كبير وردي اللون: أربع حبات مقابل دولار، كرز مقابل دولار وتسعة وأربعين سنتاً، شمام أصفر مقابل تسعة وتسعين سنتاً للقطعة الواحدة،

فاكهة التنين، أناناس، جوز الهند، ثمار اللونجان، البابايا، التمر الطازج، بقوليات متنوعة، الفستق، الفطر، الجوز، وكلها بأسعار معقولة. أحببتُ البقالات في هذا الشارع؛ حتى فوضاهم تمنحني شعوراً بالطاقة والحيوية. لقد ذكرتني بوسط المدينة في الصين. تبدو رائحة الجو نظيفة هذا اليوم، خالية من رائحة الخضار المتعفنة ورائحة السمك النتنة. شكراً للزخات الرعدية في هذا الصباح الباكر. كانت السماء صافية، وكانت مجموعة من الغيوم تطفو في السماء الزرقاء، تقودها نسمات عليلة في أواخر سبتمبر.

قطعتُ الطريق المشجر رقم واحد وأربعين. رأيت أكثر من عشرين شخصاً يؤدون شعائر فالون غونغ الروحانية، بعضهم برداءٍ أصفر. يقفون أمام المكتبة العامة، ويحملُ كل منهم بطاقة مكتوباً عليها «ستقضي السماء على الشيوعيين! اسمحوا للصينيين أن يستعيدوا موطنهم، تنازلوا عن عضويتكم، الآن! لا تتأخروا عن تحرير أنفسكم! اختاروا مستقبلكم؛ الجنة أو النار!». وبصمتٍ مطبق، كانوا يلوحون بالبطاقات فوق رؤوسهم.

«إنهم وقحون جداً» همستُ لنفسي بذلك. لم أحب ممارسي فالون غونغ كثيراً؛ إنهم متعصبون وعنيدون ويخلطون

الدين بالسياسة، حتى في الصين يُصنَفون كمتبعين لطائفة دينية مخربة، لقد كانوا ضحايا لقمع وحشي، محتجزين داخل غرف التعذيب ومحاصرين في السجون ومخيمات العمل.

كانت والدة هايلي عجوزاً بلهاء ثرثارة. لم أكن أبداً على علاقة جيدة بها، كانت معتادة على شعائر فالون غونغ الخاصة بالتنفس في كل صباح في حديقة فيكتوري في وسط مدينة شانغشون، وكانت تغضب على أي شخص يثير الشكوك حول مجموعتها الدينية التي تنتمي إليها. لقد كانت توبِخ حتى زوجها المرتبك؛ لكونه ملحِداً دون أي حياة روحية. في أحد الأيام تمّ استدعاؤها لمخفر الشرطة. بعد ذلك قطعت علاقتها مع فالون غونغ نهائياً، ولم تذكر جماعتهم مجدداً، وبدأت تمارس فنون تاي تشي الدفاعية بدلاً منها. وحذّرت ابنتها أيضاً، في اتصالاتها معها، وفي رسائلها لها عبر البريد الإلكتروني، ألا تخالط أحداً من الهائمين في الولايات المتحدة.

عندما كنت أعبر شارع كيسينا العريض، توقفت سيارة من نوع لاند روفر سوداء، وتم إطلاق ستة رجال أقوياء البنية منها، جميعهم آسيويون، وجميعهم يرتدون أحذية العمل ونظارات شمسية قاتمة. هاجموا المتظاهرين وبدأوا يرمونهم على الأعمدة الحجرية. لقد استولوا على البطاقات

التي كانوا يحملونها ومزّقوها إلى قطع صغيرة، وسيطروا على الروحانيين بالأسواط الجلدية، وكانوا يضربونهم كلما كانوا يصرخون. صرخت امرأة حينما ضربها أحد السفاحين وجرّها من شعرها. كانت ممرضة ما زالت ترتدي ثياب المستشفى والحذاء الخاص بها.

صرخ المتظاهرون، ولكن لم يكن أحد منهم يقاتل، ينهال عليهم السفاحون بالضرب وهم خانعون لهم؛ وكأنهم متجهزون لذلك، وكأنهم تعرّضوا لذلك من قبل. توقف المارّة للمشاهدة، والقليل منهم كانوا مبهورين. بعضهم تقدّموا للأمام قليلاً ليأخذوا نظرةً عن كثب. ولكن لم يتدخل أحد. بحركة اندفاعية صعدتُ السلالم نحو المهاجمين، وكنت أرتجف غضباً وغيظاً، صرختُ قائلاً: «توقف. لا تستخدم القوة».

صاح أحد السفاحين «اذهب إلى الجحيم»، ولكنه توقف ليدقق النظر إليّ.

صرخت بوجهه قائلاً: «من أرسلكم إلى هنا؟».

قال صوتٌ آخر: «من أنت بحق الجحيم؟».

أجبتُه بصوت مرتفع: «لماذا تفعلون ذلك؟».

نبح آخر: «اذهب واسأل والدتك».

وقبل أن أتفوه بكلمة واحدة. انسحب الرجال الستة كالصفّ

الواحد، نحو السيارة الرياضية. بعد إغلاق الأبواب الأربعة للسيارة، انسحبت اللاند روفر بعيداً نحو الازدحام المروري.

قالت امرأة سمينة بصوتٍ منخفض: «القنصلية الصينية خلفهم»، ومسحت أنفها الدامي بلفائف من المناديل. أخبرني رجل بعينين سوداوين؛ بالكاد كان يقف على قدميه: «لقد عرفت اثنين منهم. لقد قاموا بتهديدنا من قبل».

كان عقلي يدور في دوامة. والآن عندما انتهى هذا الهجوم، تذكرت أن هذا ليس من شأني، لم أشعر بالارتياح للاستماع إليهم. لم أكن من ممارسي فالون غونغ، وقتالهم هذا لم يعنِني بشيء، ولذلك نزلتُ من على سلالم المكتبة، تاركاً خلفي هذا المشهد بأكمله.

عندما استدرت من الزاوية، تذكرتُ فجأة الرجل ذا العينين المنتفختين الذي مررت به في الطريق المُشجّر رقم ثمانية وثلاثين. لقد كان يديرُ هذا الهجوم من هناك. شعرتُ بوخز في معدتي، استدرتُ وعدتُ مسرعاً للمتظاهرين أسمع وأكتب كلماتهم. أخبرتهم أيضاً بأن يخبروا الشرطة ويسجلوا تلك الحادثة، ولكنهم قالوا بأنهم فعلوا ذلك من قبل؛ ولم تساعدهم الشرطة بشيء.

ومع ذلك، اتصلت الممرضة بالشرطة، قالت لهم بأنهم يجب عليهم أن يسجلوا مجدداً هذا العنف الذي تمت ممارسته ضدهم.

الفصل العاشر

تحدثتُ مع كاي مينغ بشأن الهجوم الذي حصل في حي فلاشينغ، ولقد غضب كثيراً وأُعجبتُ بغضبه؛ لم يكن هنالك الكثير من الصينيين المهاجرين هنا ممن لا يزال غضبهم يتصاعد مثله. قبل بضعة أسابيع، تعرضت امرأة شابة لهجوم أمام جادة مابل في حي فلاشينغ من شخص غريب، قام هذا الرجل بجرح وجهها بالسكين، وعلى الرغم من أن العديد من المشاة سمعوا صراخها وطلبها للمساعدة، لكن أحداً لم يتدخل. من المحتمل أنهم كانوا يعتقدون أن المُهاجم كان زوجها أو صديقها. لقد كان من الصعب إقناع المهاجرين أن العنف المحلي هو اعتداء غير قانوني، لا علاقة له بالأمور العائلية. أخبرني كاي مينغ أن أكتب تقريراً حول حادثة فالون غونغ، ولكن دون أن أنتقد القنصلية الصينية بشكلٍ صريح.

كتبت التقرير وقدمته لوكالة الأنباء العالمية تحت اسم مستعار: الأخ الأنيق، استخدمتُ هذا الاسم عدة مرّات،

وارتبطت به منذ زمنٍ طويل. وفي صفحتي الإخبارية، ركزتُ في التقرير أنني بالمصادفة فقط، مررت بالرجل الذي كان يرأس هؤلاء السفاحين الستَة من على الشارع الجانبي. وعندما كانوا يهاجمون المحليين، حاولتُ التدخل وسألتهم، ولكنهم كانوا فقط يشتمونني ويلعنونني. كتبت حول تلك الحادثة الآن، ليس فقط لأنقل الحقائق، ولكن أيضاً لأدينَ هذا النوع من التخويف والتهديد المضاد للقانون. ختمتُ تقريري قائلاً: «نحن في الولايات المتحدة؛ حيث يترتب على مثل هذه الأفعال آثار قانونية. الضحايا فعلاً قاموا بالإبلاغ عن هذا الهجوم في مركز الشرطة».

تمَ نشر المقالة في العديد من المواقع الإلكترونية والصحف الصينية؛ كجزء من مجموعة أخبارهم اليومية، على الرغم من أني استخدمتُ اسماً مستعاراً، كنتُ مندهشاً من أن بعض الأشخاص عرفوا بأنني كاتب المقالة، وحتى إن بعضهم كتب تعليقاته بشكلٍ مباشر في عمودي الصحفي: «نحن بحاجة أكثر لهذا النوع من الكتابة الصحفية القائمة على مشهد واقعي، يا فينغ دانلن». كتبَ أحد القُرّاء: «دع هؤلاء السفّاحين يعرفون بأنهم تعدّوا حدود القانون، وأنهم سيدفعون الثمن». أربكتني تلك الرسائل؛ لأنها أوضحت أن نمط كتابتي يحملُ توقيعاً لا يمكن إخفاؤه بسهولة.

في ظهر اليوم التالي، اتصلت بنا القنصلية الصينية. كنتُ موجوداً في مكتب كاي مينغ عندما استلم المكالمة وسمح للمسؤول أن يعاتبه بقسوة؛ مُصراً على أننا قمنا بتزييف الحقائق، وأن أحداً من موظفيهم لم يسمع بتلك الحادثة قبل تناقلها في الأخبار. أنكر رئيسي أنه يعلم بأي شيء عن هذا التقرير قبل أن يتم نشره. قال بهدوء: «سيد تاو، نحن ننشر مئات الأخبار في اليوم الواحد»، وتابع: «وأنا لا أستطيع بشكل فردي أن أتحقق من كلّ واحدٍ منها قبل أن يتم نشره. ولكن بإمكاني أن أؤكد لك أن كاتب هذه المقالة ليس واحداً من موظفينا. (الأخ الأنيق) هو اسم مستعار يستعمله الكثير من الكتاب المستقلين». بالرغم من أن لوشينغ هو المسؤول عن المصادقة على نشر المقالات والأخبار، فإن كاي مينغ، كمدير لهذه الوكالة، يستطيع أن ينشر أي شيء يريده. لقد قرأ مقالتي قبل أن يتم نشرها.

صمت كاي مينغ ليستمع. من المؤكد أن المتصل، نائب رئيس القنصلية، كان يطلب منه أن يعرف اسم الكاتب، قال له مديري: «لا، إنها ليست من كتابة فينغ دانلن أبداً. لو كانت كذلك، لظهرت في عموده الصحفي المنتظم؛ لقد كان مشغولاً جداً بكتابة شيء آخر. وكما قلت، هذا الكاتب

صادف المشهد حيث كان يقع الاعتداء. أرجو منك أن تقرأ المقالة بتمعُن، وسترى أن الكاتب بالكاد يعبّر عن أية آراء شخصية. هو أو هي قام فقط بتسجيل تلك الحادثة واقتباس أحاديث الضحايا».

كنتُ جالساً على كرسي مستدير أعُضُ على شفتي السفلى، كنتُ أحاول أن أُخمّن ماذا يقول المُتصل. تحدثَ كاي مينغ مجدداً بعد ضحكة صغيرة: «كيف لنا أن نعرف أنّ شيئاً كهذا سيحدث وأن نبعثَ مراسلاً صحفياً قبل حدوث ذلك؟ كما قلت لك، كاتب هذه المقالة حضرَ ذلك المشهد بالمصادفة.. حسناً، أنا أسمعك سيد تاو. سنكون حذرين أكثر، ولن نستعجل نشر أي شيء كهذا مُجدداً».

أغلق كاي مينغ السماعة، وأصدر تنهيدة قائلاً: «من الممكن أن نقع في ورطة، هؤلاء الأوغاد لن يتركونا وشأننا».

لم أعلم ما الذي يمكنني قوله، وشعرتُ بأنني فعلت ما كان يجب عليّ فعله. لقد كنتُ مندفعاً بعض الشيء، وكتبتُ عمودي الصحفي التالي حول مقابلتي مع لاري. وذكرتُ أنه حتى زوج هايلي لا يثق بها، وأنه لا يعلم عن أي شيءٍ يخص روايتها، وحتى إنه تم تمثيله في صفحاتها بأنه الزوج الطاهر. «في الحقيقة، تناولتُ القهوة مع لاري كليمنتس

الجمعة الماضية. إنه متجانس روحاً وطبعاً ومتواضع، أربعيني العمر، طوله خمس أقدام، يتناثر اللون الرمادي في شعره. لقد صُعِقَ عندما أخبرته عن نجومية زوجته المُكتَشَفة حديثاً. ثم قال لي بألا آخذها على محمل الجد. وقال لي إنها «تبدو أحياناً مجنونة». ولكن الجميع يستطيع أن يرى أن هذه الرواية المُخادعة لم تكن صادرة من عقلٍ مُغفّل؛ يان هايلي كاذبة. وأضمن بأنها مُضللة في الخدعة من الناشر الخاص بها، جياو فانبنغ، والمُحرر الخاص بها، جو بينغ. لقد حان الوقت ليعترف ثلاثتهم بفعلتهم الخاطئة أمام العلن. وخلاف ذلك، لن ندعهم يفلتونَ دون عقاب».

وضعت تلك المقالة ضغطاً جديداً على ثلاثتهم، ولكن ما صعقني أن هايلي، ودون أن تُخبرني، جاءت إلى شقتي في مساء اليوم التالي. حيث كانت تأتي كيتي عادةً. كنتُ غير مستعد لرؤية زوجتي السابقة، بحجمٍ مُضاعف عبر ثقب الباب، ولكن استعدتُ قواي وفككت سلسلة الباب. حالما دخلت هايلي، قالت لي كيتي: «علي المغادرة».

قلتُ لها مُصرّاً: «لا، أرجوكِ ابقي هنا» وغمزتُ لها بعيني. أريد أن ترى وتسمع كل شيء.

حدّقت بي هايلي، ولكن لم تقل شيئاً، فقط أومأت برأسها

تجاه صديقتي، ولذلك بقيت كيتي موجودة. قدمت كوباً من شاي الياسمين لضيفتنا، ووضعت بجانبه وعاءً من الفول المُدمّس الحار. نظرت هايلي للطبق بازدراء. تناولت كيتي قبضةً من الفول وتراجعت لتجلس على كرسي البابازان قرب النافذة على بعد عشر أقدام تقريباً من كلينا؛ أنا وهايلي.

بدت هايلي منهكة قليلاً، من المحتمل أنها لم تتمكن من النوم جيداً مؤخراً.

سألتني: «لقد أصبحتَ مثيراً للشفقة أكثر. لماذا ذهبتَ إلى لاري دون علمي؟».

«ألم تُصرّحي أمام العلن بأنكِ ستأخذينني للمحكمة؟ كان عليّ فعل شيء. صدقاً، لقد كنتُ مصدوماً من أنك لم تخبري لاري شيئاً حول روايتك».

«وإنْ يكنْ، هذا لا يُبرر إقحامه في الأمر».

«بل يبرر؛ ماذا كنتِ تريدين مني أن أفعل؟! أن أتوسل إليكِ وأجلس منتظراً أن تُدمريني؟». أجبتها بنغمةٍ حاولت أن تكون هادئة؛ ولكن لا شك بأني بدوت يائساً تماماً.

ضحكت كيتي ببرود وتوقفت، قالت هايلي: «أنا أعرفكَ جيداً، أنت شخص انتقامي وتريد تدمير زواجي».

أوشكتُ أن أصرخ بوجهها: «ألم تلقي بي ككيس نفايات؟ ألم تقوديني للتفكير بالانتحار؟». ولكن قلتُ لها بدلاً من ذلك: «زوجك رجل ثري. إذا وحدتُما مصادركما لترفعا دعوى ضدّي، من الممكن أن أخسر كل شيء. أنا أقشعرُ من الخوف بمجرَد التفكير بذلك».

«الآن أنت تعلم بأن لاري ليس متورطاً في ذلك. في الحقيقة، لقد كنا نتشاجر للتو، وغضبَ بوجهي. لقد كان أنت من ألقى قنبلة في زواجي».

لقد بدت متألمة، ما أثر بي، قلت لها: «يبدو لاري رجلاً عقلانياً، ولن يُسلمك ملف أوراق الطلاق. هذا سيكلّفه كثيراً».

ابتسمت هايلي متكلفة؛ وكأنها تسخر من نفسها، نظرت إلى كيتي بازدراء، والتي كانت تتصفح صحيفة الترفيه الأسبوعية خاصتي. بدت هايلي مترددة؛ ثم تابعت «لاري رجل داهية. قبل زواجنا، قام بإقناعي بتوقيع أوراق اتفاقية ما قبل الزواج. إنه دائماً يخفي أسراره. لم أقل بأنه رخيص، ولكن يجب أن نقتسم المصاريف المنزلية».

بالكاد كنتُ أتمالك نفسي؛ قبل أن أُذكّرها عندما كنا متزوجين، كنتُ أشاركها آخر قطعة من الكعك المطهو على البخار. ألم نتناول معاً وعاءً من حساء اللحم خارج مدخل

الكلية؛ لأننا كنا كلانا طالبين ولا نملك المال الكافي لشراء وعاءين من الحساء، ولذا؛ نكتفي بقطع الكعك المصنوع من القمح؛ الذي كان بمتناول أيدينا؟ بالرغم من أنني لم أستطع شراء بيانو لها، ألم أشترِ لها لوحة مفاتيح؟ هل كنتُ بخيلاً عندما كانت تطلب مني أي شيءٍ تريده؟ ألم أعدها ببناء بيتنا الخاص، بيتٍ صغير ذي شرفةٍ مُدوّرة؛ مثل صورة الواجهة البحرية التي كانت على بطاقة البريد التي أرسلتها لي في إحدى المرات من مدينة فانكوفر؟ كانت عيناي متدفقتين بالدموع، وأدرتُ وجهي للناحية الأخرى. لقد جعلت هايلي هذا السرير الشائك بإرادتها مرتعاً للأكاذيب... لم تكن هناك فائدة من أن تثير عواطفي مجدداً؛ لم تتمكن من جعلي أستسلم مرة أخرى. شعرتُ بحزنٍ يختلط بالقليل من الرضا يسكن صدري.

«دانلن، لم آتِ لأتشاجر معك. أتيت لأتوسل إليك أن تتوقف عن التدخل بشؤوني الخاصة، لمصلحتك. أنت لا تعلم ضد من تعمل».

«هل هذا تهديدٌ آخر؟».

«بإمكانك أن تعتبره كذلك؛ إنْ شئت».

«إذاً، بارد أم حار، حلوٌ أم حامض، ناضج أم غير ناضج، اطبخي ما قدر استطاعتك».

ابتسمت بتكلف وقالت: «ما زلت كالكلب، لم تنفك عن تلك العادة السيئة بالتنقل هنا وهناك؛ تمضي وقتك دون منفعة».

«أنتِ محقة: لن أستسلم».

«إذا استمررت بإيذائنا، سنوقفك».

سألتها: «من أنتم؟».

«الأشخاص المشتركون في إنتاج كتابي».

«أتعلمين شيئاً؟ لو كنا ما زلنا في الصين، كنتُ سأستمع لكِ، ولكن هنا، يجب عليّ أن أؤدي واجبي المهني؛ وأن أنقل الحقيقة».

«الحقيقة تعتمد على كيف تقوم بتشكيلها وتقديمها».

«إذن فلنقل بأنها وقائع. يجب أن ألتزم بتقديم الوقائع».

«لا تعرض أمامي تلك الحماقة المهنية».

«لا يمكنك منعي من نقل الحقيقة».

«أنتَ ساذج وعنيد، أظن أنّ ذلك هو السبب الذي دفعني لأعجب بك منذ التقينا في البداية. ما زلتَ الجرو نفسه في قلبي، والفتى الشاب نفسه».

لم أكن متأكداً ما إذا كانت تلك الجملة مجاملة أم إهانة.

قلت لها: «نعم، لقد كنتُ ساذجاً جداً؛ لدرجة أنني لم أرَ كم كنتِ متقلبة وعديمة الإحساس. لو كنتُ أعلم بأنكِ تطمحين أن تصبحي روائية ودبلوماسية كبيرة، كنتُ سأفضل البقاء بعيداً عنك و...».

قالت مُقاطعة: «لا تضع نفسك بمزاجٍ حادٍ مرة أخرى».

«إذا اعتذرتِ أمام العلن بشكلٍ صريح، حتى لو بجملةٍ واحدة، سأبتعد عن طريقك. سيكون هذا سهلاً جداً بالنسبة إليكِ».

أصبح وجهها مشدوداً، واستدارت بانزعاج قائلة: «حسناً»، رفعت يدها للأعلى وقد بان سوارها ذو الطراز الأول المرصع بالأحجار الكريمة، وقالت: «لقد اكتفيت بهذا القدر من محاولتي التحدث إليك. بإمكانك أن تبقى متوحشاً، وأن تستمر في تحطيم قاربنا، ولكن لا تقل بأنني لم أُحذرك».

بهذه الكلمات، وقفت وودعت كيتي، ثم فاجأتني، رفعت يدها ووجهت سبابتها نحو مقدمة رأسي وكأنها تحمل مسدساً وتطلق منه رصاصة؛ وقالت «بانغ» وخرجت قائلة: «أنا لستُ خائفة من الباباراتزي». وقبل أن أرُدّ عليها كانت قد أغلقت الباب. وعندما ابتعدت أصوات خطوات أقدامها، قالت كيتي ببساطة: «إنسانة شرسة، أليست كذلك؟». قلت

لها: «إنها مجنونة، يا إلهي كم أكرهها، إن سخطي عليها يجعلني أشعر بإنسانيتي أكثر». ضحكت كيتي.

خطوتُ نحو النافذة ونظرتُ للأسفل، رأيتُ هايلي مسرعةً نحو شارع كسيينا. لقد كانت تمسح وجهها بالمنديل ثم أسفل أنفها. كانت أكتافها محدودبة قليلاً تهتزُ مراراً وتكراراً. من المحتمل أنها لم تمسح جميع ذكرياتها الجيدة معي. شعرتُ بالحرارة تغشو عيني. لم أكن أريد أن ترى كيتي جزءاً من وجهي، استدرتُ وتوجهتُ إلى الحمام.

الفصل الحادي عشر

بعد عدة أيام، صادفتُ في القطار الصباحي المتجه إلى جزيرة لونغ آيلاند، شاو نيا. كانت تجلس بشكلٍ قطري عبر الممر المقابل لي. كان القطار ممتلئاً إلى ثلثه تقريباً؛ في مثل هذه الساعة، الكثير من الناس يذهبون إلى الطريق المقابل للمدينة. كان ينبثق الصخب من بعض طلاب الروضة تقودهم امرأةٌ شابة، وكانوا جميعهم ـ ومن ضمنهم المعلمة ـ يرتدون بدلات برتقالية اللون. حيث كانوا في نهاية المقطورة يثرثرون بصوتٍ صاخب. وجود نيا في المقطورة أثار حفيظتي، والفكرة التي خطرت لي؛ هي أن نيا كانت تراقبني. ولكنني استبعدتُ الفكرة من ذهني؛ لأنه لا يمكن لها أن تكون محققة أو عميلة، ولستُ أنا بالشخص المهم الجدير بهذا النوع من المراقبة. أبقيتُ أنظاري مركزةً خارج النافذة. الأشجار على طول سكة الحديد كانت تشمل أشجار البلوط وأشجار القيقب وأشجار الزان؛ التي بدأت أوراقها بالتساقط والتطاير في الهواء الطلق. وتناثرت الأعشاب الصفراء هنا وهناك ببريقها الأصفر. وبدت هناك

بركة يُجدّفُ بها سرب من طيور البط وزوجان من البجع كانت تمشي مختالة. وفجأةً أقلعت طيور البط بأجنحتها المتناثرة. أما طيور البجع فأبحرت في الماء منزعجة. لم أعلم ما السبب الذي جعلها تفزع، ربما هو قارب أو كلب بين الأغصان.

سألتني نيا وهي تنظر لي بتعجُب: «هل تمانع من أن أجلس؟»، وأشارت للمقعد المُقابل لمقعدي، وكانت ترمش بعينيها المستديرتين.

أجبتها: «لا أبداً».

جلست وكانت تبتسم وترتشف من فنجان قهوتها الطويل. كان واضحاً من رائحتها؛ أنها بنكهة الفانيلا الفرنسية. وقد جعلت شعرها مُجعّداً. لقد ذكَرتني الخصل المُجعّدة بزغب الدجاجة المنتفش، وبدت رثّة بعض الشيء؛ ترتدي سترة وبنطالاً أزرق قصيراً، ترتبط حواف أطرافه بعقدة مثنية تشبه ربطة العنق الصغيرة.

قلتُ لها: «يا لها من مفاجأة أن أراكِ هنا، ما الذي جعلكِ تسلكينَ هذا الطريق؟»

«أنا ذاهبة لأرى صديقةً في ميناء واشنطن».

«يبدو أن لديك أصدقاء في كل مكان».

«هل هذا غير قانوني؟».

«طالما بقيتِ بعيدة عن التدخل في شؤون حياتي، فهذا ليس من شأني» لم أستطع ألا أذكر ذلك، بعد أن أثارت ذاكرتي كتاباتها ضدي.

«إن هايلي صديقتي، ويجب عليّ مساعدتها»، قالت ذلك مبتسمة؛ وقد ظهر خطان رفيعان من أسلاك تقويم الأسنان.

«هل عيّنتكِ وكيلتها الإعلامية الخاصة؟».

«أرجوك. لقد كنتُ أحاول أن أمُدّ لها يد المساعدة بما أستطيع، لا أتقاضى أي مبلغ مقابل ذلك».

«هذا كرمٌ كبيرٌ منكِ».

«أنا دائماً كريمة مع أصدقائي. لطالما كانت هايلي صديقة جيدة لي. عندما جئتُ إلى نيويورك كنتُ مفلسة وبلا عمل. كانت هايلي الشخص الوحيد الذي قدّم لي المساعدة. لقد تولّت أمري لمدة شهر».

«متى كان ذلك؟».

«قبل ثماني سنوات. وبعد أن حصلتُ على وظيفة، أردتُ أن أعيد إليها مالها، ولكنها رفضت ذلك. ولذلك اشتريتُ لها عضويةً في نادي اليوغا».

«لم أعلم بأنها كريمة».

«دانلن، لقد كنتَ زوجها سابقاً، وكان يجب أن يكون لديك بعض العطف نحوها».

«أنتِ لا تعلمين كيف كانت تعاملني».

«سمعتُ بأنها سلمتكَ أوراق الطلاق بعد يوم واحد من وصولك هنا. لقد كانت مخطئة، ولكن كان هذا منذ زمنٍ بعيد. لا يجب عليكَ أن تبقى غاضباً منها للآن، تُكدّس الأخطاء فوق بعضها البعض. هذا لا يُعدّ تصرُفاً صحيحاً».

«أنا لستُ محباً للانتقام. أنا أحاول فقط أن أنقل الحقيقة. ولا يجب عليكِ أن تكوني متورِطة في ذلك بدرجة كبيرة».

«أكره أن أرى صديقتي تُعاني».

«لا تستطيعين إنقاذها. حاولي العثور على فرصةٍ أخرى لتظهري لها امتنانك. لن أدعها تفلت هذه المرة، ليس قبل أن تتنازل عن غرورها وتعترف بخطئها أمام العلن».

«أنا أرى أنه ما زال لديك الكثير من المشاعر نحوها».

«مشاعر سلبية فقط».

«لقد هرعتَ إلى هذا النزاع بشغفٍ كبير؛ لدرجة أنك لا تستطيع التخلص منه. يجب عليك أن تكون عقلانياً بهذا

الشأن يا دانلن. أين تكمن المخاطرة بذلك؟ إنها مجرَد رواية رومنسية، إنها لا تستحق الوقت الذي أمضيته عليها».

«رئيسي في العمل هو من أوكل إليَ تلك القضية، ولدافعٍ جيد. هايلي والأشخاص الذين يعملون خلفها؛ يستغلونَ أحداث الحادي عشر من سبتمبر. إنهم يجنون الأرباح من آلام الناس ومعاناتهم».

«ومن الذي لم يربح من استعمال التراجيديا؟ لقد استخدمها البيت الأبيض، والحكومة الصينية أيضاً، المجموعات الإسلامية تفعل ذلك أيضاً، وحتى شركات النفط تستفيد من ذلك، وكل محطة وقود تستفيد من ذلك أيضاً. لا يستطيع أيٌ منا أن يفصل نفسه عن المأساة التي حدثت... جميعنا جزء منها».

«لا أعلم كيف يمكن أن أتفهمك»، كنتُ مندهشاً كيف أن صديقة هايلي تتحدث بتلك العقلانية. ولكن أدركتُ بعد ذلك أنها تحاول فقط أن تُبرِئ هايلي، وبدا حديثها غير مقنع على الإطلاق، ولكن في تلك اللحظة لم أعرف كيف أدحضه.

قالت: «أنا لستُ بتلك البشاعة كما تعتقد. خذني ببساطة؛ كامرأة لا تنسى شيئاً، ودائماً تجازي اللطف والإهانات بالمثل. بالمناسبة، رأيت صديقتك في الحرم الجامعي اليوم التالي. إنها جذابة، ومثال للرشاقة، ولكن أليست أكبر منك

بكثير؟». وكانت زاوية فمها تميلُ للجانب قليلاً، حيث منحت وجهها شكلاً بيضوياً ساخراً.

قلت لها: «أتعنين أنها طويلةٌ جداً؟ كلانا بالطول نفسه. خمس أقدام وعشر. على الأقل بإمكانك أن تلاحظي أنني أستطيع البقاء على علاقة جيدة مع امرأة، ولا أنظر للمرأة كشهوة غريزية فقط.

عندما ذهبتُ مبتعداً، لوحت لي بفنجان قهوتها، ولكن كان وجهها معتماً قليلاً؛ وكأن هنالك فكرةً غامضة خطرت بعقلها. بدت منطقيةً بعض الشيء، تأملتُ لو أنها تتوقف عن التصرف وكأنها مسدس هايلي المحشو بالرصاص.

حررتُ دراجتي المصطفة في محطة القطار، وتوجهتُ بها إلى وكالة الأنباء العالمية. قابلتني زميلتي وينَا وسلمتني سماعة الهاتف مبتسمة بتكلف: «مكالمة لك».

عرّف المتصل عن نفسه بأنه جو بينغ، وقال بأنه يريد مقابلتي على انفراد. تحدثَ بشكل عرضي وغير رسمي؛ وكأننا تقابلنا من قبل، وكأننا نعرف بعضنا البعض جيداً. لقد استغرقتُ بعض الوقت لأدرك أن هذا الرجل، المحرر الخاص بهايلي، موجودٌ في نيويورك في تلك اللحظة.

قلت له محاولاً أن أبقى هادئاً؛ بالرغم من أن نبضات قلبي كانت في تسارع مستمر: «حسناً، أين يجب أن نتقابل؟».

«أنا أمكث في القنصلية الصينية، هل يمكننا أن نتقابل هنا؟».

«حسناً... إن هذا يبدو غير ملائم». وتوقفت، ليس سهلاً أن تخطو خطوة واحدة في ذلك المبنى.

قال جو: «ماذا لو التقينا عند المدخل الجانبي في سلطة الميناء عند الشارع الثاني رقم أربعين؟ من هناك بإمكاننا أن نذهب لمكانٍ هادئ. موقف الباص ليس بعيداً من القنصلية، وهناك توجد بعض الحانات والمقاهي الجيدة».

اتفقنا أنا وجو أن نلتقي هناك الساعة الثانية من ظهر اليوم التالي. أنهيت مكالمتي معه، ولم أستطع منع نفسي من التململ بعصبية. هل قطع ذلك الرجل كل تلك المسافة لينقذ هايلي؟ من دفع تكاليف رحلته؟ إن كمية رواتب المحررين في الصين لا تؤهله لكي يدفع تكلفة تذاكر الطائرة من حسابه الشخصي. من المؤكد أنه كان يائساً بعض الشيء. لقد بدأ الأشخاص المتورطون في تلك الفضيحة بفقدان السيطرة. من خلال علاقاتي الشخصية في المدينة؛ علمتُ أن جو بينغ جاء إلى هنا برفقة وفد ثقافي مكون من تسعة فنانين ومسؤولين. لقد هدّأ

ذلك من روعي، لأنه يعني أنه لم يركب الطائرة ويأتي إلى هنا فقط من أجل أن يتحدث معي.

تحدثتُ مع كيتي حول موعدي مع جو، اعتقدتْ هي أيضاً بأنه يريد أن يصل بتلك الفضيحة إلى نهايةٍ ما. لقد لاحظت أن صحيفة العهد، صحيفة فالون غونج، كتبت مؤخراً حول قضية رواية هايلي كمثال للفساد الأخلاقي بين بعض المهاجرين من بر الصين الأساسي. كانت المقالة مجانية ومتوفرة في حرم كل كلية في المدن الأمريكية الرئيسة، وتم نشرها بالنسخة الإنجليزية، وبسهولة تمكنها من الانتشار في التيار الإعلامي.

وصلتُ سلطة الميناء في الوقت المحدد من ظهر اليوم التالي، متيقظاً بعض الشيء من أنني لن أستطيع التعرّف إلى جو، لقد رأيتُ بعض الصور له على الإنترنت، ولكن لم أكن متأكداً إذا كانت صوراً حديثة أم لا. كان الجو دافئاً بالنسبة لبداية شهر أكتوبر، كانت السماء متلاطمة الغيوم المسامية، وكانت الشمس تُسقط بعض الرقع من أشعتها على الأرض. الجادّة الثامنة كانت صاخبة ومخططة بسيارات الأجرة الصفراء، وكان الجو يفوح برائحة الفوشار، والجبنة، والبصل، والنقانق. وكانت الحمامات السمينة تختال بمشيتها مثل العابرين، تتأرجح بريشها المُلطّخ بمخلّفاتها. استدرتُ نحو الشارع الثاني رقم أربعين،

وتفاجأتُ بوجود هايلي واقفة على الدرجات الصخرية على المدخل، بجانب رجل قوي البنية واسع الصدر. كان جو يرتدي قميصاً منقوشاً ذا أزرار سفلية وأكمامه مطوية للأعلى، وبنطالاً ذا لون كاكي وحذاءً من نوع أحذية السرج. لقد بدا كلاعب جولف، وكان يدخن السيجار، وبيده الأخرى كان يقرع عمود الدرابزين النحاسي الرفيع. كانت هايلي ترتدي حذاءً ذا كعب مسمار بجوارب مُشَبّكة، وفستاناً بلون الزعفران تحت سترة من الصوف، وكانت تضع زوجاً من الحلقات ذات اللون الأحمر المرجاني، وتضع على وجهها مكياجاً خفيفاً، وتحمل حقيبة جلدية تتدلى من على أكتافها، مزينة بالشرابات ومفتاح نحاسي اللون. صعدتُ نحوهما وصافحتُ جو بينغ.

قالت زوجتي السابقة:

«أنتما لم تلتقيا ببعضكما من قبل، لذلك رافقته لأقدم كلاً منكما للآخر».

اقترحت عليها قائلاً: «أترغبين بالانضمام إلينا لنشرب شيئاً؟».

حرّكت رأسها والتفت قائلة: «لا، شكراً»، واستدارت من ثم إلى جو بينغ وربتت على جانب فكه العريض، وقالت له بصوت ناعم: «أراكَ على العشاء، حسناً؟».

قال: «بالتأكيد، استمتعي بوقتك».

ذهبت مبتعدة، وصدرت أصوات خشخشة حَلَقِ أذنيها..

لم أستطع أن أعرف ما الذي أشار إليه جو؛ من الممكن أن هايلي كانت في طريقها لحضور مناسبة اجتماعية. بدا أنهما كلاهما يعرفان بعضهما البعض بشكل عميق جداً. لقد أزعجتني تلك الفكرة، ولكن من الناحية الأخرى؛ من المحتمل أن هايلي تمثل تلك العلاقة في ما بينهما متقصّدةً إثارة غيظي. أوقفتُ تلك الأوهام وأخذت جو إلى حانة قرب الجادّة الثامنة؛ حيث كنت أجتمع مع بعض الأشخاص عادة. لقد كانت مشيته مُثقلة متخمة.

طلب جو مشروباً كحولياً وطلبتُ جعة. كانت عينا عاملة البار محاطتين بتأثير الكحول، وكانت تضع أحمر الشفاه، سألت عن رخصة القيادة الخاصة بي. قلت لها: «هل أبدو فتيّاً لتلك الدرجة؟». وقد احمرّ وجهي غضباً. وأطلعتها على بطاقة الرخصة، وقلت لها: «أترين، أنا في منتصف العمر».

قالت: «شكراً سيدي»، أومأت وبدأت بسكب الشراب لنا.

«إذا طلبت مني البطاقة، سأشعر بالغرور»، قال جو؛ وضحك ضحكةً متقطعة كالضبع.

«أنت رجلٌ فَتي بطريقة عملية».

«إذا رفعوا السن القانوني لشرب الكحول خمس عشرة سنة، سأبقى مؤهلاً لذلك. لقد احتفلتُ مؤخراً بيوم مولدي السادس والثلاثين. يا له من قانون سخيف. لقد بدأتُ شرب الجعة منذ أن كنت طفلاً صغيراً».

«أين كان ذلك؟».

«في شانغشن».

قلت له: «أوه. كم أحب تلك المدن الشمالية؛ الناس هناك يفتخرون بطريقة إسرافهم في الشرب كحقولٍ ترتوي بالماء».

عندما قُدّم لنا الشراب قال جو: «دانلن، يبدو أن هنالك سوء تفاهم بيننا وبينك. أتمنى أن نشرح هذا الالتباس، وأن نصل إلى تفاهم في ما بيننا».

قلت له: «لقد أمضيتُ وقتاً طويلاً أبحث في تلك القصة، وأعرف كيف أنك مشترك بتلك القضية. إذا كانت رواية هايلي جيدة كما تدّعون جميعكم، إذا كانت جميع إنجازاتها حقيقية، لن يكون هنالك أية أخبار حول تلك القصة هنا. ولكن الكتاب مُخجلٌ بالفعل؛ لقد فعلتم ذلك بأنفسكم».

قال جو: «أنا لا أنكر مشاركتي بتلك القصة»، رفع سبابته

ووضعها في مشروبه وحرّك مكعبات الثلج فيه وارتشف منه رشفة، وأكمل: «ولكن أنا أعتقد بأنك رجلٌ ذكي، وتفهم أننا لن ندعك تُكمل حملتكَ السيئة. قامت بعض الصحف بإعادة طبع أعمدتك الصحفية، وأنت تصبح صحفياً مشهوراً بطريقة متحفظة».

سألته: «لماذا تجدها متحفظة؟ أنا فخورٌ بعملي».

أجاب: «لن تصنع اسماً مشهوراً عن طريق انتقاد الآخرين ومهاجمتهم. إنك تحقق نجاحاً الآن، ولكن صدقني، على المدى البعيد لن يستطع أحد أن يستمر بنجاحه بتلك الطريقة. هناك بعض المبادئ التي ألتزم بها دائماً، وقد ساعدتني على أن أصل لمكانتي الآن. أحد تلك المبادئ، ألا أحاول أبداً الحصول على ما أريده عن طريق تدمير الآخرين، ليس لأنني لِين القلب، أو لأن لديّ غيرة من أحد، بل لأنهم ستكون لديهم الفرص ليردّوا إلي ما فعلته بهم؛ لا أريد أن أشكّل أعداء لي. أخي، كن حذراً وراقب الأرض التي تدوسها قدماك».

توقف قليلاً ثم تابع: «دعني أكشف لك نواياي بصراحة؛ حتى تتمكن من إعادة التفكير بما تفعله».

«حسناً»، وسكبت ما تبقى من جعة الكورس في كأسي. وتابع: «على الرغم من نجاحك الأولي ككاتب مقالات، إلا أنك لم تنشر كتاباً واحداً حتى الآن. أعلم أن دار نشر الكُتّاب

تُجهّز لنشر مجموعة أولى من مقالاتك بعنوان «الراكون الذي لا أستطيع نفيه بعيداً»، ويا له من عنوان، أحببته لأنه يحوي صورة مبهمة بداخله».

قلت له: «شكراً» لم أعلم هل أشعر بالإطراء أم بالقلق؛ لأنه كان على علم بكتابي هذا.

قال: «ربما أكون قادراً على مساعدتك بدعم هذا الكتاب، بمعنى أنني..».

قلت له مقاطعاً: «إنه في مرحلة الطباعة الآن، ولا يحتاج أية مساعدة».

ابتسم وكأنه يتسلى، وقال: «دانلن، أنت جديد في مجال النشر. أنت لا تعلم أن الكتاب حالما يصدر؛ فإنّه يبدأ رحلته في الحياة؛ كالمولود الجديد، غير قادر على المشي بعد. وهنا؛ يمكنني مساعدتك؛ أستطيع مساعدتك بترويج الكتاب في المدن الرئيسة والمقاطعات الساحلية، وأستطيع أيضاً أن أنظم لك مؤتمرين على الأقل للحديث عن كتاب، مناسبات يحضرها مسؤولون للشؤون الثقافية وأبرز النقاد. بعضهم سيكتب عنه في الصحف والمجلات. يمكنني في السنة القادمة أن أرشحه لبعض الجوائز الأدبية. وفوق هذا كله، أستطيع أن أجعل دار النشر تعتبرك مؤلِفاً معتمَداً لديها، وأن تلتزم بنشر

كتبك في المستقبل. هذا يعني أنك تستطيع الحصول على عقد ودفعة مُقدّمة؛ حتى قبل أن تنتهي من نص الكتاب».

رفع حاجبيه وأضاف: «سأجعلك تنجح في وطننا، ليس فقط لأنني أملك القوة والنفوذ، بل لأنني أرى أن لديك قدراً جيداً من الموهبة. بالرغم من ذلك، كلانا يعلم أن العالم مليء بالأشخاص الموهوبين؛ كل شخص لديه الفطرة لشيءٍ ما. الشيء النادر هو الفرص التي نحتاجها لتطوير واستغلال موهبة أحدهم، وتحويلها إلى إنجاز فعلي. لا يستطيع الفرد أن يكون ذا قيمة أكبر من الآخرين؛ دون أن يعمل أكثر منهم. وبالمنطق نفسه، إذا لم يتم اكتشاف الموهبة وإدراكها، فلا قيمة لها إذن، ولا تستحق أن يملكها أي شخص، لأنها ستجعلك فقط أكثر استياءً، وتجعلك تحسد حظوظ الآخرين وإنجازاتهم. تلك السلبية تسمم قلبك، وتُدمّر شخصيتك، وتحولك إلى شخص بغيض؛ يستطيع بقوته أن يُفسد الانسجام في حياة الآخرين، وأن يُزعزع الأمان من حولهم. إن الشخص الموهوب دون أن يحقق أي إنجاز، وهو على مقربة من نهاية حياته، لن يختلف بشيء عن أي شخص غبي». رفع كأسه وشرب آخر رشفة حاذقة من مشروبه.

قلت له: «قبل أن أجيبك على العرض الذي قدّمته، هل أستطيع أن أسألك شيئاً؟».

قال: «بالطبع».

«متى التقيت بهايلي؟».

بدا مندهشاً، ومن ثم ارتخى قليلاً، وتلاعبت الابتسامة على وجهه، تجعيدة وجهه جعلتني أعرف لماذا تُسمى بعض الوجوه بـ(الوجوه البشعة).

أجاب: «تقريباً قبل ثلاث سنوات في بكين، عرّفها إليّ صديقٌ مشترك بيننا؛ كان عائداً حديثاً من ملبورن. تريد أن تعرف إذا كنا أنا وزوجتك السابقة على علاقة في ما بيننا عندما كنتما متزوجين. صحيح؟».

أجبتُ برأسي مومئاً.

تابع: «عرفتها أكثر بعد طلاقكما. لقد تم تعريفها إليّ كامرأة ثرية، وزوجة صاحب بنك من نيويورك. لأكون صادقاً، لقد أُعجبتُ بها. يا لها من امرأة محبوبة، جميلة وحادّة الذكاء، ومرحة، ودافئة، ودودة مع الآخرين، مختلفة جداً عن أي امرأة أخرى تحب المال ومجرّدة من المبادئ. إن امرأة مثل هايلي بإمكانها دائماً أن تجعل الرجل يشعر بالراحة والفخر. لهذا بدأت أتعاون معها في مشاريعها. الآن، يكفي هذا. أخبرني إذا كنت ترغب في أن تقبل العرض الذي قدّمته لك».

شعرتُ بالغضب العارم، ولكني أخفضتُ صوتي، وقلت: «هذه أمريكا وليست الصين؛ حيث يمكنك أن ترهب الأشخاص ذوي الأهمية البسيطة مثلي. القانون يقود الناس هنا، والمراسلون ينقلون الحقيقة. لقد كذبتَ على الناس، ولذلك يجب أن تعترف بخطئك. تلك هي الطريقة الوحيدة لإيقاف ما تدعوه بحملتي الملوِثة عليك؛ أن تتحدث بصراحة على الملأ، وأن تبرِّئ نفسك. بذلك، لا أحد يستطيع، ولا حتى أنا، ولا حتى الصحف الصينية، أن تقول أي شيء سلبي عنك. حالما تقدم اعتذارك، سيسامحك الناس. ولكن لا يمكنني أن أنشر اعتذارك. وبالنسبة لمقترحك الأسطوري، فيجب عليّ أن أقول لك: لا».

بدا جو وكأنه يتأمل مليّاً، وقال: «أنا أفهم ما تقول، ولو كنتُ أمريكياً، سأقدّم اعتذاري بسرعة كبيرة، وببساطة وسأضع الأمر بكامله وراء ظهري. ولكن حياتي ومهنتي في الصين، وتقديم الاعتذارات في الصين لا يمكن النظر إليه كما لو كان في أمريكا. إذا أظهرتُ ندمي واعتذاري علناً، فإن أعدائي سينقضون عليّ وسيدمرونني بهذا السلاح الذي قدّمته. لذلك، لا أستطيع أن أعترف وأعتذر عن أي سوء تصرّف. والأمر عينه بالنسبه لجياو فانبنغ. يجب علينا أن نحمي سمعتنا، وليس لدينا خيارٌ آخر إلا أن نواصل ونتقدّم».

أجبته مُحتجَاً: «ولكن أنا أيضاً يجب عليّ الحفاظ على سمعتي، لا أستطيع أن أسمح لك بأن تؤثر في عملي».

قال: «أنت رجلٌ مكابر يا دانلن. عليك أن تتذكر أنك لم تحصل على الجنسية بعد. أنت تملك البطاقة الخضراء وبعض الغضب الكامن، ولكنك ما زلت تحت قيادة السلطة الصينية، ونستطيع أن نتولى أمرك بالطريقة التي نراها مناسبة».

فكَّرت بأن أخبره بجنسيتي الأمريكية الجديدة، ولكن قاومتُ تلك الاندفاعة؛ إذا علموا بأنني حصلتُ على الجنسية، سيهاجمونني كأمريكي، كأجنبي يخفي دوافع هجومية ضد الصين.

سألته بدلاً من ذلك: «ولماذا إذن قطعت المسافة تلك كلّها، إلى نيويورك؟ لماذا تريد مقابلتي، وأنا مراسلٌ غير معروف كثيراً، في مكانٍ كهذا؟».

«هذا ليس لأجلك بشكلٍ كلّي، أتيتُ لرؤية بعض الأصدقاء ولأمتّع نفسي»، ابتسم متكلّفاً، وقال بازدراء: «أتعلمْ... كنتُ في إحدى المرات باحثاً زائراً في مؤسسة هارفرد ينشنغ للباحثين. كانت تلك أسعد سنة في حياتي؛ أمضيتُ الكثير من الوقت في المكتبات هناك. لذلك، أنا أحب أمريكا أيضاً، بطريقتي الخاصة. أتابع أحياناً في ساعات الصباح الباكر في

الصين مباريات كرة السلة الأمريكية الوطنية (NBA). عندما اعتزل مايكل جوردان، بقيتُ أشعر بالاكتئاب مدة أشهر».

«إذاً تمتّع بمشاهدة معالم المدينة وبمتابعة مباريات السلة»، قلت ذلك ووقفت. وضعتُ عشرة دولارات ثمن الفاتورة على الطاولة، ومشيتُ باعتزاز إلى خارج الحانة.

الفصل الثاني عشر

كان الوقت المحدد لصدور كتابي هو في غضون خمسة أسابيع. حالما يتم نشره، سيتمكن جو من نقده من خلال مجموعة النُقّاد التي حوله. لديه القوة والنفوذ لتعطيل سير الكتاب. كلّما فكَرتُ بذلك أكثر استُثرتُ وأصبحتُ قلقاً أكثر.

بموافقة كاي مينغ، كتبتُ عمودي الصحفي التالي حول لقائي مع جو، كمتابعة لما كتبته من قبل. اقتبستُ بعضاً من محادثتنا، متضمناً العرض الذي قدّمه لي ـ وبالأحرى الرشوة ـ ورفضي له. كتبتُ معلّقاً: «بهذه الطريقة يعمل الوسط الأدبي في الصين هذه الأيام. يجب أن يكون لديك بعض العلاقات، ويجب أن ترشو أولئك الأشخاص الذين يقومون بمراجعة كتابك، وأن ترشو المسؤولين والباحثين المُزيّفين الذين يحضرون المناسبات الخاصة بإصدار كتابك. لا تتعجبوا من المؤتمرات التي لا تنتهي والمنعقدة في بكين والمدن الرئيسة الأخرى للاحتفال بالمؤلفات والدعايات الرديئة التي تم نشرها

مؤخراً. إنني أراهن أنه في كل ظهور في مؤتمر، يتلقى الناقد أو المسؤول الثقافي زيادة مالية ضخمة بمغلفٍ أحمر. الأشخاص العديدون مثلي ومثلكم، دون سلطة أو مصادر نفوذ، لا يملكون فرصة البقاء في مثل تلك اللعبة».

انطلق عمودي الصحفي في المواقع الإلكترونية كالزوبعة. علّق بعض الأشخاص مباشرةً على عمودي الصحفي، واستمرّت النقاشات الساخنة في المدينة الأدبية ومواقع أخرى. من المؤكد أن بعض المشاركين فشلوا أو كانوا يتمنون أن يصبحوا كُتّاباً، ومن المحتمل أن العديد منهم، ومن بينهم ربّات أسر من اللواتي لديهنَ الكثير من الوقت. لقد أدانوا جو بينغ والكُتاب الصينيين والنُقّاد بشكل كبير، حيث أدرجوهم معاً تحت مُسمّى مجموعة المُفسدين الذين يعيشون مما يُقدمه دافعو الضرائب، ويتقاضون رواتبهم من الحكومة؛ ولذلك بإمكانهم أن يكتبوا معظم وقتهم ويحتفلوا فرحاً بإنجازاتهم. (في الحقيقة، فقط المئات من الكُتاب يتقاضون رواتبهم من مؤسسة الكُتاب الصينيين الآن، وغالبيتهم، خصوصاً الشُبَان والشابّات، عليهم أن يساعدوا أنفسهم).

ما زال، المُعلّقون الغاضبون يدْعون، بلا تمييز، الكُتَاب الصينيين بـ«الطفيليات»، ويدعونهم أيضاً بـ«العناصر الخاملة

من المجتمع»، وبعضهم طالب بحل مؤسسة الكُتّاب. بعضهم أكّدَ أن جو عشيق هايلي؛ وطالبوني بكشف حقيقة علاقتهما. «من هي يان هايلي هذه؟»، أحدهم سأل. «هي روائية مبتدئة لم يسمع أحد عنها من قبل. لماذا سافر ذلك المحرر الوقح كل تلك المسافة إلى نيويورك ليساعدها؟ من الواضح أن كليهما محتال وقح. لقد أصبحت النساء من البر الصيني الرئيس مُخجلات بشكل متزايد. بعضهنّ لا يُفكرْنَ مرتين قبل أن يبعنَ أنفُسهن، وبعضهنَ أصبحن محترفات في تخريب البيوت». أستطيع أن أقول بأن هذا القارئ الذي استخدم تعابير تقليدية ومعقّدة بدلاً من نص بسيط يكتبه الشيوعيون، من المؤكّد أنه من تايوان أو هونغ كونغ.

آخر أبدى رأيه قائلاً: «إنّ لمن المسلمات أنّ هايلي متأمركة مهووسة بالشهرة وجمع المال. عشتُ في نيويورك خلال فترة الهجمات، وكان لي جارة أمريكية، تجري مقابلات عبر الإذاعة، قالت بأنها كادت أن تُقتل في مبنى التجارة العالمي جرّاء أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وبالكاد تمكنت من الفرار لحظة انهيار البرج الأول. ولكنني رأيتها في المنزل في ذلك اليوم؛ لقد كانت تتشاجر مع مشرف المبنى الذي كنا نقطن فيه، ثم ذهبت لتناول الغداء مع صديقها السابق.

لا أستطيع أن أفهم لم يكذب الناس في ما يخص مشاركتهم في التراجيديا، كما لو أنه لشيءٌ رائع ومدعاة للفخر؛ أن يكونوا جزءاً منها». قال شخص ثالث: «معظمكم أيها الصينيون منافقون؛ لا تتطابق كلماتكم مع أفعالكم. لقد رأى العالم بأجمعه الفتاة التي تدرس بجامعة بيكنج؛ حيث كانت تتحدث ضد الولايات المتحدة حول شخصية بيل كلينتون حينما ألقى خطاباً في الحرم الجامعي، ولكن هل تعرفون ماذا فعلت بعد ذلك؟ لقد تزوجت من أمريكي أبيض يعيش الآن خارج هونولولو، وقد أنجبت مؤخراً طفلاً أمريكياً. العديد من النساء الصينيات مثلها، يملكن وجهين، ومنافقات، وأنانيات، مُستغلّات فرص، يفعلنَ أي شيء من أجل المال. بعضهنَ شيوعيات خُلّص، و الأخريات يسرن على الدرب نفسه». لقد أزعجني هذا النوع من الاستنكار، لأنني لم أقصد أن أتهم هايلي كمثال لامرأة صينية من اللواتي كنّ سيئات السمعة في أمريكا؛ لقد كانت مجرّد محتالة تافهة.

قدّرتُ من خلال شخصيات المعلّقين؛ أن هنالك أكثر من مئة رسالة قادمة من البر الصيني الرئيس. هذا يعني أن الناس هناك يتابعون القضية جيداً، ولن يصبح الأمر سهلاً بالنسبة لهؤلاء الثلاثة بأن يستمروا بتلك الحيلة أكثر من ذلك. العديد من القُرّاء هاتفوا جو بينغ وهايلي؛ مطالبين إياهما بقول الحقيقة

أمام الملأ. أحدهم حثّ جو لكي «يدافع عن نفسه»، أو أن يستقيل من منصبه قبل أن يتم طرده. التزم كل من هايلي وجو الصمت أمام هذا الوابل من الاتهامات، رافضين الإجابة عن الأسئلة التي تم طرحها من الصحفيين. حسب قول المراسلين، فإن هايلي لم تتمكن حتى من الرد على الهاتف.

على النقيض من توقعاتي، بعد أيامٍ قليلة، قام محررها، جياو فانبنغ، بإجراء مقابلة في مجلة نصفٍ أسبوعية وذات نسبة قراءة عالية مقرها في شينزين. أصرّ على أنه كان يتفاوض مع العديد من الناشرين الأجانب حول البنود الأخيرة من العقود، ولكن للآن لم يتحدث بالتفاصيل. قال: «برأيي، لا يوجد أي نسبة شك، ولو ضئيلة، بأن هذا الكتاب في طريقه ليصبح من أكثر الكتب مبيعاً على المستوى الدولي. أنا فخورٌ جداً بأنه تم إصداره، ولا أستطيع الانتظار حتى أشاركه مع القرّاء».

لقد أربكني عدم اكتراث جياو.

رفضت القنصلية الصينية طلب التأشيرة الذي قدّمته كيتي مرة أخرى. لقد كانت مصدومة؛ لقد كانت تخطط للذهاب في رحلة إلى الصين خلال عطلة الشتاء. لن تستطيع أن تكمل كتابها دون أن تجري مقابلات مع ضحايا مرض الإيدز في مقاطعة هينان. أخبرتها القنصلية بأنهم ما زالوا يقومون بتقييم

وجهة نظرها تجاه بلدهم، الأمر الذي أغضب كيتي كثيراً. إنها تحب الصين، لقد أصرّت على ذلك، وإلا لم تكن لتمضي كل تلك السنوات في دراسة الأوضاع الطبية في الريف الصيني. ضحكتُ نصف ضحكة وقلت: «ربما يجب أن ننفصل لفترة من الزمن حتى يتمكنوا من إصدار الفيزا لك».

«لقد وعدتني أن تذهب معي إلى هينان».

«سأكون سعيداً بذلك؛ إنْ استطعتُ الحصول على التأشيرة».

ولكن كلانا كان يعلم أن هذا غير وارد الحدوث الآن. كيتي ستكون قادرة على أن تسافر دوني، إنها تتحدث لغة الماندرين، ولديها بعض العلاقات مع بعض أعضاء الكلية في جامعة هينان.

كنا نجلس على الكنبة، حضنتها وقلتُ لها: «لا تقلقي بهذا الشأن كثيراً، سنتوصل إلى طريقةٍ ما». استلقت في الجهة المقابلة لي وأغمضت عينيها. شعرها النحاسي كان يلمع تحت الضوء المتلألئ. قالت: «أتعلم، حلمتُ الليلة الماضية بأن لدينا طفلين».

قلتُ لها متحمساً: «ماذا كانا؟».

قالت وهي تبتسم وترمش بعيناها: «طفلتين توأمين، كلاهما لديه فمٌ كبير مثل فمِك».

«ولديهما يدان وقدمان كبيرتان مثلك أيضاً».

وضحكنا، وبالرغم من ضحكاتنا، كنتُ أعلم أنها مترددة بشأن تكوين عائلة. أخوها الصغير مصاب بمتلازمة داون، ورأت كم من التضحية عليك أن تبذل حتى تصبح أماً أو أباً. شعرتُ بأن خوفها ملاصق لأعصابها. أحياناً في منتصف الليل تضع رأسها على كتفي وتتمتم شبه باكية «لا تتركني! عدني أن تبقى معي للأبد»، ولكن عندما تستيقظ في الصباح التالي؛ تبدو وكأنها لا تتذكر شيئاً مما قالته. لم أستطع أن أعدها بشيء، ولا أستطيع أيضاً أن أذكر لها ما كانت تهذي به في نومها. حالما تكون مخمورة أستحثها كي تتحدث بتلك الكلمات الشجية مرة أخرى، ولكنها فقط تتمتم «أنت تستغلني فقط، لن أستجيب لغرورك، عندما تنتهي من قضية هايلي بشكلٍ نهائي، سأخبرك بمشاعري الحقيقية». منعني هذا من محاولة اقتحام قلب كيتي مرة أخرى. في المظهر الخارجي، تبدو كيتي واثقة من نفسها، هادئة، ومرحة. أحياناً كان من الصعب أن أُخمّن بماذا تفكّر. لقد اعترفت لي في إحدى المرات؛ بأنه لو قام والداها بإرسال أخيها إلى مركز الرعاية الخاصة، كانت حياتهما ستكون أفضل، وكان من الممكن ألا يتحدثا بأمور الطلاق كما يفعلان كل يوم؛ المحامون، ونفقة الزوجة المطلقة، المنافع المتحصلة

من رقم الضمان الاجتماعي والتأمين. لقد كبرا وأصبحا لا يطيقان بعضهما البعض، لم يوقّعا أوراق الطلاق لأنهما يحبان ولدهما؛ ويريدان أن يعتنيا به في المنزل. أصبح عمر الولد الآن عشرين عاماً؛ ويفكر بالفتيات كثيراً.

كنتُ متأكداً أن كيتي مغرمة بي. من المحتمل أن توافق على الزواج بي إذا تقدمتُ لها، ولكنني لا يمكن أن أتخيل حدوث زواج دون أطفال. ما هو الهدف من أن نعيش مع بعضنا البعض لعقود دون تكوين عائلة؟ إذا قررتُ ألا أنجب أطفالاً، سأحطّم قلب والدي؛ ومن المحتمل أن يتبرآ مني، لذلك كنت غير مستعد للزواج من كيتي. سيكون لديّ أطفال في نهاية المطاف، وهذا بالنسبة لي نوع من الالتزام؛ شيءٌ أُدين به لوالدي. (لقد كان أبي معتاداً على الإلحاح عليّ دائماً: «لا تجعل اسم عائلتنا ينحدر وينتهي»). حتى الآن، ما زلتُ خائفاً من الحياة الزوجية؛ لقد كانت تتردد في عقلي كلمات بعض الأغاني المشهورة: «لماذا علي أن أحافظ على استمرارية سلالتي؟/ لماذا لا أستطيع أن أعيش حياة بسيطة؟/ أموتُ وحيداً بإرادتي...؟».

بين حين وآخر، تشعر كيتي بالغيرة قليلاً إذا تحدثتُ مع امرأة أخرى عبر الهاتف لمدة طويلة. في هذه اللحظة تشعر بعدم

الأمان، غير متأكدة إذا كانت قادرة على أن تعيش في نيويورك بشكلٍ دائم. دائماً تقول بلهجة ساخرة: «من المحتمل أن أرحل فجأةً في أي يوم»، أشك في حدوث ذلك؛ إنها تستمتع بليل هذه المدينة، وتذهب إلى الحانات مع أصدقائها على الأقل مرتين في الأسبوع. ذهبت معهم في مساء أحد الأيام، وكنتُ غاضباً من مباهاتها بالإنفاق على شرب الكحول، كل مشروب يكلّف ثمنه أكثر من تكلفة الغداء الذي أشتريه في أيام العمل. إنني أستطيع بصعوبة تخيلها تعيش في مدينة جامعية خاملة. إنها تحب المُدن بالتحديد، لأنها أمضت معظم طفولتها في القواعد العسكرية، ولم تكن لديها مدينة حقيقية تعيش فيها. ربما فقط مدينة واحدة كبيرة تشعر فيها بالراحة.

وعلى أي حال، فإنّ عليها أن تعمل جاهدةً لمدة سنة أخرى لتحصل على الترقية، حتى لو سار كل شيء على ما يُرام، وربما بعد ذلك يمكنها أن تفكر جدياً بمسألة الاستقرار. بالرغم من مظهرها الخارجي الودود، والذي يوحي بالاستقرار، كلما عرفتُ عنها أكثر، أدركتُ كم هي حزينة حياتها.

تخيلوا، امرأة جميلة صغيرة؛ قررت عدم الإنجاب لتحافظ على نفسها! لقد جعلني ذلك أشعر وكأننا نقترب من نهاية الجنس البشري.

أثناء ذلك، حصل شيءٌ مهم جداً بالنسبة لي، نشرَ موقع أخبار شهير في الصين، اسمه هارمونيس تايمز، لائحة بأسماء المرشحين لأفضل مئة من المثقفين الصينيين في سنة 2005. كان اسمي من ضمن تلك اللائحة الطويلة؛ محاطاً بأشهر الأسماء. تم جمع أسماء المرشحين من القاعدة الشعبية من مستخدمي الإنترنت، عرض الموقع الإلكتروني بعض التعليمات:

أولاً: يجب أن يكون المرشحون بارعين في مجالاتهم. ثانياً: يجب أن يكونوا مشاركين بأفعالهم وأقوالهم في الشؤون العامة والشعبية، وأن يكونوا أيضاً قد ساعدوا في تحقيق بعض التطورات الاجتماعية. ثالثاً: يجب أن يملكوا روح النقد التي تمثل بعض المبادئ؛ مثل: قول الحقيقة، العدالة، والمساواة. بالرغم من أن عدد المرشحين 159 في لائحة الأسماء، وكان هنالك تصويت من قبل العامة، لقد فاجأني ترشيحي واستحوذ عليّ. من بين المرشحين، كان اسمي مغموراً مقارنة بالآخرين جميعهم، ومن المؤكد كنت أصغرهم سناً. كيف تم تصنيفي من بين الاقتصاديين، والقصصيين، والقُضاة، وعلماء الاجتماع وأنصار البيئة، والمثقفين، والنُشطاء الاجتماعيين والكتاب المعروفين؟ بعض المرشحين كانوا من المُنشقّين المطرودين في شمال أمريكا وأوروبا، وبعضهم قضى بعض الوقت في السجن؛ بتهمة إجراء خطابات ضد السلطات.

مات أربعة أو خمسة أشخاص منهم، أحدهم دُفِنَ في مانيتوبا، بالرغم من إقامة قبر أجوف صغير له في مدينته الأساسية في مقاطعة هوبي من أشقائه وأصدقائه.

هنأني جميع زملائي وصافحني القليل منهم، قائلين بأنني سأحصل على العدد الكافي من الأصوات لأبقى على اللائحة الأخيرة. «هذا شيءٌ مذهل» قال لوشينغ، وهو يفرك ذقنه ذا اللحية الخفيفة، «فكّر في الاحتمالات؛ من أصل 1.3 بليون شخص صيني، ترشحت أنت. شيءٌ مذهل. لقد أصبحت مشهوراً يا دانلن».

أجبته بتواضع: «إنها رمية من غير رامٍ. يا لحظي الجيد».

ربّت كاي مينغ على كتفي وقال: «تهانينا يا دانلن، تابع التحدث دون خوف. الصينيون يقفون إلى جانبنا».

أدركتُ أنه من المؤكّد أن كل ما كشفته قد وصلَ إلى عدد من الجماهير في موطننا أكثر مما كنتُ أتوقع. في السنوات الأخيرة قمتُ بنشر عدد جيد من الأعمدة الصحفية حول فساد المسؤولين، والمشهورين والمناسبات التاريخية، وضحايا تيانانمين، والزوجات اللواتي كُنّ مجبرات على قطع مسافاتٍ طويلة من أجل زيارة أزواجهن: المسجونين منهم الذين كانوا مُنشقين سياسياً، والمهاجرين في شمال أمريكا. قابلتُ الدلاي

لاما في مجلة الأسبوعية العالمية، مجلة باللغة الصينية تُنشر في نيويورك، وبعد ذلك تم نشر المقابلة إلكترونياً. كنت الرجل الصيني الأول الذي أجرى مقابلة مع قائد التبت منذ أربعين عاماً، وأوضحت مقالتي أن الدلاي لاما لم يكن أبداً يبحث عن استقلال التيبت، الشيء الذي كان يريده؛ هو تسامح أكبر تجاه ديانتها وثقافتها المحلية، واستقلالية أكبر لمواطنيها. أشعلت مقالتي نقاشات حيوية بين الصينيين، الذين تم إخبارهم منذ أن كانوا أطفالاً أن الدلاي لاما كان شخصاً رجعياً، وأنه عبارة عن لعبة بيد الاستخبارات الأمريكية المعادية للصين.

نشرتُ أيضاً مقالة مطولة عن ارتفاع أسعار العقارات في المدن الصينية. أشرتُ إلى أن الزيادة المستمرة حدثت بسبب الاحتكار الحكومي الكُلّي للأراضي؛ قامت الحكومة ببيع الأرض للمطوّرين العقاريين بأسعار باهظة، ونُقِلت ملكيتها للسكان كزبائن (هؤلاء الذين كان مسموح لهم بأن يستخدموا الأرض لسبعة عشر عاماً فقط). كنتيجة لذلك، أصبحت العقارات المحور الرئيس لأرباح الحكومة، وكان المستثمرون هم مصدر الفساد والاستغلال، بالتواطؤ مع المسؤولين لجني الأرباح. طرحتُ سؤالاً في المقالة: «من فوّضَ الحكومة بأن تملك كل قطع الأراضي وأن ترفع أسعارها؟، ومن هي الحكومة؟، من وكّلها أن تسلب المواطنين حقوقهم؟». يقول كونفوشيوس:

«الحكومة المتوحشة أكثر تدميراً من نمرٍ مفترس». تابعت: «إذا استمررنا بالسماح للحكومة بسرقتنا، سيلتهمنا هذا الحيوان الشره عاجلاً أم آجلاً. من ربّى ذلك الحيوان؟ لماذا علينا إطعامه وجعله يكبر حتى يصبح وحشاً؟ هل هناك طُرُق لكبح جماحه والسيطرة عليه؟ أنا أعتقد أن الحكومة يجب أن تكون كالكلب الحارس؛ بدلاً من النمر المفترس، ويجب أن تكون مطيعة لمواطنيها». مرة أخرى، حثّت هذه المقالة ظهور عدة نقاشات قوية، حيث جادل بعض الأشخاص في ما إذا كان يجب استرجاع الملكية الخاصة للأرض في الصين؛ ستكون هذ طريقة فعّالة لتطويق الفساد المنتشر، بعضهم أصرّ على ذلك، بالرغم من أنني لم أكن متأكداً أن هذا هو الحل الأمثل. إذا تم السماح بالملكية الخاصة للأرض، يجب أن تتم صياغة قوانين لإحباط المضاربات التي قد تحدث.

الآن بهذا الترشيح، أستطيع أن أرى أن الناس يقرأون كتاباتي ويشكلون آراءهم حولها. كم أنا ممتن لتكنولوجيا الإنترنت المدهشة، والتي بدت وكأنها قارب النجاة الذي تركبه الصين، والذي لا يمكن إيقافه. بقيتُ أتغنى بهذا مع نفسي: يمكنك بواسطة الإنترنت أن تقتحم حواجز المراقبة؛ لتصل عشرات الآلاف من القُرّاء خلال ساعات، ومن خلاله لن تبقى معتمداً على وسائل الاتصال التقليدية المُحتكرة من

قبل الحكومة؛ باستطاعتك أن تصنع الجلّبة وتنشر الحقيقة وتجعلها مكشوفة للأغلبية الخائفة من السلطة، وتستطيع أن تعبّر عن الأفكار المحبوسة في قلوب الكثيرين؛ والتي لا يتجرؤون على الإفصاح عنها. بإمكان الإنترنت أن تمنح كل فرد صوتاً، وكل ظالم خوفاً وهلعاً. إنها تجعل من كل جهاز حاسوب مشروع محطة إذاعية.

طوال اليوم كنتُ أستقبل ملاحظات التهنئة. فاجأتني إحداها، لقد كانت من نيا، كتبت: «أهنئك بمناسبة ترشيحك لقمة المفكرين! أترى؟ إنها مكافأتك على ترك آخرين يتلوون ألماً. رغم ذلك، فأنا متأثرة حقاً بترشيحك».

أجبتها فقط: «شكراً».

لم تكن لديّ فكرة كيف أستطيع أن أتفهمها؛ فهي لا تبدو غبية. لماذا أصبحت متورطة في رواية الحب والموت في ديسمبر؟ على الرغم من امتنانها لهايلي، لم تكن بحاجة أن تتبعها بإخلاصٍ أعمى.

هل تحتقرني نيا في داخلها؟ هل كتبت لي تلك الكلمات لتسخر مني وتُغضبني؟ أو لتكتشف نواياي؟ قالت لي كيتي بأنني يجب أن آخذ هذا الترشيح بجدية؛ لأنه من الممكن أن يؤدّي إلى أشياء أخرى. كما في المجال الأكاديمي، حيث إذا

كانت لديك منحة؛ ستكون مؤهلاً للحصول على التمويل، تعتقد كيتي بأن ترشيحي سيفتح لي الكثير من الطرق والفرص في مهنتي.

عندما ذهبتُ لأمضي يوم الأحد معها، أخذت كتابين من المكتبة التي بنيتُها لها مؤخراً، وسلّمتهما لي بغمزةٍ من عينها. قالت: «عليك قراءة هذين الكتابين، سيساعدك ذلك أن تفهم دورك الجديد».

أحد الكتابين كان عبارة عن مجموعة من المقالات لنعوم تشومسكي، والآخر هو بضع محاضرات بعنوان «المثقف والسلطة» لإدوارد سعيد. أعرف اسمي هذين المؤلفين، ولكن لم أقرأ لهما شيئاً من قبل. تصفحتُ أحد الكتابين، ورأيتُ بعض التعليقات الهامشية بخط كيتي المُنسّق.

سألتها: «هل هذان الكتابان جيدان؟».

«بل رائعان».

«إذن سأقرأهما من الصفحة الأولى للأخيرة».

عادةً لا أنهي كتاباً إذا وجدتُه مملاً. أيضاً لديّ عادة بقراءة الكتب بشكلٍ عكسي، فصلُ واحد لمرة واحدة، لأعرف بماذا تنتهي تلك الكتب، لأتأكد أنها تستحق جهدي في

قراءتها. ولكن أنا أثق برأي كيتي. إنني أشعر بقيمة علاقتنا كيف تجعلني على تواصل مع العالم الأكاديمي، عالمٌ من الأفكار والكتب والفنون والممارسات الفكرية؛ والتي تبدو لي استثنائية وبعيدة عن متناول يدي.

بالرغم من أن ذلك العالم مليء بالسياسة، والنزاعات، والخلافات، يستطيع الشخص أن يجد الحرية بشكلٍ أكبر هناك.

الفصل الثالث عشر

بحلول منتصف شهر أكتوبر؛ كنتُ قد قرأت كتابي سعيد وتشومسكي. أعجبتُ بوجهات نظرهما ونقاشاتهما، ولكن تفاجأت قليلاً بطريقة كتابتهما؛ بدا حس كتابة المقال لديهما ضعيفاً، كانت معظم النصوص غير مكتوبة بعناية تامة من ناحية الأسلوب، وبعضها كان فيه نقص لناحية الشكل والهيكل.

في كتاب إدوارد سعيد، هذا النقص يعود لطبيعة تلك المقالات؛ فقد كان أصلها حلقات لمحاضرات مُسجّلة عبر إذاعة البي بي سي، طول تلك المقالات كان محدداً بنصف الساعة المُسجّلة عبر تلك الإذاعة. ولكن أفكار ووجهات نظر كلا المؤلفَين كانت مُتجَذّرة في روحيهما المستقلَين، وارتباطهما المتواصل مع العالم. كانت نقاشاتهما للمواضيع الحالية تُعجّل وتُكثّف من كتابتهما النثرية. كلاهما كانا باحثين جدّيين ومميّزين في مجال أبحاثهما. لكن كنتُ أشكُ في كون أي منهما قد رفض أية فرصة قد تنقلهما إلى مركز السلطة

السياسية، فلنقل، كالإشراف على وزارة رئيسة في الحكومة الأمريكية. يستطيع الشخص أن يتقدَم في الساحة السياسية تحت بند «اقتحمْ هذا المجال وشكّل فرْقاً». لذلك؛ فالعديد من المفكرين ينتقدون السلطة بشكلٍ حماسي، خصوصاً عندما يكونون غير مقتحمين للمجال السياسي، ولكن حالما يصبحون جزءاً من تلك القاعدة، يتحدثون ويتصرَفون بشكلٍ مغايرٍ تماماً، وحتى شخصياتهم تختبر هذا التحول، القليل منهم فقط يمتلكون الأمانة ليبقوا فوق مغريات السلطة.

أعرف عدداً من الصينيين المقيمين في شمال أمريكا ممن أصبحوا مُنشقّين، والسبب الرئيس هو أنهم فشلوا في الحصول على مناصب مناسبة في المجتمع الشيوعي. بعضهم لا يزال يحلم بأن يصبح رئيساً لجامعة صينية أساسية، ومنصب كهذا يساوي إدارياً منصب نائب وزير. وقلة منهم، المنشقون منذ زمنٍ طويل، كلّما التقيت بهم في نيوجرسي أو كونيتيكت، كانوا يتذمَرون من أنهم لا يملكون رعاية طبية مجانية كالمسؤولين في موطنهم الأصل؛ إنهم يعتقدون أنه كان يجب على الصين أن تدفع مبالغ فواتيرهم الطبية هنا. كان هذا مستحيل الحدوث، لذلك كانوا يشعرون بالاشمئزاز من الولايات المتحدة، أغنى بلد في العالم، التي تجبر مواطنيها على دفع تأميناتهم الطبية الخاصة بهم. أحدهم ذهب بعيداً بادعائه أن الولايات المتحدة

انتهكت حقوق الإنسان، لأن التصريح العالمي للأمم المتحدَة لحقوق الإنسان؛ تعهد بحصول كل شخص على الرعاية الطبية.

كلَما فكّرتُ بهؤلاء الرجال، يمتلئ قلبي بالشفقة والازدراء. العديد منهم مثل المسافرين المصابين بالدوار، الذين هجروا سفينة السياسة، ولكنهم ما زالوا يتخيلون أنهم على متنها مع أقرانهم السابقين. لا يمكنهم أن يهينوا جذورهم، ولا يمكنهم أيضاً أن يتخيلوا الحياة دون وطن أو انتماء. إنهم يعيشون في أمجاد الماضي وسُحُب الذكريات. انشقاقهم لم يُغيِر من نفسيَتهم؛ ما زالوا مهتمين بالسياسة بشكلٍ كبير.

لستُ إيجابياً لدرجة يمكنني معها أن أقاوم إغراء عرض كبير من الصين؛ والحصول على وظيفة على هذا الأساس؛ سيضمن أن تكون برتبة عالية، وهذه تضمن بدورها حياة آمنة ومريحة. فقط عليك أن تعمل لعقدٍ أو ما شابه ذلك، احرص على اتباع أصحاب النفوذ المناسبين، وتجنب أن تدوس أصابع أقدام أحد، وسيعتني بك الحزب لبقية حياتك. لديّ عم غير وثيق القرابة، جنرال متقاعد، لا يزال يستلم راتبه الشهري بشكلٍ كامل. «في الحقيقة إنه يستلم مقابل ثلاثة عشر شهراً في السنة، لأنه كان منضماً للثورة خلال الحرب اليابانية الصينية». ويحصل أيضاً على حليب

وخضار مجاني كل يوم، وتذاكر للمسرح والأفلام، وأربعين جالوناً من الوقود كل شهر (خوّلته رتبته استخدام سائق يقود سيارة من نوع أودي بشبابيك مظللة)، معاش شهري دوري مماثل لعوائد أي عامل مقيم ومخصصات لخادمة. لم تهتز ثقة الناس به في الحزب. في زيارتي الأخيرة له، قبل ثلاث سنوات، كان يهذي حول ميزة قناة الصين الفريدة، والتي تربط بين حكم حزب واحد واقتصاد السوق الحر. بل وإنه حتى يعتقد بأن الصين أصبحت نموذجاً للدول النامية الأخرى، وبديلاً للديمقراطية الغربية، والتي من الممكن أن تتجزأ بسهولة لوطن مستقل من وجهة نظره، دولة من العالم الثالث لا يمكنها ببساطة أن تصنع الديمقراطية، والتي كانت بمثابة الدواء القوي الذي لا يستطيع كل الأشخاص أن يهضموه. انظر ماذا حدث لروسيا!

قد تعني الديمقراطية نهاية الحزب وفساد البلد. لذلك علينا أن نكافح لنوقد شعلة «الطريق الصيني». لقد كان مقتنعاً بما يسمى «الممر الصيني»، لدرجة أنه طردني من منزله حين طرحت رأياً معارضاً.

جعلتني أرى تلك الزيارة؛ كيف تلعب المنافع والمصالح بالمبادئ.

يمثل الحزب دور المشرف على المخزن الكبير، حيث يكون على السكان أن يشاركوا بجزء من دخولهم. فقط المشرف هو من يحدد من سيحصل على أي شيء من المخزن. صاحب الامتياز والقوة؛ هو من يحصل على حصّة الأسد، بينما يجب على بقية السكان أن يغلقوا أفواههم عن التوزيع غير العادل، لأن دورهم ـ ببساطة ـ أن يقوموا بواجباتهم تجاه خزينة الدولة. كل الصراعات الدموية، جميع الخطابات الفخمة حول ضرورة الاشتراكية الاستبدادية (نظامٌ آخر أكثر ظلماً من الرأسمالية)؛ أوجزت بالتالي: كل شخص يريد أن يؤمّن الحق بحصة شخصية أكبر من المخزن.

جميع الرُتب والتعيينات عبارة عن شهادات للحصول على أحجام مختلفة من الحصص. ماذا سيحدث إذا اشتعل هذا المخزن أو تدمر أو تغيرت السلطة الحاكمة؟ هذا هو أصل الخوف المشترك من قبل كل هؤلاء الذين يستلمون مؤناً كريمة من هذا المخزن، ولذلك يقاتلون بكل ما يملكون ليحافظوا على حكم الحزب الواحد، ويخلّدون الكذبة التي تشير إلى أن المشرف يعمل بِجِد من أجل جميع المواطنين. لو أنني أستطيع أن أبيع روحي دون تأنيب الضمير. لو أستطيع أن أكون سعيداً بلا شيء أكثر من طعام ومشروب جيدين.

لو أنني بقيتُ طفلاً مطيعاً أو أحمقاً وساذجاً سريع التصديق لأي شيء. لو أنني كنتُ متخصصاً في الحيل والألاعيب الإدارية، لكانت شخصيتي مصقولةً أكثر، ومتكيفة مع من حولها أكثر، لو أنني فقط كنتُ رجل دولة لا يخاف وأعصابه من حديد، أرتدي سترة من الوطنية، واقية ومريحة!

الحقيقة هي أنني عندما كنت أمرّ بمرحلة إجراءات التجنيس، كنتُ أعلم أنني سأتخلى عن أي فرصة للارتقاء في طبقة الموظفين في الصين؛ لأصبح رجلاً ذا شأنٍ كبير فوق عشرات الآلاف من الأشخاص، وأن أمجّدَ أسلافي الأولين. أن تكون رجلاً حرّاً؛ يعني أن تكون واعياً لمبادئ شيوعيتيك، وكسب طبقك من الأرز من عملك الخاص، وأن تكون مسؤولاً عن نفسك وجسدك وروحك، وأن أتقبل الخسارات، والشك، والعزلة، والحزن كصفة للإنسان.

أعطتني كيتي أيضاً نسخة من كتاب ميشال فوكو؛ الذي قرأتُ منه بضعة أجزاء؛ ومن ثم توقفت. على الرغم من إعجابي بذكاء الفيلسوف وبفصاحته الثاقبة، كنتُ مذهولاً بكتاباته؛ ربما لم أكن ذكيّاً كفايةً لأعرف ما هي نواياه، حاولت بقدر ما أستطيع، لم أجد أي متعة في تهكمه وبانعزاله عن العالم الذي نعيش فيه.

الأشخاص من الخلفية الصينية مثلي، لديهم إحساس قليل بالهوية، في الحقيقة كلمة الهوية غريبةٌ عنّا، وما زلت لا أعرف بالضبط كيف أترجمها إلى اللغة الصينية. بإمكاني أن أقرّبها بربط بعض المصطلحات ببعضها، كلٌ منها يغطي جزءاً من الكلمة الإنجليزية، مثل التشابه والتمييز والحالة، ولكن لا يوجد كلمة حقيقية مُساوية لها. إن غيابها عن مصطلحاتنا؛ ربما يشير إلى عيب في درجة إدراكنا لأنفسنا، تماماً كعدم وجود كلمة لحم الخنزير عندنا، لأنه لا يوجد مثل هذا المنتج في المطابخ الصينية.

(كلمة أخرى غير موجودة أيضاً عند الصينيين، هي الانعزال؛ ولذلك، عادةً ما نخلط بين الانعزال والوحدة، وهي حالة ملعونة؛ محورها أن تكون غريباً مصاباً بوعكة صحية، حيث يقول لك الناس: «سينتهي بك المطاف وتصبح وحيداً»، أو «أحب تلك الرواية الرائعة للكاتب غارسيا ماركيز، مئة عام من الوحدة»). عندما نكبر، نكون قد تعلّمنا أننا نحن الذين نجعل لحياتنا معنى وقيمة، من خلال خدمة الأشخاص والوطن، بأن يكون الشخص الجيد يؤثِر غيره على نفسه، وأن يفكر فقط في مصلحة المجموعات الأكبر. عندما كنتُ في الجامعة؛ كنتُ مختصاً بدراسة الصحافة، وبعد التخرُج عملتُ

في جريدة حكومية. كانت وظيفتي كمراسل، هِبةً قبلتها دون تردد، وكنت ممتناً لذلك.

كان معظم من هم من جيلي يقاتلون للحصول على تلك الوظيفة. حاولت أن أعمل بجدٍ، وأن أكتب جيداً لأحقق الحرفية التي أطمح إليها. بالرغم من ذلك، لم أُحدث تأثيراً كبيراً، لأنه لم يكن لديّ رأيٌ في أي شيء تَمت طباعته. كالآخرين، لم يكن لديّ صوت وكلمة خاصة بي، كنتُ على الأغلب مثل برغي أو صامولة في آلة ضخمة جداً.

سبّبَ ترشيحي للقب المفكر الجماهيري؛ انفجاراً في داخلي، وأصبحتُ أفكر في هويتي. تفتّحت في عقلي آفاق كثيرة من الاحتمالات، ولأول مرة في حياتي، تطلّعتُ لأن أكون شخصاً ما، وأن أصنع هويةً لنفسي؛ لأكون ملائماً لذلك الترشيح. علمتُ أن الناس قد رشّحوني؛ ليس لأنني متعلِم وذو خبرة، ولكن لأنهم كانوا يرغبون بصوتٍ صادق قادر على أن يفصحَ عن مشاعرهم وآرائهم أمام العلن. رجلٌ بسيطٌ مثلي، من المؤكد أنه ارتقى بالمصادفة لمستوى توقعات الجمهور الخائف والمضطّهد والصامت. لقد شعرتُ بعدم الارتياح لفكرة أن أكون المتحدث الرسمي باسمهم، ولكن كنتُ أريد أن أكون صوتاً مسموعاً من قِبل الآخرين. بشكل

مثالي، كنتُ أرغبُ أن أكون مستقلاً عن أية مجموعة أو أية حادثة، كنتُ أريد فقط أن أتحدث من صميم قلبي، تُرشدني حواسِي ولباقتي. ولكن كيف أستطيع فعلُ ذلك؟

بقيتُ أفكّر بتلك الأسئلة لمدة أربعة أيام من أحداث حياتي. في تلك الأثناء، كانت الإشاعات حولي قد بدأت تتنقل في المواقع الإلكترونية، وعلى وسائل الاتصال الاجتماعي، وفي مجموعات التعليقات في صحيفة منبر أمريكا الشمالية، كما ادّعى أحدهم أنني أكره النساء، وأنني قلتُ ذات مرة لمذيع في التلفاز؛ بأن النساء الصينيات مادّيات ومغرمات بالرجال البيض.

لم أظهر على التلفاز، ولم أتحدث يوماً إلى أي مذيع. أصرّ شخصٌ آخر على أنني من أتباع آين راند «الفيلسوفة المُزيَفة وصاحبة النظام الفلسفي المُسَمّى بالموضوعية». والتي لم أقرأ كتُبها يوماً، كلّ ما أعرفه عنها؛ أنها كانت مهاجرة روسية أمريكية. قال شخصٌ ثالث، مرِوّج إشاعات كاذبة، مؤكّداً أنني كنتُ دائماً أدعم انشقاق التبت وتايوان عن الصين. صرّح قائلاً: «بصفته خائناً لبلدنا، يجب انتخاب فينغ دانلن كعدو جماهيري، وليس كمُفكر جماهيري، إذا داست أقدامه الصين مرَة أخرى، يجب على الحكومة أن تزُجه بقوة في السجن أو

في مصحة عقلية للمجانين». وافقه شخصٌ آخر قائلاً «نعم، من الأفضل لهم أن يقضوا عليه كالحشرة». وحتى إن امرأة قالت: «إذا كنت مغرمة برجل أبيض أو رجل أسود، فتلك حريتي الشخصية، وليس لأحد الحق في التدخل».

لأول مرة كنتُ أختبر مذاق الشهرة، والذي جعلني أرى أن الشخص المشهور يجب أن يتحمّل الضغط والإساءة من الجمهور، وتفهمت سبب تمسك المشاهير بخصوصياتهم، لأن أية مشكلة أو عيب يظهر في حياتهم أو شخصياتهم؛ سيكون مبالغاً به من الجمهور، بينما تبقى معظم فضائلهم مجهولة وغير معروفة.

أخبرني كاي مينغ ذات مرة؛ بأن أكبر عيب في العالم هو أن يكون الشخص مشهوراً! كما لو أن القول إنّ فلاناً شخصية مشهورة؛ يكافئ أن لهذه الشخصية عيوباً جذرية عميقة!

هذا صحيح، حضرتُ العديد من الاجتماعات المُنظمة من قِبل التيبيتيين والتايوانيين الذين يقيمون في نيويورك، وفي إحدى المناسبات وقفتُ لأتحدث عن رأيي، ولكن لم أقل أبداً بأنني دعمتُ أي مجموعة تريد الانشقاق عن الصين. لقد أخبرت الحضور، الذين كان بعضهم مغفلين، ووطنيين بأسلوبٍ متطرِف، بأننا لسنا مُخوَلين بأن نتدخل بخيارات

الآخرين. إذا قرر التيبتيون والتايوانيون الاستقلال، فإنه خيارهم إذن، ومن الأفضل لنا نحنُ الصينيين أو الأمريكيين؛ أن نغلق أفواهنا حول الطريقة التي يريد أن يعيش بها الآخرون. كنتُ أتساءل أيضاً حول مبدأ الاتحاد الوطني، القائم على الافتراض بأنه كلَما كانت الدولة أكبر؛ استفاد منها مواطنوها بشكل أكثر. تساءلت: «ولكن ماذا لو كانت الدولة الأكبر؛ تجعل من حياة مواطنيها مأساوية أكثر، فقط لا غير؟ إذن كيف يمكن تفسير هذا الاتحاد؟. لماذا لا تتجزأ الدولة إذا كانت الدول الأصغر تُحسّن من حياة الناس؟».

يجب تبرير وجود دولة كبيرة ذات أعراق متنوعة للمواطنين، وإلا ستفشل عاجلاً أم آجلاً. دون هذا التوضيح، هذا الاتحاد، لن تضمن الدولة الكبيرة شيئاً؛ عدا خزينة أكبر للدولة؛ يستطيع أن يسرق منها المسؤولون الفاسدون أكثر، ويستطيع ذوو الامتيازات أن يستهلكوا أكثر».

أشاد التايوانيون والتيبتيون بملاحظاتي، واعتبروني متعاطفاً معهم. (في إحدى المرات وقف رجلٌ من الحضور كان يجلس القرفصاء؛ وصرخ بصوتٍ مُدوٍّ: «أنا أتفق كلّياً مع السيد فينغ دانلن، العديد من مشاكل الصين في الواقع، أتت مما يُدعى الاتحاد الوطني. إن الحكومة الصينية تُبرر دائماً

سياسة الطفل الواحد القاسية؛ بالإصرار على أن الدولة لا تستطيع أن تحافظ على الـ 1.3 بليون نسمة مدةً أطول، لذلك يجب أن نسيطر على تعدادنا بشكلٍ صارم، بعدم السماح لكل عائلة أن تنجب أكثر من طفلٍ واحد. ولكن ماذا لو تجزأ الصين إلى دويلاتٍ أصغر؟ من المؤكّد أن هذا سيحل تلك المشكلة السكانية. فكّروا باليابان وفيتنام وكوريا؛ إنها جميعاً دول مُكتظّة بالسكان، ولكن لا أحد في العالم يتذمّر من أن تلك الدول لديها عدد كبير من السُكان».

وجّه بعض الحضور الغاضبون صيحات غضب واستهجان لذلك الرجل، ولكن لم يهتم لتعابيرهم، وبقي متعمداً واقفاً على قدميه لدقائق إضافية. بالطبع، كانت وجهات نظري التحرُرية تُزعج أبناء بلدي، خصوصاً أولئك من البر الصيني الرئيس. بأفضل الأحوال، كانوا يعتبرونني غير عمليٍ ومتهوّر.

ولكن على النقيض من بعض المُنشقّين، الذين يؤمنون باستعمال القوة للإطاحة بالدكتاتورية، رفضتُ الاستعانة بالعنف؛ الأمر الذي كنت أخشى أن يُخلّد الخراب وسفك الدماء.

أجاب العديد من الأشخاص على الإشاعات التي ظهرت حولي، وعبّروا عن شكوكهم حول ترشيحي كأفضل مفكر

جماهيري. بعضهم قال بأنني من الممكن أن أكون متطرفاً جداً أو جدلياً إلى حدٍ كبير، آخذين بعين الاعتبار وجهات نظري حول الصين والنساء. بعضهم اعتقد بأنني أفكّر وأتصرف كالرجل الأمريكي؛ فردي النزعة، أناني، دون أي إحساس بالذكريات المتوارثة. حتى إن أحدهم كتب ملاحظة يقول: «صدقاً، إن فينغ دانلن يستفزني عادةً، كتابته ينقصها النور والتفاؤل. لماذا لا يكتب حول بعض الجوانب المتفائلة في الحياة؟ لماذا على الكاتب أن يُحبط الناس ويثير غضبهم دون توقف؟ عليه أن يسترخي قليلاً وأن يتملك حس الفكاهة».

يجب أن أعترف بأن القبول الأعمى لدى هؤلاء الأشخاص لتلك الإشاعات؛ أساء لي وأزعجني أكثر من تلك الافتراءات بحد ذاتها، لقد جعلني ذلك أشعر بأنني أواجه مجموعة من الرُعاع المجانين.

الآن، تساءلت، من يكون هؤلاء المروجون لتلك الإشاعات؟ أول المشتبهين لدي، كانت نيا، لأن أغلب النقاشات حول ترشيحي كانت منتشرة في صحيفة منبر شمال أمريكا، والتي تديرها هي. أخذتُ نفساً عميقاً وهاتفتها، ولكن لم تكن موجودة في مكتبها، لذلك تركت لها رسالة.

عاودَت الاتصال بي في ذلك المساء، حالما سمعتُ

صوتها، قلتُ لها بخشونة: «لماذا كذبتِ بخصوصي؟ متى وأين دعمتُ تجزئة الصين؟ متى وأين قلتُ بأن النساء الصينيات ماسوشيات، وأنهن مغرمات هائمات، متى وأين سخرتُ من النساء الصينيات ووصفتُهنَ بـ «شطائر اللحم»؟ بعد كل هذا، أمي وأختي هما صينيتان».

قالت نيا: «توقف يا دانلن، ما كان عليّ أن أنخرط في هذا الأمر كلّه منذ البداية، لم أتوقع أن تتحول الأمور إلى هذا الحد من البشاعة، وأن تصبح مسيّسة لهذا الحد».

قلت لها: «لم تجيبي عن أسئلتي بعد».

«لم أقل شيئاً مما ذكرته. ساعدتُ هايلي في البداية فقط؛ لأنني كنت أعتقد بأنك مصمم على تدمير زواجها. ما زلت تفعل ذلك، أليس هذا صحيحاً؟».

«أنا أفعل فقط ما يجب عليّ فعله».

«لأخبرك الحقيقة، من المحتمل أن زواجها في طريقه للفشل؛ لقد رحلت للتو..»

قاطعتها متسائلاً: «هل انفصلت هي ولاري؟».

«لم أتحدث معها بعد، ولكن هكذا يبدو الأمر. بإمكانك أن تحتفل الآن».

«كلا، أنا لستُ سعيداً بسماع ذلك. هل بإمكانك أن تتوقفي عن نشر الإشاعات حولي؟».

«لقد أخبرتك؛ أنا لستُ مشتركة بذلك بعد الآن. لا أريد أن أشترك بالأمور السياسية. إنها بشعة ومثيرة للجلبة. أنت تعلم بأنني أكره الكثير من سياسات الحكومة الصينية. في اللحظة التي رأيت بها هايلي وشركاءها يستخدمون السياسات الوطنية لمهاجمتك، قلت، حان وقت الانسحاب. هناك خطوط لا أتجاوزها أبداً».

«أنتِ لم تعودي ضدي إذن؟».

«أنا في موقفٍ مُحايد منذ الآن».

«كيف لي أن أُصدّقكِ؟».

«حسناً، دعني أُخبرك بهذا: أنت لن تكون قادراً على إيقاف الرواية من أن تكون من أفضل الكتب مبيعاً. إن الناشر لديه الكثير من الدعم الإداري. إن والديه يملكان نفوذاً لا يحد في بكين. لو كنتُ في مكانك، سأستسلم وأدع هايلي تذهب. كل شيء قمتَ بفعله لن يداوي جراحك القديمة».

«حسناً، أنا أسمعك. هل تستطيعين أن تُؤكّدي لي أنك لن تتدخلي في هذه القضية بعد الآن؟».

«حسناً، أعدك».

أسعدني ذلك، وأبهجني. عرضتُ عليها أن أستضيفها لتناول القهوة أو الغداء في العطلة الأسبوعية القادمة. ضحكت وقالت: «لا ترشِني. لن أفعل أي شيء ضد هايلي أيضاً، ما زالت صديقتي. ولكن لا أُمانع في تناول فنجان من القهوة معك في صباح يوم السبت».

«هذا عادل». أردتُ أن أمضي معها بعض الوقت لأعرف المزيد عن خطط زوجتي السابقة. أو بتعبير أفضل، لأعمل حول ضربةٍ مُضادَة.

شعرتُ بالراحة بعد أن أقفلتُ سماعة الهاتف. إذا لم تعد نيا متورِطة في ذلك، أستطيع التركيز على هايلي والرجلين اللذين يعملان خلفها. بدأت بصياغة مسودّة حول عمودي الصحفي التالي؛ مقالة حول المنحطين الثلاثة، وكيف كانوا يقومون بصياغة الأكاذيب عني؛ بنية تخويفي إلى أن أصمت.

الفصل الرابع عشر

نشرت هايلي مقالة في صحيفة منبر شمال أمريكا، تحت اسم مُزيّف: أورورا بوريلس، لقد وصفتني بـ«شخص مصاب بجنون العظمة ومضطرب نفسياً، ومكانته الحالية أكبر منه شأناً؛ شخص متكلّف، شخصيته توضّح معنى الكراهية والحقد». وأضافت أيضاً أنني لم أستطع أن أمضي يوماً دون تشويه سمعة الآخرين، وأنني أملك قدراً من الضغينة يستطيع أن يسمم مدينة بأكملها، وأنني لا أعرف أن أفعل شيئاً سوى تدمير أي شخص أفضل مني. كتبت هايلي: «هذا معقول، جميعنا يستمتع برؤية الآخرين يفشلون، لأن الفشل المذهل للشخص الآخر؛ بإمكانه أن يكون عزاءً لعدم كفاءتنا ولإمكاناتنا المتوسطة».

(لم تستطع أبداً أن تتخلى عن إدمان استخدام الكلمات المزخرفة)، «إنه جاسوسٌ يبعدُ أنفه الطويل حوالي ميلاً عن وجهه. إنه من هذا النوع من الرجال الذين يفعلون أي شيء للحصول على خمس دقائق من الشهرة. إذا أراد أن يكون

مشهوراً لمدة أطول، فيجب عليه أن يُلقي بنفسه، مأسوفاً عليها، تحت قطار، بعد أن ينتهي من كتابة أي كتاب. أنا متأكدة أن بعض الناشرين سيشفقون عليه ويطبعون الكتاب ويستخدمون موته كوسيلة للترويج لذلك الكتاب».

ثم ذكرت هايلي عموداً صحفياً كتبته من قبل حول اعتقال امرأة حدث مؤخراً، اسمها «رأس الأفعى»، وكان ذلك اسماً مُزيّفاً للأخت ليانغ التي أسست حلقة تهريب في وسط المدينة في الصين، لتحضر المهاجرين غير القانونيين للداخل. صرّحت هايلي بأن مصيري سيكون أن تسحبني جراً، في يوم من الأيام، المخابرات الفيدرالية أو مركز الأمن الوطني، إذا استمررتُ في التدخل بشؤون الآخرين». وختمت قائلة: «ربما ينتظره النفي أو الترحيل».

لم أهتم بأن أرد لها الهجمة. أجبتُ فقط بجملة واحدة أسفل مقالتها في الموقع الإلكتروني لصحيفة منبر شمال أمريكا: «إن ذاتي أرفع قدراً من قذارة يان هايلي وأتباعها».

القصة التي أشارت إليها، اعتقال الأخت ليانغ، كان تحقيقاً آخر كنتُ أُجريته مؤخراً، وسأستمر بالكتابة عنه، بغض النظر عن حقيقة أن تقاريري من الممكن أن تُناقض المكتشفات الرسمية. بالرغم من أن الأخت ليانغ، امرأة بدينة وبيتوتية، اجتازت القانون

وجنت ملايين الدولارات عبر تهريب البشر، كنتُ أظنُ أنها ضحية. من المؤكد أن هناك العديد من المتعاونين ذوي النفوذ القوي؛ أحدهم هو من سلّم اسمها للمخابرات الفيدرالية.

قابلتُ العشرات من المهاجرين في مركز المدينة في الصين، وفي بروكلين، وفي كوينز، ولم يذكر أي منهم أي رأي سلبي حولها. بعضهم أصرّ على براءتها، وبعضهم قال إنه سيزورها في السجن، والبعض الآخر كان يعتبرها صاحبة الفضل عليه. لقد ساعدت العديد من الأشخاص، خصوصاً القادمين الجُدد الذين أقاموا في هذه المدينة من ذوي الحظ السيئ ومعدومي الحال، حتى إنها كانت تتحمل نسبة ستة عشر في المئة من الفائدة المترتبة على القروض. قال لي شاب إنه يدينُ لها بأحد عشر ألف دولار، ولا يعرف كيف يعيد لها هذا المبلغ وهي موجودة في السجن الآن. الناس الذين يعيشون في قريتها، والتي تبرّعت فيها لبناء مدرسة وعيادة بيطرية، أرسلوا ببرقية لحاكم الفيدرالية يُطالبون بإطلاق سراحها. بغض النظر عن ذلك، قام الحاكم بالحكم عليها بالسجن لمدة سبعة عشر عاماً؛ لأنها أدينت بخمس تهم من أصل ستة.

كنتُ أعلم أن هايلي غاضبة من الأخت ليانغ؛ لأنها أضاعت استثمارها، على الأرجح عشرات الآلاف من الدولارات.

في تقاريري كنتُ أقتبس أقوال الآخرين؛ دون أن أُدرج وجهات نظري، ضمنتُ بذلك تقديم قصتها بطريقة قد تأخذ شكلاً آخر لتلك القضية، لقد كانت مهمتي أن أجعل الناس يسمعون آراءً مختلفة؛ حتى يتمكنوا من تشكيل آرائهم وأحكامهم الخاصة. لا يجب عليهم أن يتقبلوا الأحكام القضائية دون مساءلة.

في صباح يوم السبت، كان الضباب يملأ المدينة، خرجتُ لأرى نيا. كان قطار الساعة السابعة الذي ركبتُ به يتوقف بين الفينة والأخرى بسبب بعض التأخير وإشارات التقاطع. اتخذ القطار مساراً مرتفعاً، أحببتُ منظر المدينة في الضباب الذي صقل الملامح غير المرتبة لأعالي الأسقف والجدران المغطاة بالرسومات والنقوشات. بدت المدينة هادئة وغامضة، وذات عدد سكاني أقل. هبطتُ في إلمهارست في حي كوينز، وتوجهتُ إلى المقهى الذي التقينا به أنا وهي، والذي يقدم الإفطار والغداء ومختلف أنواع القهوة. لقد كان نعل حذائي يسحق أوراق الشجر اليابسة عندما كنتُ أمشي متثاقلاً على الطريق الجانبي. كانت نسائم أكتوبر المتأخرة باردة ونقية. ظهرت شاحنة نقل ثقيلة تنفخ الهواء كقارب يشقُ الماء، بينما تلاشت سحب الضباب الملامسة للأرض. حالما جلستُ على المقعد ظهرت نيا، كانت ترتدي سترة

قطنية بلون أبيض مائل للرمادي. ألم يجعلها لون معطفها تظهر كالشبح في ذلك الضباب؟ كان خداها المستديران مفعمين بالحيوية والصحة.

جلسنا وبيننا طاولة مربعة، وبينما كانت تضع معطفها حول الكرسي؛ طلبت كابتشينو لها وطلبت القهوة لي مع بعض الفطائر. لم ترغب بتناول الطعام؛ لأنها تناولت الفطور للتو، حسب قولها.

قالت وهي تفكك الزر الأول من سترتها «يا إلهي، إن الجو دافئٌ هنا».

«تبدينَ مبتهجة اليوم».

«نعم، اليوم أنا في مزاجٍ متفائل» قعّرت ابتسامتها خدها الأيمن. وتابعت: «لقد ترقيتُ لتوي لمنصب مساعد المدير في مركز المساعدة التكنولوجي».

«تهانينا، هل هذا يعني أن جامعة نيويورك أعطتكِ منحة؟».

«نعم، يمكنك المراهنة على ذلك. تبدو بمزاجٍ غير جيد اليوم. ما الأمر؟» وارتشفتْ الكابتشينو ولعقت الرغوة عن أعلى فمها الذي ظلله الوبر الناعم عندما أصبح رطباً.

قلتُ لها: «لم أفكر يوماً بأني سأُصنّف كمُنشق من قبل

المسؤولين الصينيين. أنا قلقٌ من أنني لن أتمكن من العودة لرؤية والدي لمدة طويلة. والدتي مريضة بالسكري وضيق التنفس، وانا ابنهما الوحيد».

تنفست نيا بتنهيدةٍ ضعيفة، وقالت: «لهذا السبب حالما أصبح خلافك مع هايلي سياسياً، تراجعت. السياسة هي المكان الذي لا أجدُ فيه الراحة، والمكان الذي لا أنتمي إليه. قبل أن يموت والدي، جعلني أعده ألا أعبث مع السياسة».

قلتُ لها: «مات؟ هل ما زالت والدتك على قيد الحياة؟ أو هل أنتِ يتيمة الآن؟».

«كلاهما رحلا. أنا يتيمة وعمري تسعة وعشرون عاماً، ما زلتُ أبحثُ عن بيتٍ ورجل» وضحكت ضحكة صغيرة، أو أنها كادت أن تضحك.

ضحكتُ وأدركتُ أننا كنا نستمتع برفقتنا لبعضنا البعض، ربما جزء من ذلك يعود لأن كلينا من شمال شرق الصين. سألتها: «كيف توفي والدك؟».

«لقد توفي قبل عشر سنوات، بسبب مضاعفات مرض الإيدز».

«أنا آسف. كان الإيدز نادراً جداً في مقاطعات الشمال الشرقي في ذلك الوقت. أليس كذلك؟».

«بالرغم من ذلك، فقد كان يوجد ضحايا لهذا المرض. كان والدي يعاني من ثقبٍ في معدته، وأجرى عملية في مستشفى يقع في هاربن. نقلوا له وحدات دم؛ ولكن كان هذا الدم ملوثاً. بعد ذلك، أصبح يمرض أكثر فأكثر؛ وتم تشخيصه بالإصابة بمرض الإيدز. طلبنا أن تغطي المستشفى جميع نفقاته الطبية وأن تدفع ثمن الأضرار، ولكنهم أنكروا مسؤوليتهم عن الأمر. لقد كان شيئاً يثير الغضب بشدة، ولم تكن تلك الحادثة الوحيدة؛ العديد من النساء اللواتي كنّ في مرحلة المخاض في ذلك المستشفى؛ تلقين أيضاً دماً ملوثاً، وأصبحن ناقلات للمرض. كان أبي غاضباً جداً، ولم يستطع التوقف عن شتم ولعن الإداريين الذين يعملون في تلك المستشفى. ذهب إلى بكين ليقدم طلب استرحام، ولكن تم القبض عليه في اليوم التالي لوصوله، وتمت مرافقته حتى وصل إلى مقاطعتنا التي نسكن بها». توقفت حتى تستجمع قواها.

ومن ثم تابعت: «لقد حبسوه ولم يطلقوا سراحه حتى وافق ألا يذهب للعاصمة مجدداً. وتقدّم بشكوى للحكومة المحلية، ولكن أصمّ المسؤولون آذانهم عن الاستماع له. لذلك، لم يتوقف عن شرب الكحول؛ وألقى بنفسه في الهاوية. عندما كان يحتضر، أخبرني بأن أغادر الصين وألا أعود مُجدداً. وحتى إنه اقترح علي أن أذهب إلى سيبيريا،

حيث كان يعمل معارفه وأقاربه ويديرون مزارع وبساتين للخضار. قال: «هذا البلد يفترس شعبه. اذهبي واسكني في بلدٍ آخر ولا تختلطي بالصينيين» كنتُ متأثراً بقصتها، سألتها: «ولكن أباكِ كان صينياً، أليس كذلك؟».

«نعم، ولكن العديد من أصدقائه كانوا من الأقليِات؛ كوريون، ومسلمون صينيون، ومنشوريون، والمنغوليون. لقد كانت علاقته بهم جيدة. لقد كان يفكر في إحدى المرات بالهروب من الصين أيضاً».

«إلى أين كان سيذهب؟».

«ربما تايوان، أو هونغ كونغ أو إلى جنوب شرق آسيا».

«ألم يُغادر أبداً؟».

«لم تعطه الحكومة جواز السفر الخاص به. حتى لو كان يملك جواز السفر، أشكُ في أنه يمكنه المغادرة، لأنه كان من الصعب عليه أن يعيش في مكانٍ آخر. حتى لو كان يكره الحكومة. لقد كان صينياً حتى النخاع».

«إذن، لم يعد لديكِ أي شيء يخُصكِ في الصين بعد ذلك؟».

«صدّق أو لا تصدّق، بالرغم من كل شيء ما زلت أحبُ بلدنا الأم».

«ولكنك متجنسة، ألستِ كذلك؟».

«جواز السفر الأمريكي يجعل حياتي أسهل، خصوصاً عندما أسافر، ولكن في صميم قلبي؛ ما زلت أنتمي إلى الصين. إلى جانب ذلك، أحب كل شيءٍ صيني!».

«ولكن لا يبدو أنك تُعجبين بالرجال الصينيين، أليس كذلك؟».

«كيف لي أن أشرح الأمر... حسناً، ربما أكون تغيرتُ كثيراً منذ قدومي للولايات المتحدة. في بعض الأحيان أجد نفسي منجذبةً للرجال الصينيين، ولكن عندما أمضي معهم بعض الوقت، أبدأ بالشعور بعدم الراحة؛ وحتى بالانزعاج. العديد منهم مُدللون من قبل آبائهم، ولديهم إحساس زائد بعقدة الأنا العليا. والعديد منهم عبارة عن متوحشين سياسيين يحبون السلطة أكثر من أي شيء آخر. طموحهم الوحيد في الحياة أن يصبحوا مسؤولين ذوي شأنٍ مرتفع. ليس لديهم أي عمق روحي. إنهم مادِيون وأنانيون».

اعترفتُ قائلاً «من الممكن أن أكون كذلك، أو أنني اعتدت أن أكون كذلك. ولكن؛ إنها الثقافة من تشكل الناس بتلك الطريقة».

قالت: «أترى، أنت مختلف بطريقة جيدة. أخبرني، ألن

تغضب منك صديقتك إذا عرفت بأنك أمضيت وقتاً مع امرأة أخرى لوحدك؟... خصوصاً امرأة صينية؟».

ابتسمت نيا ابتسامة عريضة ببراءة. لاحظت أنها تبدو أفضل عندما تبتسم؛ كل تفصيل من ملامح وجهها كان يبدو منسجماً، حتى أسنانها كانت بيضاء ولامعة. قلتُ لها: «بما أننا نحن الرجال الصينيون لا نغري أحداً، هل توافقين على الزواج من رجل أمريكي، كما فعلت هايلي؟».

«حسناً...» زمّت نيا شفتيها وقالت: «واعدتُ في إحدى المرات شاباً أبيض، وكان الوضع صعباً بالنسبة لي».

«لماذا؟» سألتها متحمّساً.

أجابت: «هذا الشاب؛ لقد كان طفلاً مفرطاً في النمو. لقد كان يضيع معظم وقته في الحانات وعلى الألعاب الإلكترونية. لقد جعلني أشعر بأنني كنتُ فقط المعيل الخاص به. لقد سئمتُ الرجال الأمريكيين».

قلتُ لها بإخلاص: «لا أعتقد أن معظم الرجال الأمريكيين كهذا الرجل، بعضهم أعرفهم ودودين ومهذبين».

«أنا أعلم أنني أتحدث ببعض العبارات المبتذلة أحياناً»، وابتسمت وكأنها تعتذر عن ذلك.

وتابعت: «أظن أن لدي حظاً سيئاً مع الرجال. بعد أن انفصلتُ عن ذلك الشاب، أصبحتُ خائفةً جداً من أن أواعد أحداً لمدةٍ طويلة».

«هل كان هذا الرجل بعد الرجل الصيني الذي كنتِ تواعدينه أم قبله؟».

«بعده».

لم أتوقع أن تتحدث بشكلٍ شخصي وبصراحة لتلك الدرجة.

أسررتُ لها: «تتذمر صديقتي كيتي أحياناً من أنني عقلاني لدرجة كبيرة».

قالت: «ربما هذا ليس سيئاً، على الرغم من ذلك. على الأقل أحد الطرفين يجب أن يكون مُدركاً إذا كانت العلاقة في ما بينهما ستنجح أم لا. هل أنتما مخطوبان؟».

«كلا، لسنا مخطوبين».

«هل فكّرت بأن تتقدم لخطبتها؟».

«كلانا لا يفكر بالزواج بشكلٍ جدّي. ومن المحتمل ألا نصل لتلك المرحلة. ولكن لا تخبري هايلي بذلك، حسناً؟».

وعدتني نيا قائلة: «لن أتفوه بكلمة، ولكن لماذا ما زلتما تتواعدان أنت وكيتي؛ إذا كانت علاقتكما لا تتجه نحو نقطة

محددة؟ من جهتي لا أخوض في شيءٍ ما إذا لم أكن متأكدة من بقائه».

قلت لها: «فقط لا أريد أن أخسرها».

قالت نيا وابتسمت بخبث: «أوه، أعرف لماذا».

«لماذا؟».

«الغرور... هايلي متزوجة من رجل أبيض، وأنت تريد أن تظهر أنك أيضاً تستطيع أن تكون لديك امرأة بيضاء، أنك قادر على تحقيق انتمائك لهذا المجتمع».

«حسناً...» شعرتُ بجرحي وبدأت أعترض، ولكن توقفت وقلت: «أنا أهتم لأمر كيتي حقاً، ولكن قد يكون هنالك جزء من الحقيقة في ما تقولين. مثل معظم الرجال، أنا أخاف من أكون رجلاً لا يحتاجه أحد».

قالت نيا مُصرّة: «ولكن لا يمكن للغرور أن يجعل أي علاقة تستمر للأبد، حتى لو تزوجتما، لن يكون هذا الزواج مستقراً».

«أتعنين، مثل زواج هايلي؟».

«حسناً، بالنسبة إليها، أنا أعتقدُ حقاً أن لاري يحبها».

«ولكن لقد جعلها توقّع على وثيقة ما قبل الزواج».

قالت نيا بلهجة الرفض: «هذا شيءٌ عادي بين الأمريكيين، خاصَةً الأغنياء منهم. كان لاري كريماً جداً مع هايلي، انظر إلى الملابس التي ترتديها. رأيت حقائب مصممي الأزياء المشهورين في خزانتها».

أغاظني مدحها للاري، فقلت لها: «هي فقط تحاول أن تبدو غنية منذ القدم».

«ولكن لاري دائماً يمنحها كل ما تريده».

«إذن، لماذا انفصلا عن بعضهما البعض؟».

قالت نيا: «في الحقيقة» ورفعت حاجبيها «لقد عادت له مجدداً. لقد أخبرتني كيف اتصل بها لاري مراتٍ عديدة، يقول لها بأنه لم يستطع النوم وهو يفكّر فيها، وأن شقتهما بدت مهجورة. وأنه لم يستطع التركيز في عمله؛ لأنه كان قلقاً عليها. لقد توسّل إليها كي تعود للبيت، أو أنه سيفقد عقله إذا لم تعد».

قلتُ لها بلهجةٍ جافة: «يبدو أنه صادق».

ردت نيا متجاهلة: «كثيراً».

سألتها: «ماذا تفعل هايلي هذه الأيام؟، إلى جانب تشويهها سمعتي؟».

«تعمل على نص الفيلم الخاص برواياتها».

«أتعنين أنها ما زالت تكمله؟».

«نعم، لقد كانت متحمسة جداً حيال التقدُم الذي أحرزته عندما تحدّثنا في المرة الأخيرة».

ذكّرتها قائلاً: «من الواضح أنه لا يوجد اتفاقية فيلم، ولكن يجب أن أعترف بأنني معجبٌ بأنها ما زالت تستطيع التركيز حتى تحت الضغط الهائل من وسائل الإعلام».

قالت نيا؛ وبدت واثقة جداً من نفسها: «العبقرية هي التركيز».

وتابعتْ: «هايلي امرأة صلبة، باستطاعتها أن تجتاز كل شيء بخطوات سريعة، وأن تختبر آلاماً قاسية كي تصل إلى ما تريد. إنها أيضاً عميقةٌ جداً.... لا أعرف أحداً مثلها».

قلتُ لها بنوعٍ من الحزن: «إنني أتعجب من أنني قد أتحول لأصبح الخاسرَ الوحيد في تلك الفضيحة».

وتابعتُ: «أحياناً من ينفخ الصافرة يفعل ذلك بصعوبة بالغة؛ حتى يشعر بأنه سينفجر». انفجرت نيا ضاحكة. جاءت النادلة السمراء ذات العينين الواسعتين والخصر النحيل، ووضعت الفاتورة على الطاولة. حالما التقطتها نيا حاولت جاهداً أن آخذها منها. قالت: «لا جدال في ذلك. هل هذا

واضح؟». وأضافتْ: «ألا تذكر أنني حصلت لتوّي على الترقية؟ بالإضافة إلى أنك قطعتَ كل تلك المسافة لتراني».

سمحتُ لها بدفع قيمة الفاتورة. لقد أزعجني تصريحها حول المصالحة التي تمّت بين هايلي ولاري، لأن ذلك عنى أن زوجتي السابقة ستتجرأ أكثر في صفقاتها ضدي. بقيتُ محبطاً طوال عطلة نهاية الأسبوع، لذلك كتبتُ مقالة باللغة الإنجليزية، حيث كتبتُ فيها مراجعة حول تلك الفضيحة، كانت عبارة عن حوالي ثلاثة آلاف كلمة. في بداية الأسبوع التالي أرسلتها عبر البريد الإلكتروني بحماسٍ كبير إلى كل من صحيفة نيويورك تايمز وبريد واشنطن، على أمل أن تقوم إحداهما بنشر المقالة. تدفع المجلات والصحف الإنجليزية أكثر مما تدفعه المجلات والصحف في الصين.

أعرف موظفاً، رجلاً ألمانياً درس في إنجلترا، يحب سان فرانسيسكو وأفلام الكونغ فو، ونشر مقالات مطوّلة في مجلة فوربس ومجلة نيويوركر مرتين إلى ثلاث مرات في السنة، والأجرة التي كان يتقاضاها مقابل تلك المقالات؛ كانت كافية له للعيش. عادةً يتم دفع أكثر من دولار لكل كلمة. عندما سمعتُ ذلك للمرة الأولى، كنتُ مدهوشاً، ولكن بعد ذلك، أصبحتُ أعرف أن ذلك كان المعدّل المعياري بين

المنشورات المُصنّفة ضمن الدرجة الأولى. ولكن في هذه القضية لم تكن الأجرة هي الشيء الذي أريد معرفته. أردتُ أن تستطيع وسائل الإعلام الرئيسة أن تلتقط القصة الكامنة خلف الرواية، الشيء الذي قد يمنحني بعض الامتيازات، وبعض المساعدة الدولية، في القبض على هؤلاء المحتالين. لديّ آمال كثيرة لرؤية صحيفة التايمز أو صحيفة بريد واشنطن تنقضَان على عصابة هؤلاء الثلاثة.

بالرغم من ذلك، لن تؤثر مقالة باللغة الإنجليزية في هايلي بدرجة كبيرة، لأنها تكتب هنا تحت اسمٍ مختلف، هايدي يان، ومدرستها الإعدادية على الأرجح لن تعرف بسوء تصرفها إلا إذا نبّههم أحدٌ إلى ذلك.

كنتُ أفكر في ما إذا كان صائباً أن أقوم، فور نشر المقالة، بإرسالها بشكلٍ مفاجئ مع رسالة مرفقة عبر البريد إلى المدرسة التي تعمل لديها، ولكن ذلك قد يعادل الاغتيال المهني... ماذا إذاً؟ لقد كنتُ أحارب في معركة، حيثُ لا يوجد أي احتمالات. راجعت كيتي مقالتي المكتوبة باللغة الإنجليزية وأجرت ثلاثة أو أربعة تصحيحات. قالت إن المقالة واضحة ومقروءة، ولكن بعد أن أرسلتها، حذرتني بألا أعلق آمالاً كبيرة على أن يتم نشرها.

الفصل الخامس عشر

في الثالث من شهر نوفمبر، خلال الصيف الهندي الدافئ، جاء إلى وكالة الأنباء العالمية، الناشر الخاص بهايلي، جياو فانبنغ، كان يرتدي حذاءً بُنياً لامعاً وسترةً زرقاء ذات طيَاتٍ واسعة وزرٍ برّاقٍ واحد، وربطة عنق ذات نقوش مربَعة، وساعة مزيفة من نوع روليكس. وبالرغم من بدلته اللامعة، إلا أنه بدا رخيصاً.

ادّعى بأنه جاء إلى نيويورك بعملٍ، وأنه مرّ من هنا ليلقي التحية على كاي مينغ، وكأنهما يعرفان بعضهما البعض منذُ سنوات. زيارته المفاجئة أزعجت رئيسي في العمل ولوشينغ، ولكنهما اصطحباه إلى قاعة المؤتمرات الصغيرة الواقعة في الجانب الشرقي الأخير من مبنى مكتبنا. وطلبا مني أن أنضمّ إليهما. بعد أن تناولنا شاي أولونغ الصيني، قال جياو: «أريد أن أكون صريحاً معكم أيها الأصدقاء. أخبرني، بحق الجحيم لماذا أنت مُصممٌ جداً على تدمير

عملي وسُمعتي؟» ووخز أنفه وشاربه، كان فوق إحدى زوايا فمه نُدبة منحنية.

أجاب كاي مينغ: «نحن نقوم بعملنا فقط»، وابتسم بهدوء دون أن ينظر إلى عيني جياو، وتابع يقول: «يجب علينا أن ننقل الأخبار بدِقة».

قلتُ لجياو: «قرأتُ بعض الأجزاء من رواية يان هايلي. كيف لك أن توافق على نشر مثل تلك القُمامة؟».

ردّ قائلاً: «دعونا لا نتحدّث عن ذوقي الأدبي وحُكمي على النصوص، دعونا نتحدَث كيف يجب أن نَحُل هذا الخلاف أو سوء الفهم».

أجبته: «أفضّل أن أُسميه بالاحتيال».

ردّ جياو بهدوء: «إنها رواية، والمفروض أن الرواية عبارة عن ضربٍ من الخيال».

أجبته مُحتجاً: «ولكنكما ادّعيتُما أنت وهايلي أن كل جزء من الكتاب حقيقي؛ هذا هو الاحتيال بعينه».

قال: «أيها الرجل المشاكس. في الواقع، لديكَ هدف تريد تحقيقه من زوجتك السابقة. ولكنك أصبحتَ متأكداً الآن أنك لا تتعامل معها وحدها. لقد تجاوزتَ كل الحدود»،

تحوّل لون وجهه إلى الأحمر الداكن وانعقدَ وجهه.

احتد مزاجي أيضاً، سألته: «هل تُهددُنا؟».

قال: «أنت فقط».

طوال تلك المدة بقي لوشينغ صامتاً، بدا عابساً، وكان يرتشف الشاي دون أن يرفع نظره.

تابعتُ قائلاً: «هذه أمريكا، وأنا صحفي. تتطلب مني مهنتي أن أكون صادقاً مع الشعب، وأن أنقل الحقيقة دوماً. إذا لم أقم أنا بفعل ذلك، سيقوم به شخصٌ آخر. لا تستطيع أن تُغلق أفواه الناس هنا».

قال جياو وهو يوخز بسبابته مقابل وجهي: «لا تحاول أن تبيعني ذلك الهراء. لقد عشتُ في أمريكا لعدة سنوات، وأعلم أي بلدٍ هي. هذا مكانٌ حيثُ لا يملك الرجل غير الأبيض أية فرصة. قد يَسمح لك الرجال البيض بأن تتقدّم قليلاً، ولكنهم سيبقونك دائماً تحت سيطرتهم. في اللحظة التي ستتطور بها بدرجة كبيرة أكثر مما يتوقعون، سيدمرونك. لذلك، لا تُخبرني حكايةً حول الصِدق والحرية والعدالة. لقد مررتُ بما يكفي من الاستغلال هنا في هذا البلد؛ حتى أعرف أن تلك المبادئ هي أكاذيب أُسطورية. في هذا المكان، كاتب مقالات تافهة

مثلك، يزدهر ويتقدّم فقط عن طريق التفوه بالحماقات حول موطنه الأصلي. لقد منحتَ الأمريكيين ما يريدون سماعه، لذلك يشعرون بأنهم أفضل منا. ولكن من المستحيل أن يقبلوا بك كرجلٍ أمريكي حقيقي؛ من المستحيل أن يتجاهلوا عينيك الصغيرتين وبشرتك الصفراء. بدأت كصيني آسيوي، وستبقى صينياً آسيوياً للأبد. لا تحاول حتى أن تتفوق على نفسك. كل ما تستطيع فعله؛ هو أن تكذب على أتباعك، وأن تخبرهم كم نحن متخلِفون. ولكن حالما تنتهي من قصصك الطويلة، سيجد الأمريكيون شخصاً آخر يحلُ مكانك. ولا تنسَ أننا يمكننا دائماً أن نُحملك مسؤولية سوء تصرُفك هنا. وإذا استدعت الضرورة، بإمكاننا أن نحولك إلى متشرِد في هذه البلدة التي تُدعى أرض الحرية».

كان صوت جياو يصبح حادّاً أكثر فأكثر، وكان هنالك بعض الرغوة فوق شفتيه.

قبل أن أُجيب عليه، رفع كاي مينغ يده قائلاً: فانبنغ، فلنجد مكاناً هادئاً؛ حيثُ يمكننا تناول الغداء والتحدث بهدوء، هل أنت موافق؟ يجب على زملائي أن يعملوا هنا، ولا ينبغي إزعاجهم».

أجاب الزائر بصوتٍ منخفض وناخر: «حسناً، لا أمانع بذلك».

همس لي كاي مينغ بأن أبقى هنا، أومأت برأسي موافقاً. لم أكن فقط غاضباً، بل كنتُ منزعجاً جداً بشأن جدالي مع جياو؛ كان عليّ أن أتمالك نفسي. غادر ثلاثتهم، وكانوا جميعهم يدخنون من سجائر الباندا الخاصة بجياو. لقد ذهبوا إلى دكلنج، مكان تايلندي في آخر الشارع. بالرغم من أنني أعلم أن لدى جياو نفوذٌ واسع هناك في الوطن، إلا أن تهديداته لم تزعجني. شعرتُ بأنني واثقٌ أنه هو ومعاونوه لا يستطيعون فعل الكثير لإيذائي هنا في هذا البلد. هنأتُ نفسي لأنني توقعتُ ذلك النوع من التهديد، وأنني تمكنتُ من الحصول على الجنسية حالما حصلتُ على البطاقة الخضراء لمدة خمس سنوات. شعرتُ للحظة بأنني تغلّبتُ على الصين.

مع قليل من الكاتشاب، تناولتُ بسرعة ساندويش الهمبرغر التي كنت أحضرتها للغداء، ثم خرجتُ لأتمشى قليلاً. ذهبتُ مُجدداً إلى موقع البناء في شارع كرفتس، حيثُ كان يتم بناء نادٍ؛ بجانبه كان يوجد صف من صناديق البريد موازية لحائط منخفض من الألمنيوم. تم بناء السقف لآخر شقة من الأربع شقق، وكان العمال مشغولين بتركيب الشبابيك على الطابق العلوي. تم ترصيف موقف البيت مؤخراً، وتم التدليل عليه بأرقام امتدت على طول الطريق المخصص للقيادة، يرسل لأعلى موجات من الأبخرة في أشعة الشمس الساطعة. تحدثتُ مع عاملٍ مكسيكيٍ شاب

اسمه سيرجو، ظهر مصادفةً. ومما أدهشني أنه كان يتلفظ بكلمة أو عبارة من لغة الماندرين بين الحين والآخر، مثل «لا مشكلة»، «ليس سيئاً»، «قليلاً». أخبرني بأنه عمل في أحد المطاعم الصينية لمدة ست سنوات، في غسل الصحون، تقشيرِ الجمبري، تقطيع الخضار، فرم اللحوم. كان ينوي مغادرة نيويورك عندما انتهى فصل الصيف الهندي. قال: «يمكنك أن تجد عملاً في الجنوب؛ لأن الناس هناك ما زالوا يبنون البيوت في الشتاء». ابتسمت عيناه الواسعتان وقال: «أكره الثلوج»، وتنفس لاهثاً؛ وكأن رقاقات من الثلج سقطت فوق رقبته. من المحتمل أن يذهب إلى أتلانتا، حيثُ يوجد الكثير من المكسيكيين، كما قال.

في الساعة الواحدة وعشرين دقيقة، توجهتُ عائداً إلى مكتبي. كان في الطريق على الشاطئ المائل للون البني، مجموعة من الأولاد يتمازحون ويتباهون بقدرات كلٍ منهم أمام الآخر، يؤدون حركات الوقوف على اليدين وحركات دوران عجلات العربة. تساءلت إذا كانوا متغيبين عن المدرسة. أحدهم كان يؤدي حركات الشقلبة، اثنتان متتاليتان، ولكن عندما حاول الرجوع للخلف سقط على ركبتيه. وكانت طيور البحر وراءهم تقف بلا حراك أو انزلاق على امتداد حافة السطح المليء بزبد البحر، كانت ترفرف بأجنحتها وذيولها، وكانت تصدر زعيقها بين الحين والآخر. اصطدم حذاءان من أحذية العجلات

السريعة ببعضهما ورسما موجات بيضاء على الخليج. هبّت نسمات فوق نفحةٍ من العشب البحري ذي الرائحة الكريهة. بالرغم من حلول فصل الخريف؛ بدا البحر هادئاً وجذّاباً.

عندما عدتُ كان كاي مينغ ولوشينغ موجودين في وكالة الأنباء العالمية، بدا الاثنان مرتاحين أكثر. لم يقل رئيسي شيئاً حول غدائهم مع فانبنغ، ولكن لاحقاً سألتُ لوشينغ كيف دارت جلسة الغداء.

هزّ لوشينغ رأسه وقال: «جياو مزعجٌ»!

سألته: «لماذا هو حاقدٌ على الأمريكيين إلى هذا الحد؟، هل حقاً كان يعيش هنا؟».

أجاب لوشينغ مستهجناً: «نعم، على الساحل الغربي. وقد خسر زوجته هناك؛ إذ ذهبت مع رجلٍ آخر. لذلك، ربما كانت لديه بعض الأسباب ليكون غاضباً».

وتابع: «يبدو أنه لا يزال يريد أن يعمل هنا، في كل الأحوال. لقد أخبرنا أنه يخطط لتأسيس دار نشر في بروكلين».

سألته: «لينشر كتباً باللغة الإنجليزية أم باللغة الصينية؟».

أجاب لوشينغ: «كليهما».

«هل تصدّقه؟».

«من الصعب معرفة ذلك. لقد قال بأنه يبحث عن مندوب في نيويورك. اسمع يا دانلن، لا يجب عليك أن تقوم بمضايقة جياو بعد الآن. لم نُدرك أنه يُسبب متاعب كثيرة؛ بإمكانه أن يسبب الكثير من الدمار».

قلت له بخوف: «يجب عليّ ألا أُضايقه؟».

ومضت لحظة قبل أن أتحدث مُجدداً:

«طوال ذلك الوقت، كنتُ أتبع تعليماتك أنت ورئيسك كاي مينغ».

قال لوشينج بثبات: «الوضع مختلف الآن، قال كاي مينغ بأنه يمكننا أن نعمل معه لنوسّع مجالنا في النشر. جياو طموحٌ جداً، ونحنُ كذلك أيضاً».

لبقية الوقت ما بعد الظهر كنتُ أفكر بذلك ملياً. لقد أصبح من الواضح أن رئيسي على استعداد للتعاون مع جياو في نهاية المطاف. قبل نهاية اليوم، دعاني كاي مينغ إلى مكتبه، وطلب مني أن أكون حذراً أكثر عندما أكتب حول تلك الفضيحة. لقد شدّدَ على أن أتابع كتابة تقارير حولها، ولكن بحذرٍ أكبر، وأنه يجب عليّ أن أتجنب الهجمات الشخصية. كنتُ أتساءل بماذا وعد كاي مينغ جياو؟ وكيف لي أن أُكمل عملي إذا كنت بدأت أفقد الثقة برئيسي في العمل؟

في ذلك المساء؛ تلقيتُ رسالة من محررتي في دار الكُتاب للنشر. لقد تم رفع كتابي من لائحة النشر «بسبب تعليمات أتت من سلطات عليا». لم تُسهب في التفاصيل، وقالت فقط إنها متأسفة بشأن هذا الإلغاء، وأنه لم يكن بمقدورها فعل شيء. تم حجز ألفي نسخة؛ والآن يجب التخلص منها.

فقط على هذا النحو جرت الأمور. بقيتُ مصدوماً ولم أذهب للنوم في تلك الليلة، كيتي نامت وحدها، متقمطة بغطاءٍ صوفي. كنت أسمع تمتماتها من وقتٍ لآخر عبر باب غرفة النوم المفتوح. جلستُ وحدي لساعات أمام حاسوبي، أفكرُ بكل تلك الساعات التي أمضيتها في كتابة تلك المقالات؛ كل ذلك الوقت الذي أمضيته أمام تلك الشاشة؛ أُنظّم الكلمات مع بعضها البعض حتى تصبح كتاباً. لم أشعر بخسارةٍ مثل هذه تجعلني أجثو على ركبتي منذُ مدة طويلة. وكأن كتابي كان شخصاً ما.

جاءت الضربة التالية في اليوم التالي، عندما سمعنا أن صحيفة دليل القارئ الأسبوعية؛ لن تقوم بإعادة نشر مقالاتي بعد الآن، وليس حتى بعد تدقيق وتعديل النسخ التي مرّت بمكتب الرقابة في شنغهاي. لم يشرح المحرر في تلك الصحيفة سبب ذلك، وقال فقط بأنه لا يُسمح بنشر أي مقالة

مكتوبة من قِبَل فينغ دانلن. لقد كان ذلك بصيغة رسمية: لقد تم وضعي على اللائحة السوداء.

قامت وزارة الأمن الوطني والقسم الإعلامي الخاص بالحزب؛ بالاحتفاظ بالعديد من اللوائح مرتبة حسب درجة «غير المقبول». أول لائحة تتألف من الأسماء التي لا يمكن حتى ذكرها في الصُحف والمجلات؛ تلك الأسماء تم محوها من شبكة الإنترنت أيضاً. لقد كان العمل على هذه اللوائح بطبيعته سرّياً.

لم يناقش أحد في المكتب قرار المنع بشكلٍ صريح. بالرغم من ذلك، لم أعرف بالضبط إذا كان بإمكاني أن أثق بلوشينغ بعد الآن، لقد كان أفضل مصدر للمعلومات بالنسبة لي. سألته أن يخبرني بكلِ شيءٍ يعرفه حول تلك اللائحة السوداء. تنفس الصعداء وقال: «لا أعلم على أية واحدة منها مسجل اسمك. طريقة العمل بتلك الأشياء؛ تتمثل بأن يحاولوا إخبارك بأقل قدر ممكن من المعلومات، إنهم يبقونك تتخبط في الظلام، ويدعون خوفك هو رقيبك الوحيد». توقف وبدا كأنه توصل إلى قرارٍ ما، قال: «عندما تناولنا الغداء في اليوم التالي، كان جياو فانبنغ يحاول إقناع كاي مينغ أن يطردك». قال لي بهدوء: «لقد قال إنك مُصنّف

بأنك داعمٌ لاستقلال التبت وتايوان، مُنشق، وداعمٌ لفالون غونج. وقال بأنك مجرم بالنسبة للحكومة الصينية».

تنهدتُ وسألته: «ماذا قال كاي مينغ؟».

أجاب لوشينغ: «لم يبدُ عليه أنه يرغب بطردك. أخبر جياو بأنه لا يريد أن تتم مقاضاته، وأن هنالك تعليمات مُحدّدة للتوظيف هنا، لذلك لا يستطيع طردك دون سبب واضح ومُقنع».

أومأت برأسي، استرحتُ للحظة. قلت: «أتساءل إذا كان فعلاً متخوّفاً من القانون، أو أنه يريد الاحتفاظ بي لكي أقوم بالعمل الرديء هنا».

قال لوشينغ: «عليك أن تكون حذراً يا أخي. من المؤكد أن هؤلاء الأوغاد يائسون؛ بإمكانهم فعلُ أيّ شيء. لقد قاموا بذلك بالفعل».

بتقديمي كرجل مُنشق أمام وزارة الأمن الوطني والقسم الإعلامي في الحزب، فإنّ جو بينغ وجياو فانبغ؛ نجحا في وقف نشر كتابي. كنتُ أحتاج لمعرفة كيف أرد عليهم.

في اليوم التالي، أخبرني كاي مينغ بأنه وقّعَ عقداً مع بعض الزملاء في البر الرئيس للصين، واكتشف أن أي مقالة

تذكر فينغ دانلن، حتى ولو بشكل عابر، فإنّه كان يتم منعها أوتوماتيكياً من قبل شبكات الإنترنت الصينية.

لقد كان هذا يعني أنه لا يُسمح لأي دار نشر في الصين أن تقوم بإعادة طباعة أي شيء أكتبه. شعرتُ بقناعة سوداوية؛ بأن الأمر انتهى بي بوضع اسمي في أوائل اللائحة السوداء. إحدى المجلات في جانجزو؛ أزالت اسمي من مقابلة حديثة مع فيلسوف من هونغ كونغ؛ أجريناها أنا ووينا في فندق في حي بارك.

لقد تم ذكرها بأنها الشخص الوحيد الذي أجرى المقابلة، بالرغم من أنها قامت فقط بتقديم الرجل بشكل رسمي؛ وأنا قمتُ بطرح جميع الأسئلة. كنتُ مصدوماً.

بدأ اليوم التالي بمغلفٍ أبيض كبير تم تسليمه إلى مكتبنا. بينما ابتعد ساعي البريد بعربته، وقفتُ بجانب نافذتي، وتساءلتُ من أين جاءت تلك الرسالة. كان منظر اسم المرسِل المتبوع بـ «آي إس كيو»، قد سارع من نبضات قلبي. شققتُ المغلّف وبدأتُ القراءة. كانت الرسالة عبارة عن مُذكّرة استدعاء؛ تُفيد بأن هناك دعوى قضائية ضدي في طريقها إليّ، وأنني متّهم بدفع تعويضات بمبلغ نصف مليون دولار. كان المُدّعون هم كل من يان هايلي وجياو

فانبنغ؛ ممَثَلين من قبل شركة محاماة في مانهاتن، ويتهمانني بالتشهير. بالرغم من أني ارتجفتُ، تساءلت إذا كانا فعلاً يرغبان بصرف المال من أجل تلك القضية. لقد قاما باستهلاك الكثير من الطاقة محاولين إسكاتي، ولكن كل شيء قاموا بفعله حتى الآن يَصُب في تحقيق المصالح وفي السياسة، وليس له علاقة بالدولار والايوان.

كان جياو رجلاً ناجحاً في الصين، ولكن لا أعتقد بأنه قادرٌ على تغطية التكاليف القانونية هنا. حالما يتم تحويلها إلى الدولار، الايوان الصيني يساوي اثني عشر سنتاً أمريكياً، إنه لا يساوي تلك الكمية المعقولة، ولم يكن من المعتاد أن يستثمر جياو أمواله في القضاء، إن هذا لا يمكنه أن يضمن أية عوائد. هايلي أيضاً لا تبدو أنها تملك أية وسائل، إلا إذا وافق لاري أن يدفع الفواتير.

شاركتُ رئيسي في العمل الاستدعاء الذي وصلني. كنتُ غاضباً من توكيله لي تلك القضية المُخزية، والآن يتركني أواجه أعباء ذلك لوحدي. ثم أدركتُ أن كاي مينغ كان مرتاحاً من هذه الناحية؛ لأنهم لم يتهموا وكالة الأنباء العالمية بأكملها، والتي كان يجب أن تكون مندرجة تحت ذلك الادّعاء، بخلاف الفرد الواحد، يجب على الشركة أن

تدفع التعويضات في حالة خسارة القضية. كنتُ معزولاً ولا أملك مصدر حماية، ولم يكن هناك من يُساعدني في مواجهة هذا الاتهام لوحدي. ربما كان كاي مينغ ولوشينغ على اتفاق مع جياو فانبنغ عندما ظهر هنا فجأةً الأسبوع الماضي. شعرتُ بالخيانة؛ ولكن لم أقل شيئاً، كنتُ أعلم أن وكالة الأنباء العالمية لن تتدخل لصالحي.

عندما شغّلت جهازي الحاسوبي وفتحتُ بريدي الإلكتروني، وجدت رسالة جديدة من هايلي.

كتبت: «سوف نقاضيك لتخسر كل ما تملك، حتى ملابسك الداخلية؛ ستضطر إلى استدانتها من كيتي».

على الرغم من خوفي، أجبتها مباشرةً: «ما زال الجمهور ينتظر رؤية عقد الفيلم الذي قمتِ بتوقيعه مع شركة بانوراما للصور، وأيضاً يريدون أن يروا ترجمات رواياتك العظيمة إلى ثلاثين لغة» كانت أصابعي تضغطُ بصعوبة على لوحة المفاتيح. تابعتُ رسالتي: «متى ستظهر النسخة الصينية منها للعلن؟ سأقوم بكتابة مقالة حولها، أعدُكِ بذلك. ماذا عن الترجمة للغة الإنجليزية؟ ألم يتم تسليمها للبيت الأبيض بعد؟ هل جاءتكِ أية تعليقات من الرئيس بوش؟ لا تنسي أن تُرسلي له ولسيدة البيت الأبيض الأولى نُسخة مُوقّعة. لاورا

بوش قارئة نهمة ومُتعطشة للروايات. ماذا عن الترشيح لجائزة نوبل؟ هل بدأتِ بتأليف خطاب التسليم؟ يجب أن تبدئي بالتفكير بما سترتدينه في تلك المناسبة العظيمة».

في ذلك المساء، عرضتُ الاستدعاء على كيتي. أردتُ أن أعرف إذا كان يجب عليّ أن أوكّل محامياً دون تأخير. قالت إن أحد زملائها، رودولف جونز، كان في أحد المرَات محامياً متدرباً، ويجب علينا أن نتحدث إليه أولاً.

الفصل السادس عشر

كان رودولف رجلاً أسود في منتصف الثلاثينيات، كان سميناً وكان شعره مجعّداً بطرازٍ أفريقي، ومرتدياً نظاراتٍ ذات إطارٍ رفيع؛ توافق ملامحه الذكية والعاطفية. كان يعيش في دوغلاستون، وهي منطقة راقية في كوينز. كانت غرفة المعيشة الواسعة في بيته مكدسة من الأرض للسقف برفوفٍ من الكتب والصحف.

في الزاوية الأخيرة البعيدة من الغرفة، كان يوجد بجانب النافذة المُقوّسة قفص عصفور كبير؛ كان يجلس بداخله ببغاء ريشه رماديٌ لامع، ولون منقاره أحمر كرزي. في الجانب الآخر من النافذة، كان يوجد أصيص لزهرة الكاميليا طولها تقريباً خمس أقدام، ولكن لم يكن هناك زهور بين أوراقها البرّاقة. حالما جلسنا أنا وكيتي على صوفا زرقاء من نوع قماش الكوردروي، زعق الطائر: «مرحباً، لوك يريد حبة بسكويت».

«اهدأ يا لوك. لقد تناولت فطورك للتو». قال رودولف مُوبِخاً الطائر. «سيرتفع لديك الكولسترول».

لمحتُ قدحاً من المشروب موضوعاً على رف الكتب؛ يحتوي على بسكويت الشوكولاتة للطيور، وتساءلت هل هناك علاقة بين مستوى الكولسترول وكمية السكر التي نتناولها؟ قفز الطائر إلى القطعة الخشبية الأخرى في القفص وحرّك أجنحته، كان رأسه متدلياً للأسفل قليلاً. قالت كيتي مبتسمة: «يبدو أن لوك يشاغبُ مرةً أخرى. هل لديه شغفٌ بالحلويات؟» أجاب رودولف: «إنه يريد فقط جلب الانتباه. لقد أكل الكثير من رقائق الذرة والتوت البري للتو».

أعتقد أن الطائر يشعرُ بالوحدة؛ عندما لا يكون صاحبه موجوداً في البيت. كان هذا المكان هادئاً جداً، إنْ لم أقل معزولاً بالكامل. عبر شباك النافذة المطلة باتجاه الشرق، أستطيع أن أرى فقط بعض الأشجار الصنوبرية الصغيرة ونباتات العرعر في الساحة الخلفية وسقف بناية خاصة. لا يوجد هنالك طرق أو حركة مرور على مدّ النظر.

عرضتُ على رودولف الاستدعاء الذي وصلني من موكّل هايلي وجياو. عدّل نظارته وبدأ يقرأ؛ بينما كان يرفع بيده الأخرى النحيلة كوباً من القهوة ليشربه. كانت رائحته تشبه رائحة الشامبو الصنوبري. هاتفته كيتي في الليلة السابقة؛ لذلك لديه فكرة عن الموضوع مسبقاً. كانت السجادة الشرقية

على الأرض الخشبية تُظهرُ صورة عربة يجرّها فيل ويجلس خلف السائق زوجان شابان؛ حيث صورت أن الرجل كان يرتدي عمامةً ويعزف على مزمار مصنوع من سيقان البامبو، بينما كانت المرأة تضرب على الدف فوق رأسها.

التقطت كيتي بعض الفستق الحلبي من وعاء خشبي أحمر اللون؛ موضوع على الطاولة وبدأت بتقشيرها. إنها تحبُ المكسرات، وأي نوعٍ منها، حتى الكستناء المائية وجوز الهند.

وضع رودولف الرسالة إلى الأسفل وتنهد قليلاً. سألته: «هل تعلم شيئاً عن مكتب المحاماة هذا؟».

«أعرفه جيداً».

«هل هو مكتبٌ متخصص؟».

«ليس بالضبط. يمكنني القول بأنه مكتب متخصص بشكلٍ بسيط».

قاطعت كيتي رودولف قائلة: «ما الذي يجب على دانلن فعله؟ هل يجب عليه أن يوكّل محامياً؟».

قلت: «ليس لديهم قضية، لقد كذبوا على الشعب منذ البداية. إنهم معروفون باسم عصابة المحتالين».

قال رودولف: «ربما لا يريدون أن يربحوا القضية. من

المحتمل أنهم يريدون ببساطة أن يضغطوا عليك؛ أو أن يجبروك على التسوية».

قلت: «أنا أجني أقل من خمسة وعشرين ألف دولار في السنة، ويمكن أن أفلس في أي وقت»، استعملتُ ذلك التعبير الذي سمعته في الإذاعة الأسبوع الماضي.

قال رودولف: «أتعني أنك لا تملك أية عقارات أو مدّخرات؟».

«أنا أعيش بالضبط مما أتقاضاه من راتب شهري، ولديّ أقل من ألف دولار في البنك».

ضحك رودولف عالياً وقال: «أنت بمأمنٍ إذن».

اندهشنا كلانا أنا وكيتي، قالت له: «ماذا تعني؟».

أخبرها: «ربما لن يحتاج دانلن إلى محامٍ، وبإمكانه الدفاع عن نفسه. عليه أن يكتب لمحاميهم أنه لا يملك المال الكافي، وأنه ليس خائفاً من تلك الدعوى».

سألته: «ماذا سيحدث بعد ذلك؟».

قال: «ربما سيسقطون الدعوى. لأنهم لن يكونوا قادرين على أن يأخذوا أي شيء منك. يرفع الناس الدعاوى القضائية ليحصلوا على التعويضات. إذا لم يكن هنالك أي أموال متحصلة، لن يهتم أحد. في المجال القانوني كل شيء يتحول إلى الدولار».

قالت كيتي وهي تَهز رأسها: «إنه الشيء ذاته، يحدث في كل مجال».

قلت: «ولكن زوج يان هايلي يعمل في الصناعة المالية، لذلك لديه مصادر مهمة».

تابع رودولف: «هذه الرسالة لم تذكره كمشتكٍ. أتعلمُ شيئاً، أعرفُ شخصاً لا يزال يعمل في مكتب المحاماة هذا، قد أتمكن من معرفة شيء عن هذه القضية من خلاله. لا أستطيع أن أعدكم بالنتائج، ولكن سأحاول. إنه من غير المفترض أن يكشف المحامون ذلك النوع من المعلومات. في تلك الأثناء، عليك أن تجيب عليهم، وادحض هذا الادّعاء، وأخبرهم بأنك لا تملك المال؛ وأنك غير خائف من تحمُل أية أعباء مادية».

باتباع نصيحة رودولف، كتبتُ ردي لهم؛ ودحضتُ ذلك الاتهام، وبدأتُ بإخبارهم بأنني سأدافع عن نفسي بنفسي؛ لأنني لا يمكنني أن أدفع أتعاب المحاماة. لقد أوضحتُ لهم، أنهم لا يستطيعون تحصيل أي شيء مني، رجلٌ فقير مثلي لديه فقط بعض الملابس القليلة ليبدّل بينها، جهاز حاسوب قديم، دراجة بثلاث عجلات، وأربعة أزواج من الأحذية، وتقريباً مئة كتاب. إذا استمروا باتباع تلك القضية؛ سيساوي ذلك نشر الفضيحة وجعلهم فرجةً للجميع، سيفكرون ثلاث مرات

قبل أن ينغمسوا أكثر في هذا الادّعاء. ختمتُ ردي بالقول: «بإمكانكم أن تضربوا حصاناً ميتاً بكل ما لديكم من قسوة، ولكن لن تؤلموه بعد الآن».

بعد أن أرسلتُ الرسالة عبر البريد، جعلتُ من ذلك الادّعاء موضوعاً لعمودي الصحفي في اليوم التالي. عندما تم نشر المقالة، تأجج الصراع من جديد. العديد من الأشخاص كتبوا، يدينون هؤلاء المحتالين، حيث قالوا بأن هؤلاء الثلاثة يجب أن يكونوا هم المُتّهمين، مشيرين إلى أنهم يذرون الرماد في أعين الشعب.

أحدهم علّق قائلاً: «هذه قضية قياسية؛ حيث يمثل الجاني دور الضحية»، وكتب آخر: «إنها إساءة مطلقة لوعي الناس». لاحظتُ في هذه المرة وجود تعليقات قليلة بلغة مبسّطة، الأمر الذي يؤكّد أن كتاباتي تم حظرها إلكترونياً بالفعل في الصين، ما ذكرني أن جو بينغ وجياو فانبنغ قد خرجوا من الأزمات هناك.

لقد أزعجني ذلك.

تلقيت اتصالاً هاتفياً من القنصلية الصينية بعد أسبوع تقريباً. كان المتصل هو تاو ووبنغ، نائب رئيس المجلس، الذي وبّخ كاي مينغ على الهاتف على تقريرنا حول حادثة فالون غونغ قبل خمسة أسابيع. لقد قابلت هذا الرجل من قبل؛ لقد كان

مثقفاً جداً وبارعاً. أحياناً يأتي إلى مبنى الأمم المتحدة في الجانب الشرقي ليمثل الصين؛ إنه يتحدث اللغة الإنجليزية بطلاقة، وقليلاً من الفرنسية، وكان خبيراً بالذوق الغربي.

لقد دعاني إلى القنصلية، قائلاً بأنه يريد أن يُجري محادثةً جدّية. شعرتُ بعدم الاطمئنان بهذا الشأن.

ماذا لو لم يدعْني أخرج من المبنى؟ ماذا لو قاموا باستجوابي وضربي؟ ماذا لو أجبروني أن أوقع على شيءٍ ما. بعد ذلك، ألغيتُ تلك الأفكار؛ لم أكن مهماً لهذا الحد ليوقفوني، ما يؤدي إلى انتشار أخبار وجلب مشكلات غير ضرورية لأنفسهم. كمواطن أمريكي؛ لم أعد في قبضتهم؛ لذلك وافقتُ على الذهاب، وتقابلنا في الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم التالي.

قبل أن أغادر العمل في ذلك الصباح، أخبرتُ كيتي حول موعدي، ومتى وأين.

قلتُ لها، وكنت محرجاً من شكوكي: «إذا لم أعد، لسببٍ ما، ستعلمين أن خطباً ما قد أصابني».

لم أدخل المبنى الرمادي الباهت الواقع في النهاية الغربية لشارع رقم اثنين وأربعين منذ عدة سنوات. لقد كان هو ذاته من الداخل، عدا الرجل العجوز صاحب الرقبة المترهلة، فقد تم تبديل موظف الاستقبال في المكتب الأمامي بامرأة

صاحبة صوت رقيق في منتصف الأربعينيات. كان مكتب تاو يقع في الطابق الثالث.

كان يقرأ مجلة عندما قدّمتني له مساعدته الشابة. وقف تاو مقابلاً لي، ومدّ يده مصافحاً لي؛ بينما كان يمشي ليرحب بي. لقد كنتُ دائماً مستغرباً من قصر قامته؛ إن طوله لا يتجاوز خمس أقدام. من المتعارف عليه أن قصار القامة نادراً ما يعملون في السلك الدبلوماسي. إن وزارات الشؤون الخارجية تتبع قواعد معينة في توظيف الأشخاص الذين جمالهم الشكلي يفوق المُعدّل الوطني، لأن الدبلوماسيين هم الوجه العام الذي يُمثل البلد. بالنسبة للصين، لقد كان أمراً استثنائياً أنهم وظّفوا تاو، وهذا يعني أيضاً أن الخدمات التي يقدمها ذات قيمة كبيرة. لقد شعرتُ بهيبة شخصيته وسحرها حالما صافحتُ يده.

«تهانيا، أيها الرفيق فينغ دانلن»، رحب بي بحرارة. كان صوته رناناً وحادّاً. وكان حاجباه مائلين للأسفل نحو صدغيه، وكان شعره حالك السواد ومصبوغاً بشكل واضح.

سألته: «ماذا حدث، لماذا تُهنئني؟»؛ وجلستُ على صوفا من الجلد زُيِّنت ذراعاها بمسامير برّاقة.

قال: «لقد تم انتخابك مؤخراً من بين أفضل المفكرين

الجماهيريين الصينيين من بين مئة مفكر صيني لهذه السنة، وحزت على الترتيب التاسع والأربعين».

«يا إلهي، لم أعرف أن التصويت قد انتهى».

«إنه لفخرٌ كبير؛ وقد تم إعلانه مؤخراً».

كنتُ مندهشاً، بأن مسؤولاً مثله، كان يتتبع انتخابات شعبية من هذا النوع. قلت له: «أنا صحفي فقط لا غير، أنتَ المُفكّر الحقيقي». كنت أعرف شهاداته بشكلٍ جيد؛ لقد حصلَ على شهادة الدكتوراه من جامعة كاليفورنيا في بريكلي، وألّفَ كتاباً باللغة الإنجليزية حول السياسة الدولية. رأيتُ قبلَ عقد مقالاتٍ زاخرة حول عودته إلى الصين، حيثُ أحدثت وسائل الإعلام حول هذا الحدث جلبة كبيرة. تم الاحتفال بتاو كبطل، وبسبب حبه الشديد لموطننا الأم، فإنه رفض درجة البروفيسور من جامعة خاصة في شيكاغو. بدأ بعد عودته التدريس في جامعة نانكاي في تيانجن، ولكنه ما لبث أن دخل في السلك الدبلوماسي.

الآن، في موقعه الحالي، شعرتُ بأنني غير مؤهل، بدا تاو مُرتاحاً ومُسيطراً، على الرغم من أنني بدوتُ في هذه اللحظة مشهوراً أكثر منه.

جاءت مساعِدته وقدّمت الشاي وطبقاً كبيراً من الفواكه: تانجيلوز وعنب وكيوي وأجاص والنكتارين، وحتى مجموعة

من الطماطم الطازجة. كانت شاشة تلفاز مُسطحة ومُركبة على إحدى زوايا المكتب قد تمّ تشغيلها على وضع الصامت، كانت تعرض أخبار قناة السي إن إن: أسطول من طائرات الهليكوبتر الأمريكية قد هاجمت القاعدة مؤخراً في العراق. ارتشفتُ الشاي، والذي كان من نوع الشاي الأحمر الكبير.

قلت له: «شايٌ لذيذ»، وقد انتابني فجأةً موجة من الحنين للوطن. لم أتذوق مثل هذا الشاي منذ سنوات. ابتلعتُ غصّة علقت في حنجرتي، مدهوشاً من تلك العواطف المُفاجئة.

بدأ تاو بالتحدُث حول العلاقة بين الصين والولايات المتحدة، قال بأنه علينا أن نتعاون على تقوية الروابط بين البلدين؛ بغض النظر عن الخلافات العرَضِية. كنتُ مُرتبكاً، غير قادر على معرفة إلى أين يريد أن يصل بحديثه.

لقد كان طوال فترة عمله يُدين الولايات المُتَحدة ويدافع عن السياسات الخارجية العدوانية للصين، وحتى إنه صرّح ذات مرة؛ بأن حرباً ستقع بين الولايات المُتحدة والصين بسبب الأزمة التايوانية.

لماذا كل هذا الحديث الآن عن التعاون بين البلدين؟

أخبرني تاو: «لقد كنتُ أتابع تغطيتكَ حول رواية الحب والموت في ديسمبر».

سألته بتردُد: «هل هذا مشروعٌ وطني؟»، ما زلتُ لا أستطيع أن أُصدّق أنه مدعومٌ من الحكومة، كما ادّعت هايلي؛ العديد من ادّعاءاتها تبخّرت عندما تم تعريضها لأدنى تدقيق.

بدا تاو متفاجئاً، ثم ضحك. نظر إليّ في وجهي وقال: «لم نتمكن من البدء بذلك. ولكن عندما بدأت الرواية تواجه الكثير من الانتقادات هنا، وأنت السبب بشكل رئيس، شعرنا بأنه يجب علينا التدخل؛ لأن الموقف قد يشوّه سمعة الصين. لهذا السبب نريدك أن تتوقف عن كتابة التقارير حولها».

قلتُ له: «لقد كنت أكتب التقارير حولها؛ لأنه كان يوجد الكثير لأكتبه، هذا الرواية زائفة ومخادعة».

قال تاو: «بإمكانك أن تقول ذلك، ولكن صدّقني، تنوي المؤلفة صدقاً أن تُساعد في تحقيق التفاهم المتبادل بين الولايات المُتحدة والصين. لذا، نريدك أن تُنهي تلك الأمور؛ وأن تستمر في حياتك بعيداً عنها».

قلت له: «كيف لي أن أترك تلك القصة؟ إنها محط اهتمام الجميع، ومصدر أخبار مهمة جداً».

أجاب تاو: «لأن الطريقة التي تكتب بها تبدو كالتشهير، وهذه القصة أخذت وقتاً أطول من اللازم، إذا استمرت بالتدحرج مثل كرة الثلج؛ ستُدمر العلاقات بين البلدين».

قلت له في سبيل معرفة الحقيقة: «ألن يقوم جورج بوش بالمصادقة على الترجمة الإنجليزية للرواية؟».

«إنها إشاعة ليس أكثر؛ وربما لن تتحقق، كما نعلم جميعنا».

ضحك تاو ضحكة غير طبيعية حتى بدا وجهه المستطيل مُجعّداً قليلاً. وقال: «فقط دع الأمور تمضي كما هي يا دانلن، عليك أن تتعلم كيف تستمتع بالهدوء والسلام. إن الحياة ليست سهلة أبداً، مشكلة تلو الأخرى حتى نموت. إن الحياة صعبة، ولا يوجد أي سبب يجعلنا نخلق المشكلات للآخرين».

قلتُ له: «فلنكن عادلين، لستُ أنا من كذب بشأن تلك الرواية. إذا كان هنالك شخص يسبب المتاعب، فهي يان هايلي والناشر الخاص بها».

«رغم ذلك، ما زلت تستطيع أن تتوصل إلى السلام».

«لكن المراسل الصحفي مُجبرٌ أن يكشف الأكاذيب».

قال تاو: «أنا أعلم بأنك تريد نشر الحقيقة، ولكن الحقيقة يجب أن تُفضي لتحقيق هدفٍ ما. إذا لم تُساعد الحقيقة بتحقيق كل ما هو جيد، فما الهدف من كشفها إذن؟. أنا أتحدثُ إليك يا دانلن خارج الإطار الحزبي، ولكن كأخٍ أكبر؛ يرى الكثير من الأحداث، ومرّ بالكثير من الخبرات».

قلت له: «أنا أُقدّر ذلك، ولكن أخشى أنني لن أكون قادراً على الاستجابة لذلك». كنتُ أشتعلُ غضباً بالرغم من صوتي الهادئ. لقد كان يُعاملني وكأنه من المُفترض أن أكون مُطيعاً؛ ويجب عليّ القبول بتلك التسوية.

قال تاو: «يجب على الرجل الذكي أن يعرف مكانته في هذا العالم. هل سبقَ لك أن فكرت في مكانتك؟ هل فكّرت في الاحتمالات التي تواجهها؟ أنت تبدو كسلحفاة صغيرة تحاول تحطيم قارب مشترك بين بلدين ضخمين. ماذا سينتج من ذلك؟ بوضوح وبساطة، لن تكون قادراً على تحريك القارب مُطلقاً. لذا، من الأفضل لك أن تتجنب ذلك النزاع». ثم تابع بحدّية أكثر: «أيضاً لا تنسَ، ستكون دائماً مسؤولاً عن سلوكك، حتى هنا. إذا رسمنا لك دائرة صغيرة على الأرض، فلن يكون لديك أي خيارات سوى أن ترقص حولها لعشرين عاماً. إذا رسمنا دوائر إضافية، ستضيع حياتك بأكملها. لن نضطّر لأن نتعامل معك بشكلٍ مباشر، بإمكاننا أن نضعك ضمن لائحة، وقيمتك كإنسانٍ ستتقلص إلى أن تصبح لا شيء. بالنسبة لدولة مثل الصين، والتي لم تعانِ من نقص في عدد المواطنين، إذا نقص شخص أو زاد؛ لن يُشكّل فرقاً. لذلك، لا يستطيع المواطنون الصينيون إبعاد أنفسهم عن موطننا. فكّر بما قلته لك للتو. ليس عليك أن تُجيبني الآن».

كنتُ مُضطرباً؛ ولكن تمالكتُ نفسي لأجيبه: «دعني أسألك سؤالاً يا سيد تاو. هل تعتبر نفسك مُفكّراً؟».

«نعم».

«لماذا تتحدث فقط من أجل السُلطة؟».

«أرى أن هذا واجبي».

«إذن، واجبي يختلف عن واجبك».

«وكيف ذلك؟».

«أنا أومن بأنه يجب أن أتحدث باسم الضعفاء أصحاب الصوت غير المسموع».

قال: «أرجوك، فلتكن صادقاً مع نفسك. جميعنا يعلم لماذا كنتَ عدوانياً؛ لديك دوافعك الشخصية في إطالة تلك القضية. لا تفترض أن الشخص غير القوي أفضل من الشخص القوي. جميع الناس يفكّرون بالطريقة نفسها، لا يوجد سبب لخلق ذلك التمييز».

قلت له: «ولكن هناك مجموعة تم استغلالها من قِبل مجموعة أخرى».

قال تاو: «كما قلت، الشيء الذي كنتَ تفعله؛ إنما هو تدمير الذات وإزعاج الآخرين».

تناول تاو مجلة موضوعة على الطاولة، اسمها المنتدى الوطني، وقال: «هناك مقالة في هذا العدد كتبها سام وايد، الرجل الأبرز في مجال المراسلات في الولايات المتحدة. هل تعرف شيئاً عن أعماله؟».

أومأتُ برأسي: «نعم، قرأتُ روايته «المرأة التي تركتها خلفي»، واستمتعتُ بها جداً».

قال: «خذ هذه معك واقرأها بشكلٍ جيد. سترى كيف يُعرّف المُفكّر عن دوره من خلال خدمة بلده. لقد أصرّ سام وايد أن الأمريكيين يجب عليهم أن يثقوا برئيسهم، وأن يمنحوا البيت الأبيض الحرية حتى يتمكن من محاربة الإرهاب».

«ولكنّك صيني»، قلتُ له بريبة.

قال: «لقد كنتُ أؤدّي دوراً مشابهاً لدور سام وايد، والذي يتمثل بأن أجمع وجودي الشخصي مع مصالح بلدي وشعبي. إذا قدمتُ خدمة، ستكون تلك الخدمة لوطني الأم. إذا قاتلت، أقاتل أعداءها. أنا فخورٌ بنفسي وبدوري كمُفكّر من هذا النوع، لأنني أعلم كيف يبدو هذا العالم؛ وكيف يعمل أيضاً. لا تُحدّثني عن العدالة، والحرية والمساواة. كل تلك القيم العالمية المُزيفة؛ تجذّرت من الاستعمار والإمبريالية، وتم استغلالها لقمع المحليين والمُستعمَرين. في هذه الأيام، بأفضل

الأحوال؛ فإنها كلمات مُختصرة مرميةِ حول الناس الذين تمّ تضليلهم. إنها مُجرّد أكاذيب جميلة. أخبرني، بأي مرحلة من التاريخ قامت الولايات المُتحدة بتجسيد تلك القيم؟ صحيحٌ أن الناس هنا لديهم حرية التعبير، ولكن كلماتهم ضعيفة، مثل النزوة. في الحقيقة، هذا البلد يحتل المرتبة الأولى في العالم في الكذب والنفاق، ولكن ليس لدينا خيار آخر؛ عدا أن نتعاون معه بقدر الإمكان؛ لأنه قوة عُظمى، يمتلك أكثر من دزينة حاملات طائرات، وآلاف الأسلحة النووية الحربية. إن العالم في ساحة المعركة؛ حيثُ الأقوى والفائز يضع بنود المساواة والعدالة».

قلت له: «إذن، بالنسبة إليك، لا يوجد قيم عالمية مُطلقاً؟».

«بالطبع يوجد. ولكن ما هو عالمي حقاً، ليس أياً من هذه التجريدات والكلمات المُضلِلة».

«ما هو العالمي إذن؟».

«المال. تلك هي لغة العالم».

«أليس ذلك شيئاً نفعياً معيباً؟».

«إنها الحقيقة. هل سمعت بجدار الحماية العظيم؟».

قلت له: «أتعني الجهاز الصيني لحماية سياسة الإنترنت؛ الذي في طريقه للإنشاء؟».

أجاب: «صحيح. من كان يساعدنا في بناء النظام لتأسيس شبكة الفضاء الإلكتروني؟ بعض الشركات الأمريكية تطوعت لعمل ذلك. لأنهم جميعاً يريدون أن تكون لديهم حصة في السوق الصيني. إنهم يفهمون سياستنا؛ أي شخص يعمل ضدّنا لن يكون لديه فُرص اقتصادية في الصين. صدّقني، معظم الناس على استعداد أن يبيعوا آباءهم إذا كان هناك مجال لجني الأرباح. لقد أثبتَ التاريخ أن أياً من الدول الغربية ستتوقف عن نداءاتها المتعلقة بحقوق الإنسان؛ حالما تقوم الصين بضمان صفقات مُربحة لها. المال لا تصدر عنه روائح كريهة، ولا يشتبه بكونه مصدراً للعفن، وهو فوق ذلك؛ لا يُقهر. لذلك لا تكن مضللاً من الشعارات التي يتغنّى بها الآخرون. يجب أن تطّلع على ما يفعلونه».

قلتُ له: «سيد تاو، أنا أحترمك كباحث، ولكن يجب أن أعترف بأننا لا نتفق. ما أريده هو أن أكون صادقاً، مستقلاً، وأن يكون لديّ صوت عقلاني».

«ولكن لا أعتقد بأنك كنت عقلانياً مطلقاً. لقد قمتَ بالخلط بين حياتك الخاصة وبين حياتك المهنية».

«كلانا يعلم بأن هذا ليس صحيحاً».

«أنت مُتعنّتٌ جداً؛ إنك تعامل كل شيء في العالم على أنه أسود أو أبيض».

سألته: «وما الخطأ في ذلك؟ على الشخص أن يملك الأمانة».

«تلك هي الطريقة الأمريكية».

«إنها الصفة الإيجابية التي يملكها الأمريكيون. فطرتهم الأولى ليست قابلة للمساومة».

قال تاو: «لهذا السبب يثيرون المتاعب والمشكلات. إنهم مهووسون بالأفكار المُجرّدة، ويستخدمونها في قياس أي شيء وتغيير العالم».

«دون أفكار؛ لن يكون هناك رؤية. ودون رؤية، كيف ستتمكن من تطوير الأشياء؟».

أجاب: «لا تفترض بأنه بإمكانك أن تكون أمريكياً حقيقياً. إذا لم تُقوّم طرُقك، ستصبح تدريجياً منبوذاً أينما تذهب ولا مكان لك. ولن تكون لك أية فائدة حتى للأمريكيين. عندما تتقدم في السّن، في أفضل الأحوال؛ سينتهي بك الأمر في غرفة للعناية بالمرضى، ليس لديك أسنان ومصاب بسلس البول، ترتدي الحفاضات ليل نهار، بلا رفقة؛ عدا جهاز تلفاز صغير. حاول أن تجد روحك وأن تكون صادقاً مع نفسك. في هذا العالم، لا يوجد أحد يستطيع البقاء وحيداً، معزولاً عن أية مجموعة أو عن أي مجتمع. لن يستطيع أي شخص

أن يتقدم لوقتٍ طويل بتدمير علاقاته الجيدة مع الآخرين. من الأفضل دائماً السعي صوب التآلف والمودّة بدلاً من أن تكون مثيراً للمشكلات. الآن، خذ هذه المجلة معك، وفكّر بما قلته لك للتو. آمل أن نكون متفقين يوماً ما. بالمناسبة، هل رأيتَ هذا؟»، وأشارَ إلى صحيفة عالمية موضوعة فوق طاولة القهوة، كانت تحوي مقالة حول ابنة وزير أجنبي اسمها ليو، كان قد تم قبولها مؤخراً في جامعة ييل.

قلتُ له متحفظاً: «قرأتُ صحيفة اليوم».

وضع تاو إصبعه على خدها المتورّد وقال: «هل تعتقد أن جامعة ييل قبلتها لأنها مؤهلة للقبول فقط؟».

قلت له: «لا يبدو ذلك».

«هذا صحيح. لقد قبلوها لأنها ستكون ذات منفعة للجامعة. بالمنطق نفسه، عليك أن تجعل من نفسك ذا منفعة للدولة. هكذا يدرك المرء قيمته؛ دون وجود دولة تدعمك، لا قيمة لك. أنت رجلٌ ذكي. حاول أن تكتشف كيف جعلت تلك الفتاة من نفسها ذات منفعة».

أجبته معترضاً: «بالرغم من ذلك، لا أعتقد أنها مفيدة لتلك الدرجة، إنه والدها: الشخص المهم».

«هذا أيضاً جعلها مفيدة لجامعة ييل، أليس كذلك؟».

«حسناً، أتمنى لو أنني وُلدتُ لعائلة تملك السلطة كهذه. لقد فات الأوان الآن. لا أستطيع لوم والدي لمنحي أصولي المتواضعة».

ضحكنا كلانا.

تركت قهوته بعد أن ابتلعت الشاي ذا الرائحة الفوّاحة. على الرغم من أنني كنتُ مضطرباً قليلاً، عليّ أن أعترف بأنني استمتعتُ بتبادل الكلمات مع نائب القنصلية، السيد تاو. نادراً ما أجريتُ محادثة قوية مثل تلك المحادثة مع مسؤولين صينيين، معظمهم بدوا مُقيدين ومُترددين، وظهروا مؤدبين ومعتدلين في تعبيرهم عن آرائهم أو في مواجهة الآخرين. لقد كانوا مشهورين بسبب عدم إبدائهم أي حدّة. (بلا أي حراك كالهضبة، بدون إظهار أية مشاعر). كان تاو عبارة عن استثناء.

خلال الطريق، قرأتُ مقالة سام وايد، وكانت غير مُقنعة؛ جادل الكاتب بأن الديمقراطية تستطيع، ويجب عليها، أن تُصدّر وكأنها مهنة الغرب في التحضُر، ولذلك، احتلال العراق كان هدفه تأسيس أول دولة عربية ديمقراطية في الشرق الأوسط. لقد كانت أيضاً طريقة لاستقرار المنطقة والحفاظ على السلام وعلى النظام العالمي؛ لذلك يجب على الناس أن

يثقوا بالسياسيين المحترفين، وأن يمنحوا البيت الأبيض وقتاً أطول لإحراز التقدُم والفوز بالحرب تدريجياً.

كنتُ مُحبطاً، لأنني كنتُ أحبُ روايات سام وايد، ولكن تلك المقالة كانت توحي بالرجعية والاستعمار. أتقبل وايد كمُفكّر، ولكن لم يكن من نوع الأشخاص الذين أريدُ أن أصبح مثلهم. أردتُ أن أكونَ شخصاً لا يتردد بكشف الأكاذيب والنفاق، أو، إذا لزم الأمر، أن أتحدث ضد بلدي (إذا كان ما زال لديّ بلد أنتمي إليه). ورغم ذلك، أنا أفهم أنه تم اختياري كمُفكّر جماهيري بشكلٍ رئيس؛ لأن الناس يرغبون بأن يكون لديهم صوتٌ صادق في وسائل الإعلام، فعن طريق المؤهلات التي أمتلكها، لم أكن مفكّراً أبداً. كل شيءٍ على حاله كما كان في السابق، الآن تم التصويت لصالحي بشكلٍ رسمي، لم أستطع التوقف عن إطالة التفكير بهذا الدور، وكيف يُمكنني تحقيقه.

الفصل السابع عشر

بعد مضي يومين، أرجعتُ المجلة عبر البريد إلى نائب القنصلية، السيد تاو، مع رسالةٍ مرفقة. لم أستطع أن اتفق معه حول خدمة الوطن دون شروط. سألته في الرسالة: «ما هو الوطن؟، بالنسبة لي، إنه ليس أُسطورة، أو تمثالاً مقدّساً، ولكنه جهاز، مثل مجموعة من الآلات (كل وزارة تمثل آلة). سيكون ضرباً من الجنون أن نعتبر الوطن كالحمية الغذائية، وأن نجعله يتحكم بحياة الإنسان. بالإضافة إلى ذلك، أنا لا أثقُ بأية دولة؛ إذ يُمكن أن تندفع بسرعة في أي وقت. لذلك السبب كان إي.إم فوستر؛ يأمل أن تكون لديه الجرأة والشجاعة ليخون بلاده؛ إذا اُضطر للاختيار بين خيانة صديقه أو خيانة بلاده».

تابعت: «ماذا لو ارتكب بلدك الإبادة الجماعية؟ ماذا لو أصبح بلدك بلداً فاشيّاً؟ في مثل تلك الحالات، يجب على المواطن المحترم أن يقف بوجه الحكومة. لقد علّمنا

التاريخ أنه لا يوجد دولة مؤهلة لأن تكون أفضل أخلاقياً من أقرانها. دور المُفكّر لا يكمن في خدمة البلد، بل في أن يحافظ على مراقبته عن كَثب، حتى لا تتحول إلى دولة ظالمة وطاغية ومُدمّرة. لذلك، وكَمُفكّر، على الشخص أن يحافظ على العدالة والحريةِ والمساواة كقيم عالمية. الأشياء المجردة، كما هو حال هذه المفاهيم، وبالرغم من أصولها الإشكالية، وبالرغم من تاريخ الغرب المشكوك به كمقياس لها، إلا أنها ما زالت ضرورية لتحسين وضعنا الاجتماعي وجعلنا إنسانيين أكثر. بالإضافة إلى ذلك، يجب أن أُؤكّد أنه لا يمكن وجود مُفكّرين حقيقيين على اتفاق مع السلطة، ويسمحون لها وللتغيرات السياسية أن تتحكم بما هو جيد أو سيئ في حياتهم، ولا يجب عليهم أيضاً أن يكونوا كالشمّاعة لبعض اللوردات. سيد تاو، هل سبق لك أن أفزعتَ البلد الذي تقوم بخدمته؟ ألم يقُم ذلك البلد بتدمير حياة الملايين؟ هل سبقَ لذلك البلد أن تردد في ابتلاع أو سحق حتى هؤلاء الذين أحبُوه؟ لقد ادّعيتَ أن الشخص دون وطن لا قيمة له، ولكن كم عدد الأشخاص الذين أصبحوا لا قيمة لهم بسبب أوطانهم؟ إن الوطنية كلمة مُزدراة في قاموسي الشخصي: إنها تربط بين النُدرة الروحيةِ، والعمى الفكري والكسل والجُبن الأخلاقي. أليس هذا فظيعاً؟ أن تسمح للدولة فقط

بأن تُشكّل جزءاً من أساس وجود الإنسان. أخيراً وليس آخراً، لا أُصدّق أن المال هو القيمة الكونية، كما ادّعيت؛ لا أُصدّق بأنه يستطيع شراء كل شخص وكل شيء. يوجد قيم أثمن من الذهب».

كان عليّ أن أكتب له لأُعبّر عن نفسي وعن رأيي بشكلٍ واضح، وإلا فمن المحتمل أن يفترض أنني أوافقه.

بعد أن تم إرسال الرسالة، أصبحتُ مُضطرباً أكثر، أنا أعلم أن الأمور لن تتغير أبداً، من الآن ولاحقاً، أصبحتُ عدواً من وجهة نظر الحكومة الصينية. لا يهم ماذا سيحصل، لم أكن خادماً للوطن في السابق، لأنني أؤمن بأن الدولة والفرد متساويان.

بعد حوالي أسبوع، سمعتْ كيتي من رودولف بأن الدعوى التي أُقيمت ضدي كانت على أُسُس طارئة، ما يعني أن المحامي سيتلقى أتعابه فقط إذا تم ربح القضية أو تسويتُها.

إذا كان المُدّعى عليه لا يملك المال، ستضيع كل الجهود. شجّعتني تلك الأخبار وأثلجت صدري. أستطيع أن أرى أن هايلي بدأت بذلك الادّعاء أساساً لتضايقني وتُرعبني. والأفضل من ذلك، أشار الاتفاق الطارئ بأن لاري لم يكن متورطاً مالياً بتلك القضية. أخبر رودولف كيتي بأنه من المحتمل أن يتوقف محاميهم عن تلك القضية؛ إلا إذا قام المُدّعون بدفع أتعاب

بقيمة ثمانية آلاف دولار. يُخبرني حدسي بأن هايلي غير مستعدّة للقيام بتلك المُخاطرة. لقد كانت دوماً ذكية في صرف المال، ولم تفتح دفتر شيكاتها بهذه السهولة.

بسبب نصيحة كيتي، قمتُ بشراء زجاجة من مشروب الفودكا الروسية الصنع لرودولف.

عادت كيتي إلى القنصلية الصينية لتحاول مجدداً بشأن التأشيرة. ولحُسن حظها؛ هذه المرة وافقوا لها على التأشيرة. بعد مضي يوم من إخبارها لي بتلك الأخبار الجيدة، ذهبتُ إلى مكتب التأشيرات خارج القُنصلية لأجرب حظِي أيضاً، على أمل أن يمنحني جواز سفري القديم والفعال لمدة شهر؛ امتيازاً للحصول على التأشيرة، التي أستطيع بها مرافقة كيتي إلى مقاطعة هينان؛ وزيارة والدي بعد ذلك. اصطففتُ في طابور لمدة خمس وأربعين دقيقة، وصلتُ إلى نافذة في مكتب التأشيرات. قام الشاب الجالس خلف زجاج النافذة بتصفح سريع للنموذج الذي قمتُ بتعبئته، وألقى نظرات سريعة على أوراقي، ثم سألني: «أين جواز سفرك الصيني؟».

أجبته: «أرسلته للسفارة قبل أربعة أشهر بغرض إعادة التجديد؛ ولكنكم لم تعيدوه لي بعد». أخبرته بالحقيقة: «أنا الآن مواطن أمريكي. لماذا تريدون جواز سفري الصيني القديم؟».

أجاب الموظف: «لأنك لم تُولد في أمريكا. أترى هنا، حتى جواز سفرك الأمريكي يقول بأنك وُلدتَ في الصين، في مقاطعة جيلين، ولكن دون جواز سفرك الأصلي؛ لن تتمكن من إثبات ذلك. يجب أن نؤكّد أنك مواطن صيني بالأصل».

سألته: «هل بإمكانك التأكد إذا كان ما زال جواز سفري في قنصليتكم؟».

ضغطَ على لوحة المفاتيح؛ بينما كان يقرأ الشاشة خاصته. أغلق الفتحة الصغيرة من نافذته وتحدّثَ إلى امرأة في منتصف العمر. أصبح صوته خافتاً. نظر كلٌ منهما إلى الشاشة، يومئان برأسهما ويعلّقان على شيءٍ ما.

بعد مرور لحظات، فتح الشاب النافذة وقال لي: «ليس لدينا هنا جواز سفرك».

سألته: «هل أنت متأكد؟ لقد أرسلته إليكم منذ أربعة أشهر. هذه نسخة مصوّرة منه».

«هذا لا يُثبت أننا استلمناه. نريد النسخة الأصلية».

«اللعنة على ذلك، لا يمكنك القول بأنني المسؤول عن اختفائه».

«ولسنا أيضاً مسؤولين عن ذلك».

كان رأسي يدور من شدّة الغضب والارتباك، لكن لم أعرف كيف أُكمل. يمكنني فقط التحديق في وجهه الهزيل.

تابع قوله: «حسناً، إذا كانت أوراقك ناقصة، أنا لستُ مُخوّلاً بمتابعة العمل على طلبك. اذهب للأعلى، إلى النافذة رقم أحد عشر، واعثر على أحدٍ يساعدك». ذهبتُ إلى الطابق الثاني، وسلّمتُ أوراقي إلى امرأة ترتدي النظارات في الثلاثين من عمرها، وقالت لي الشيء ذاته: دون جواز سفري الأول؛ لن أتمكن من الحصول على أي تأشيرة. «حسب قواعدنا وتعليماتنا» قالت مُفسرة، كانت تبتسم طوال الوقت، «هناك طريقة واحدة للأشخاص الذين في مثل وضعك لكي يحصلوا على التأشيرة». كان وجهها الناعم يُذكّرني بمزهرية فاخرة مصنوعة من البورسلان.

سألتها: «ما هي تلك الطريقة؟».

أجابت: «نستطيع منحك وثيقة زائر؛ يُمكن استخدامها لمرة واحدة فقط. حالما تعود إلى الصين، يجب أن تبلغ قسم الشرطة التابع لمقاطعتك، وأن تلغي معهم جنسيتك الصينية. ثم تعود إلى هنا وتقوم بتقديم الإثبات الرسمي لنا. بعد ذلك، سنُعاملك كمواطن أمريكي رسمي، وسنقبل طلب التأشيرة الخاص بك».

قلتُ لها: «ولكن بما أنني أصبحتُ في الواقع مواطناً أمريكياً؛ هذا يعني أنه تم إلغاء جنسيتي الصينية، لأن الصين لا تعترف بازدواجية الجنسية. بإمكانك تأكيد الإلغاء بكل سهولة».

قالت: «القواعد هي القواعد، وعلينا أن نتّبعها. يجب عليك أن تقوم بذلك في مركز الشرطة في بلدك. سيصدرون لك تصريحاً للخروج ستستخدمه للعودة. هل ترغب بالقيام بذلك أم لا؟ إذا كنت ترغب بذلك، قم بتعبئة هذا النموذج، واكتب بلاغاً على هذه الصفحة، حيثُ ستُقسم فيه بأنك ستقوم بإبلاغ مركز الشرطة، وأعطني أربع نُسخ من صورتك الشخصية». وسلّمتني النموذج وورقة تحمل العنوان التالي «إفادتي». من المفترض أن أقوم بتعبئة النموذج، وأن أكتبَ وصفاً مُختصراً عن وضعي؛ مع تقديم بلاغ يُفيد بأنني سأذهب إلى مركز الشرطة حالما أصبح موجوداً في الصين.

شعرتُ بالانسياق السريع والمُفاجئ، وبالشوق لرؤية والدي، قلتُ لها: «حسناً، سأقوم بفعل ما قلتِه وسأعود لك سريعاً». بقيت تلك الموظفة تبتسم وقالت: «أراك لاحقاً. بإمكانك أن تأخذ صورة لك في الطابق السفلي».

وحتى تلك اللحظة؛ بدا وجهها ودوداً تماماً بخلاف الوجه الإداري المُتعارف عليه لأي موظف.

قلتُ لها: «شكراً».

في اللحظة التي خرجتُ بها مبتعداً عن النافذة، أدركتُ أنه لا يمكنني تسليم نفسي لشرطة المقاطعة؛ إذ حالما أصبح في قبضتهم، يجب أن أعترف بـ«جرائمي» في الخارج، ومن الممكن أن ينتهي بي الأمر بتوقيع اتفاقيةٍ ما، وإلا لن يدعوني أعود مرة أخرى. بإمكانهم أن يجبروني أن أتعاون معهم، أو حتى أن أعمل معهم كشبه عميل أو كمُخبر. باختصار، حالما أصبح موجوداً في منطقتهم، سيغلقون الأبواب، وسيقومون بتعذيبي متى أرادوا ذلك، سأكون مثل الأطرش الأخرس الذي لا يسمع أحد احتجاجاته؛ بغض النظر عن كمية الأذى الذي يتعرّض له. لديّ صديق تم احتجازه في إحدى المرات في مقاطعة جانزو، كانت الشرطة قاسية جداً معه؛ لدرجة أنهم كانوا يضربونه بعصا غليظة، ويقفون فوق قدميه ويجبرونه أن يُغني بعض الأغاني، وأن يشتم ويلعن نفسه. لقد أُصيب بالصدمة، وحتى بعد أن هرب من الصين، وخرج مغترباً إلى غرب أوروبا، لم يكن يتوقف عن الحديث عن تلك التجربة المُهينة التي تعرّض لها؛ في الراديو وفي التلفاز، ولأي شخص يمكن أن يستمع إليه. إذا فقد عقله قليلاً، سيخبر العلن بأن الصين كإمبراطورية شريرة، يجب أن تتجزَأ إلى دُويلات صغيرة، الأمر الذي كان لاوتسه يطالب به في كتابه «تاو تي شينغ».

بشكلٍ واضح، تلك الورقة المُسمّاة بتصريح الزوار، كانت فقط عبارة عن مصيدة للأشخاص الموضوعين على اللائحة السوداء. شعرتُ بموجة من الخوف أصابتني في صميمي؛ لقد كان نوعاً من القوة أن قدمي ما زالتا تحملانني. ألقيتُ بالنماذج في سلّة المُهملات وغادرتُ مكتب التأشيرات، كان عقلي يدور في دوامة.

في طريق العودة إلى مترو الأنفاق، كنت أقول لنفسي: «اللعنة على ذلك، اللعنة على الصين المتوحشة». ما زلت مُشبعاً بالحزن، كنتُ أتنفس بصعوبة بالغة، وعنُقي يخفق بسرعة. لقد أمطرت السماء مطراً خفيفاً، وكانت أضواء الإنارة الممتدة على طول الشارع مُغبّشة أكثر مما كانت عليه قبل ثلاث ساعات، كان وجهي مبلولاً بكل من المطر والدموع، والتي لم أهتم بمسحها.

بالرغم من شكوكي حول كاي مينغ، أخبرته في ظهر اليوم التالي حول مشكلتي المتعلّقة بالتأشيرة؛ لقد ساعدني بمثل هذا الأمر من قبل، والآن بعد أن تورّطتُ بقضية هايلي لوحدي، اكتشفتُ أنه مدينٌ لي. استمع إليّ بانتباه ثم قال: «في الحقيقة، ما زالت هناك طريقة يمكنك من خلالها الحصول على التأشيرة».

سألته بحماس: «كيف؟».

أجاب: «اعثر على شخص يرغب بأن يكفلك، شخص منصبه على الأقل نائب وزير. هذه سياسة جديدة. إذا أردت الحصول على التأشيرة، يجب أن تزيل اسمك من على اللائحة السوداء أولاً، ولا أحد يستطيع مُساعدتك إلا مسؤول ذو نفوذ كبير. بالطبع، سيجب عليك كتابة نقد ذاتي تُعبّر فيه عن أسفك الشديد؛ وأن تعدهم بأنك ستلتزم بالحدود ولن تتجاوزها مجدداً. ولا تنسَ أيضاً، أنه سيكون لديهم الحق بأن ينشروا اعترافاتك بأي وقتٍ يريدون».

تضاءل حماسي حالما أدركتُ أن كاي مينغ كان يسخر بقوله هذا. لأنه يعلم أنني لا أقبل أبداً بتلك التنازلات.

قلتُ له: «إذاً، يجب عليّ أن أتصرّف هنا حسب القواعد والتعليمات، وإلا خسرتُ كفيلي».

أجاب كاي مينغ: «هذا صحيح».

قللتُ من أهمية هذا الأمر قائلاً: «حسناً، أنا لا أعرف شخصياً أيّ مسؤول كبير، وعليه؛ فإنني سأنتظر اليوم الذي ستصبح فيه مسؤولاً كبيراً وتستطيع أن تدعمني».

قال ضاحكاً: «لا، لن أفعل ذلك لشخص عنيد ومثير للمتاعب مثلك».

شعرتُ بخوفٍ شديد. من الآن ولاحقاً؛ يجب عليّ أن أبقى منفصلاً عاطفياً عن الصين، وأن أبذل جهدي لأسيطر على آلام الضياع والحنين للوطن، كما نصحني أحدهم بكل وقاحة في إحدى المقالات: «أبعد الصين عن تفكيرك».

في منتصف شهر نوفمبر، وصلت إلى كيتي أخبار سارّة أُخرى. لقد قامت الأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية؛ بمكافأتها بمنحة دراسية تُمكنها من الإقامة في بكين، وإجراء البحوث فيها لمدة ستة أشهر. أعرف أنها قامت بالتقديم، ولكن لم يتوقَع أحدٌ مِنا أنها ستحصل عليها، لأن طبيعة بحثها كانت قائمة على كشف الخفايا الدنيئة التي يقوم بها نظام الإصلاح الاقتصادي الصيني؛ أصبح النظام الطبي في الريف مكاناً للفوضى والخراب في السنوات الأخيرة.

إذن، فقد أعطيت كيتي تلك المنحة. وكنت أتساءل إذا كان هنالك رابط بين ذلك وبين علاقتها معي... هل أراد المسؤولون أن يبعدوها عني ليجعلوني أشعر بالعزلة أكثر، كي أصبح مُعرّضاً للهجوم أكثر، وبعيداً أكثر عن التيار الإعلامي هنا. دون أن يكون معي صديقٌ أمريكي، سيسهل عليهم أن يتحكموا بي، ومن المؤكّد أنهم يعتقدون أنه دون تدخُلها، لن تُعير وسائل الإعلام الإنجليزية انتباهها لأي

عملٍ لي. كان ذلك مُجرّد حدس فقط، ولا أملك طريقة لإثباته. ومع ذلك، كنتُ مُتأكداً أن القنصلية قد أصدرت تأشيرة لها بنية إبعادها عني. (لقد كان دائماً صعباً على المسؤولين أن يتعاملوا مع أجنبي، خصوصاً غربي. في العموم، إنهم يعاملون رجلاً صينياً لديه زوجة أجنبية ببعض التهذيب؛ وذلك حفاظاً على مظهرهم الخارجي أمام الناس). بلا شك، إن بعض المسؤولين كانوا على اتصال مع جياو فانبنغ وجو بينغ.

بقيتُ في مزاجٍ سيءٍ لعدة أيام، تحاوطني الشكوك من كل جهة؛ حول إذا كان يجب عليّ أن أنخرط مع هؤلاء الثلاثة. لقد جعلتني الكآبة والغمة أعاني من عسر الهضم وحرقة شديدة؛ وصلت حتى حلقي، وكنتُ أستيقظ في ساعات الصباح المبكر ولا أستطيع معاودة النوم مُجدداً. عندما كنتُ أتحدّثُ إلى كيتي، لم أكن قادراً على التحدُث معها إلا بسخرية. وكانت تتجاهل بذاءتي في الكلام لبعض الوقت، ثم ذات ليلة، لم تستطع أن تحتمل أكثر؛ وصرخت في وجهي قائلة: «توقف عن إلقاء مشكلاتك في وجهي هكذا».

تابعتُ في هذا الشجار وقلتُ لها: «من الذي يلقي المشكلات وعلى من يلقيها؟».

قالت بهدوء: «لا تتصرَّف وكأنك متفاجئ، لم أكذب يوماً بشأن مشاعري. أخبرتك منذ اليوم الأول الذي التقينا به؛ بأنني من المحتمل أن أرحل في أي وقت. أضف إلى ذلك، بإمكاننا أن تكون لدينا علاقة عن بُعد، ألا تعتقد ذلك؟».

قلت: «حسناً، سنجرب ذلك».

كنتُ أودّ أن أقول لها بأنني أحتاجُ إليها بجانبي أكثر من ذي قبل، ولكنني فكرتُ بأن لا فائدة من قول ذلك، مُدركاً أنه دون جدوى. بالنسبة إليها، كانت تلك فرصةً ثمينة لا يجب التفريط بها، وستسمح لها بنشر كتابها في النهاية، وهذا بدوره سيفضي إلى حصولها على الترقية. هناك جزء كبير من مهنتها يتوقف على المجال العملي الذي ستقوم بتطبيقه في الصين. قلتُ لها مُضيفاً: «أتمنى لو أننا لم نلتقِ أبداً».

«أنا آسفة يا دانلن». قالت ذلك بنبرة حزينة، وسمعتُ التنهدات وراء كلماتها.

قالت: «إذا قابلتَ امرأةً أخرى؛ لا تتردد بأن تبقى معها. أنا أعلم بأنني لستُ المرأة المناسبة لك، ولكن سأبقى أتذكرك بلهفة وشوق كبيرين».

لم أقل شيئاً، خوفاً من أن أذرف الدموع إذا تفوهتُ بكلمة.

كيف لي أن أصبح عاطفياً لهذه الدرجة؟ ألم أُقرر منذُ فترةٍ طويلة بأنني لن أتزوجها؟ لماذا لا أدعها تذهب وشأنها؟ لقد أدركتُ أن مشاعري نحوها قد تغيّرت إلى حدٍ كبير في الأشهر الأخيرة.

كان عليها العمل على مشروع رسالتها، لذا، ذهبتُ بعيداً لأشاهد أخبار المساء. كانت عيناي مُوجهتين نحو التلفاز؛ ولكنني كنتُ بصعوبة مُدركاً لما كان يقوله المذيع. أغلقتُ التلفاز وحاولت قراءة رواية «هذه الأرض للبشرية». لمؤلفها بروميديا تاور، كانت قد نصحتني كيتي بقراءتها من قبل. لقد بدأتُ قراءتها للتو، وقد كنتُ مستمتعاً بها، ولكن الآن لم أعد أجدُ نفسي داخل القصة. تزاحمت الكلمات أمام عيني، ولم تعد تُعبّر لي عن أي منطق.

الفصل الثامن عشر

في صباح اليوم التالي؛ بينما كنتُ في العمل، صادفتُ جياو فانبنغ مرةً أخرى، كانت سترته الزرقاء تطيرُ في الهواء بينما كان يتحرك. تساءلت، لماذا هذا المحتال موجود هنا؟ وقفَ ونظرَ إليّ نظرة فاحصة، كانت عيناه الصغيرتان تُشعّان كزوج من رؤوس السهام الصغيرة. ثم استدار وذهب إلى الأسفل؛ حيثُ يقع مكتب كاي مينغ، كان يضع يديه متشابكتين خلف ظهره. في اللحظة التي دخل بها جياو مكتب كاي مينغ، علت ضحكات لوشينغ في المكان. أتوقع أنّ ثلاثتهم يعرفون بعضهم البعض جيداً الآن، ومن المُحتمل أنهم يناقشون العمل في مجال النشر الذي خططوا للتوسع فيه مع بعضهم في بروكلين. جعلني حضور جياو متوتراً وقلقاً، بالرغم من مغادرته بعد مضي ساعة. كنتُ خائفاً من أن تصبح علاقته برئيسي في العمل وطيدة جداً. أحياناً يتصرف كاي مينغ مثل شخصٍ اجتماعي مُغفّل ويقوم بتشكيل الصداقات بشكلٍ عشوائي. حاولتُ مراراً

تذكيره بأن يكون حذراً، ولكنه كان يقول بأن إدامة العلاقات والاتصالات مع الآخرين أمر مهم في مجال عملنا.

عند حلول منتصف النهار، جاء إلى مكتبنا رجلٌ ضخم ذو شعرٍ أحمر كثيف. عرّف عن نفسه باسم جاي تروتون، من وزارة الأمن الداخلي في الولايات المتحدة. كان لباسه أنيقاً جداً: بدلة بلون أزرق غامق، وربطة عنق حمراء بنقشة من نوع بيزلي، وحذاء قماشي لامع، كانت جبهته ممتلئة، ويرتدي قبعة، تحسبه وكأنه قبطان طائرة جوية، جبهته الكبيرة، ووجهه الرخو، وأنفه المستقيم، وذقنه المربع تجعلك تعتقد بأنه بنجامين فرانكلين. يا لهذا الوجه الأمريكي الكلاسيكي... لا بد أنه ينحدر من سلالة الأوائل المؤسسين لدولة أمريكا.

ألقى رئيسي في العمل التحية على تروتون؛ كما لو كان يتوقع قدومه، وطلب مني الانضمام إليهما في حديثهما، كمترجم. لدى كاي مينغ معرفة قوية في اللغة الإنجليزية، ولكنه اشترك ذات مرة في مسابقة للطهو، جعل جميع من في الغرفة يضحك عالياً؛ عندما كان يحاول قول «تحدث بصلب الموضوع»، ولكن بدلاً من ذلك؛ فقد قال «اقطع الجبنة»، ومنذ تلك اللحظة، يستخدم دائماً مُترجماً ليساعده. حتى عندما يتحدث الإنجليزية إلى شخصٍ ما داخل مجموعة

خاصة، بدت لغتُه جامدة وغير ثابتة. لذلك، كان يتجنب استخدام بعض الكلمات الطويلة لغوياً في اللغة الإنجليزية مثل «اختصار»، «غير واضح»، «هشاشة العظام»، «عفا عليه الزمن»، والتي اعتاد أن يُهملها...

والأسوأ من ذلك، وبعد مضي سنة من فشله في جملة «اقطع الجبنة»، كان يشعر بالخوف من التحدُث أمام الحضور في كل مرة، مصحوباً بتقلُصات لا إرادية في عضلات وجهه وبعض التشنُجات في عينيه.

حرّك تروتون أصابعه فوق فنجان من القهوة يتصاعد بخاره للأعلى، وقال بأنه جاء فقط ليتحدّث مع رئيسي في العمل. في الحقيقة، عندما جلستُ وبدأتُ بالترجمة؛ لم يتحدثوا حول شيءٍ مهم أبداً. كان تروتون يتكلم الماندرين بسطحية، ويستخدم بعض الكلمات الصينية من وقتٍ لآخر خلال حديثه. مثل «تقريباً» و «لا مشكلة» و«مشاكل لا نهاية لها». لقد كان في الصين قبل سنتين، وأُعجب بمدينة داليان؛ لأنّ مناخها يُذكره بمدينته؛ بوسطن.

كنتُ أعتقد أنّ بوسطن أبرد كثيراً في الشتاء، وأكثر رطوبة في الصيف من مدينة الصين الساحلية، لكن لم أتدخل.

قال كاي مينغ بأنه أيضاً أُعجبَ بمدينة داليان؛ عمّته

تعيشُ هناك، وتعمل في مصنع فايزر الذي يصنع منتجات صحيّة خاصة للحيوانات.

كنتُ محتاراً؛ لماذا يأتي مسؤول مثل تروتون، فقط للدردشة مع كاي مينغ؟ لقد كانا يتحدثان حول الوضع في الصين. قال رئيسي في العمل: «كنتُ هناك قبل ثلاثة أشهر»، وقمتُ أنا بترجمة كلامه.

تابع: «لقد تغيّر البلد كثيراً؛ حتى شعرتُ أنني كالأجنبي عندما تمشيتُ في شوارعها. لقد تهتُ عن الطريق عدة مرات. أنقذني الإله حينها، كان الصينيون يعبرون الطريق بصورة مخالفة لأنظمة السير متى أرادوا ذلك، ولكن لم أجرؤ على القيام بذلك، ما جعل الناس يضحكون عليّ. بإمكانهم القول بأنني زائر من الخارج».

قال تروتون مبتسماً دون أن يفتح فمه، كما لو كان يتذوقُ شيئاً ما بحذر: «لا شك في التغييرات الهائلة التي حدثت. إن الأمور تتطورُ بشكلٍ أفضل هناك».

تابع كاي مينغ: «لكن عندما تحدثتُ إلى جيراني وأصدقائي القُدامى، وجدتُهم كما هم لم يتغيّروا؛ لم تتغير عقولهم وطريقة تفكيرهم أبداً».

وافقه تروتون قائلاً: «هذا مؤكّد، يجب أن نمنحهم بعض الوقت. إن الصين تسيرُ في المسار الصحيح».

قال كاي مينغ: «نعم، إنها تتقدم ببطء».

كنتُ متأكداً أن كاي مينغ فهمَ ما تحدّث به تروتون بشكلٍ مثالي، ولكنه لم يكن يُجيبه حتى أُنهي الترجمة؛ بدا أنه كان يرغب بالمزيد من الوقت ليُفكّر قبل أن يتحدث. انتقلت تلك المحادثة لتتمحور حول العلاقة بين الصين والولايات المتحدة. لقد توافقا بأن البلدين يحتاجُ كلٌ منهما الآخر، في الحقيقة، كلٌ منهما يعتمدُ على الآخر. قال تروتون: «لقد أصبحت الصين حليفاً لنا بشكل ما». بالرغم من أنني كنتُ متفاجئاً، نقلتُ كلماته حرفياً. شدّد على أن الصين بصفتها شريكاً للولايات المتحدة، كانت طبعاً مثيرة للجدل وإشكالية، ولكن لم يكن هنالك بديل، لقد وجب علينا العمل مع الحكومة الصينية بطريقة تُحقق المنفعة لكلا الطرفين. بالتأكيد نرغب برؤية الصين كدولة ديمقراطية، ولكن ذلك مستحيل الحدوث حالياً، لذا، كان يجب علينا العمل بما هو موجود على الساحة، ولا يجب أن نقوم بتعطيل سير الأمور والضغط بشكلٍ كبير على المنطقة. إذا انهارت الحكومة الصينية، سيعاني الاقتصاد العالمي بأكمله جرّاء ذلك، وسيكون هنالك الكثير من المجاعات واللاجئين في كل مكان. لذلك، يجب الحفاظ على الوضع الراهن حتى الآن.

ما زلتُ لا أعرف لماذا جاء تروتون إلى هنا. لقد بدا وكأنه يُمتّع نفسه، ولكننا بدونا كالغرباء عنه، وكان هو يتصرف بشكلٍ ودودٍ جداً، وكأننا أصدقاء قدامى. في حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف، عرَض عليه كاي مينغ أن يأخذه لنتناول الغداء، وقبلَ تروتون الدعوة بطيب نفس.

ذهبنا ثلاثتنا سوياً إلى المطعم التايلندي الواقع أسفل الشارع. طلب تروتون حساء الدجاج بجوز الهند، قائلاً بأنه يجب أن يراقب وزنه دائماً. طلبنا كلانا أنا ورئيسي في العمل طعام الباد التايلندي. تناولتُ على الفطور قطعةً من الدونات، لذا، كنتُ جائعاً ورغبتُ بأن يكون اللحم موجوداً في طبق المعكرونة خاصتي. بينما كان كاي مينغ يلتقط التوفو المقلي، والذي لم يعتد على أكله في المنزل؛ لأن زوجته تعاني من حساسية ضد منتجات الصويا. بدلاً من المشروب الكحولي الذي طلبه كل منهما، اخترت أن أشرب هريس المانجو. كنتُ لا أزال أتابع الترجمة لكلٍ منهما.

جاء الطعام الذي طلبناه سريعاً. «هذا ممتاز» قال تروتون. كان فكّه الثقيل يتحرك إلى كلا الجانبين كلّما كان يمضغ الطعام، ويدفعُ خديه بلسانه من وقتٍ لآخر. ظهرت بوضوح على أنفه عروقٌ ذات لونٍ أُرجواني كالشُعيرات، وكانت فتحتا أنفه مليئتين بالشعر الأحمر.

استأنف هو وكاي مينغ الحديث حول العلاقة بين الصين والولايات المتحدة. قال تروتون: «نحنُ نتفهم أن وكالتكم تتعامل مع الأخبار بشكلٍ مختلف عن الوكالات الرسمية في الصين، و بين حين وآخر تسببون للحكومة الصينية بعض المشكلات».

أجاب كاي مينغ: «لسنا مُضطرين للتعامل مع الرقابة هنا، نريد أن نبقى مستقلين، ولكن هذا ليس سهلاً. نحن نؤمن بدعم بعض مُسببات الديمقراطية، مثل حرية انتخاب رؤساء القُرى في الريف الصيني ومجموعة تيانانمين». شرحتُ لتروتون أن تلك الأخيرة عبارة عن مجموعة من النساء اللواتي فقدن أطفالهنَ بسبب القمع العنيف للحركة الطلابية عام 1989، والتي استمرَت بمناشدة الحكومة لإصدار اعتذار عام وتقديم التعويضات للشعب.

أجاب تروتون: «أستطيع أن أتعاطف، ولكن كما قلتُ سابقاً، إنّ الصين دولة لا يمكننا أن نبتعد عنها بينما نحن في صراع. لقد أصبحت تلعب دوراً مهماً في الساحة الدولية، نحتاج للتعاون معها في الوقت الحالي. لذلك، يجب عليكم أيُها الأصدقاء المساعدة في تطوير وتقوية علاقتنا مع دولتكم» ابتسم، والتمعت عيناه الخضراوان.

شعرتُ بأنه من الغريب أنه استخدم مصطلح «دولتكم»، مع

العلم بأن كاي مينغ حصل على الجنسية منذُ سنوات، ويدعو نفسه بالأمريكي، وأنا تلقيتُ جواز سفري الأمريكي مؤخراً. (عادةً كان رئيسي يهزأ من أصدقائه الصينيين الوطنيين، بقوله: «أتعلم ماذا؟ إن الصين هي بمثابة مرض بالنسبة إليك، أو قد تكون سبب اعتلال قلبك، أو سجنك الروحي. من الأفضل لك أن تُخفف من إدمانك على الوطنية»، وكان أصدقاؤه يَردّون عليه بقولهم إنهم لا يؤمنون بالترهات حول المواُطنة العالمية. «لا يهم أين تذهب، لا تستطيع أن تُخفي جلدك الأصفر»). كنتُ متُأكداً أنّ تروتون كان يعلم أننا مواطنان أمريكيان، ولكن لمَ يعتبرنا من أبناء ذلك البلد؟

حاول رئيسي في العمل تجُنبه قائلاً: «هل تعني بقولك «العلاقة» أي «الصداقة»؟».

قال تروتون: «حسناً، يمكنك قول ذلك».

أجابه كاي مينغ: «في الحقيقة، جميعنا نريد أن نرى الدولتين على علاقة جيدة مع بعضهما».

وتابع: «تستطيع الصين والولايات المتحدة معاً، أن تجعلا من العالم مكاناً أفضل»

قال تروتون: «أوافقك الرأي تماماً في ذلك. لا تنسَ أيضاً أن الدولتين ستتعاونان في مواجهة الكثير من القضايا لفترةٍ طويلة».

أجابه كاي مينغ: «هذا ما نريد أن نراه أيضاً».

قال تروتون: «الناس الجالسون في القارب نفسه يجب عليهم مساعدة بعضهم البعض». ورفع ملعقته ليتناول الطعام؛ فكشفَ عن زر كُمّ القميص المعدني ذي اللون الفضي. كنتُ مندهشاً من معرفته بهذا التعبير.

عرضَ تروتون على كاي مينغ أن يدفع الفاتورة، ولكن رئيسي في العمل أعطى بطاقته الائتمانية للنادلة قبل أن تعرض علينا الفاتورة.

قال تروتون بانبساط ونحنُ في طريقنا للعودة: «أشكرك على هذا الغداء اللذيذ»، وربّت بيده اليُسرى على صدره مُعبّراً عن شُكره. وأضاف: «في المرة القادمة سيكون الغداء على حسابي».

هل سيأتي مرةً أخرى؟ لاحظتُ أن كاي مينغ ابتسم مُفكّراً بذلك بجدية. وانتفضت وجنتاه.

كان رئيسي في العمل غاضباً جداً بعد أن غادر تروتون بسيارة من نوع فورد كراون فيكتوريا. لم أفهم لِمَ كان بهذه الحالة. قال: «أنت لا تفهم السياسة يا دانلن».

سألته: «أتعني أن وزارة الأمن الداخلي تستهدفنا؟».

أجاب: «ليس هذا فقط. البيت الأبيض والحكومة الصينية يعملان بالوتيرة نفسها الآن».

لم أكن مُصدقاً، قلتُ له معترضاً: «هيا كاي مينغ، هذه دولة حُرّة، ونحنُ لم نخالف القانون. لم نرتكب أي خطأ».

قال كاي مينغ: «دولة حرّة؟!. هذا الرجل جاء إلى هنا ليُحذّرنا بألا نفعل شيئاً متهوّراً قد يؤدي إلى تدمير العلاقات الصينية الأمريكية، خصوصاً قبل أن يقوم الرئيس الصيني هو جينتاو بزيارة الولايات المتحدة في الربيع المُقبل. نحن الآن تحت رعاية تروتون وإشرافه، وسيستمر بمراقبتنا وتولي أمورنا».

قلتُ له: «ولكنه لم يقُل شيئاً من هذا القبيل».

أجاب كاي مينغ: «لن يُضطرَ لذلك! حضورهُ هنا كان كافياً ليوصل إلينا تلك الرسالة. من الواضح أنهم يتولون أمورنا على الطريقة الصينية؛ لقد استخدمَ مجيئهُ إلى هنا ليُوثق الرباط حولنا. دانلن، أنت بريءٌ جداً، ما زلت لا تعلم شيئاً عن بيوت السياسة القذرة».

قلتُ له: «من المُحتمل أنك على حق».

قال: «نعم أنا على حق». بدا كاي مينغ ضجِراً. قال: «انظر ما الذي تفعله الصين. لقد أبقت أفنيتها؛ أفغانستان والباكستان،

مفتوحة أمام الولايات المتحدة خلال العشرين سنة الماضية. أساساً، لقد كانت الصين والولايات المتحدة هما من أسستا وجود المجاهدين الإسلاميين هناك من أجل محاربة الشعب السوفييتي. في الثمانينيات، أرسلت الصين ضُبَاطاً من جيش التحرير الشعبي الصيني؛ ليقوموا بتدريب هؤلاء المُقاتلين على القتال في حرب العصابات، وزودتهم أيضاً بالأسلحة الخفيفة وعشرات الآلاف من الأحصنة المخصصة للنقل، بينما منحتهم الولايات المُتحدة ملايين الدولارات وصواريخ ستنغر التي نقلت المئات من الطائرات الروسية.

بعد ذلك، انهار الاتحاد السوفييتي، ولكن بقيَ المُقاتلون كالمارد خارج الزجاجة، يكتسحون المنطقة.

والآن الصين والولايات المتحدة لا تملكان خياراً سوى أن تتعاونا مع بعضهما لمواجهة مُخلّفات العنف والإرهاب. قد تحتاج الصين للولايات المتحدة لتتمكن من احتلال المنطقة، حتى لا يستطيع المقاتلون في شينجيانغ اويغور أن يملكوا قواعد أجنبية حول الحدود بعد الآن. لدى الدولتين مصالح مشتركة في وسط آسيا».

قلتُ له، غير مقتنع بمنطقه مُطلقاً: «ولكن رغم ذلك، ما زالت هاتان الدولتان لا تتشاركان القيم نفسها».

قال كاي مينغ: «هذه فصاحة مبالغ بها. طالما الأمر يتعلق بالدول، فوحدها المصالح الوطنية هي التي تفرض اتحاد الدول أو انفصالها».

أجبته: «ولكن أنا أشك أن الصين والولايات المُتحدة ستبقيان على علاقة جيدة».

قال كاي مينغ: «بلى كذلك، صدقني. كلا الدولتين مرتبطتان ببعضهما. أصبحت الصين مصنعاً كبيراً بالنسبة للولايات المتحدَة، لذلك ستبقى المنطقة الشيوعية في مكانها لسنواتٍ عديدة، إلا إذا أخطأت الصين في تقديرها وتحدّت هيمنة وسيادة الولايات المتحدة».

حرّكتُ رأسي قائلاً: «ما تقوله يبدو كزواج فاشل لا يستطيع أيٌ من الطرفين التخلص فيه من الآخر».

تابعت: «ولكن يستطيع أي زوجين أن يتطلقا في أي وقت يشاءان؛ ويصبحا غرباء أو حتى أعداء».

قال كاي مينغ: «الأمر ليس بهذه البساطة. أنا متأكد أن الدولتين ستبقيان شريكتين لفترة طويلة من الزمن. من المؤكّد أن الصين طلبت من الجانب الأمريكي أن تكبح جماحنا حتى لا تتلوث صورتها هنا. بعض الأشخاص في بكين يعتقدون

بأننا نستطيع التأثير في الكونغرس الأمريكي. من المؤكّد أن جياو فانبنغ وجو بينغ قد قاما بجهدٍ فظيع كي يظهروا صورتنا كمُسببين للمتاعب والمشاكل للحكومة الصينية. لهذا جاء تروتون ليُحذرنا. من الآن ولاحقاً، علينا أن نبذل قُصارى جهدنا لنبقى أصدقاء معه. لم أتوقع أبداً بأنه يجب علينا أن نتعامل مع الحكومة الأمريكية كذلك أيضاً».

قلتُ له: «لا تقلق كثيراً. فلنبقِ أعيُننا مفتوحة ونشاهد ماذا سيحصل لاحقاً». وشاعراً بمدى الضيق الذي أحدثته في نفسه زيارة المسؤول، سألتُه: «لماذا أنت خائفٌ من تروتون لهذه الدرجة؟ إنه لا يُقارن بالمسؤولين الصينيين الذين تعاملنا معهم من قبل».

قال كاي مينغ: «هل أنت ساذج أم ماذا؟ أعرف جيداً كيف أتولى هؤلاء الصينيين الأوغاد. أعرف كيف أرشوهم. ولكنك لا تستطيع أن ترشو شخصاً في وزارة الأمن الداخلي الأمريكية أو مكتب التحقيقات الفيدرالي».

قلتُ له بتشكُك: «هل تقصد أن المسؤولين الأمريكيين مُهذّبون؟، أنا متأكد أن بعضهم أيضاً يرتشون».

قال: «ولكن لا أعلم كيف تتم الرشوة بالطريقة الأمريكية، ولا أتجرأ على ارتكاب تلك المُخاطرة».

قلتُ له متبرماً: «لم أكن أتوقع أنّ تحقيقنا حول رواية هايلي سيثير غضب الكثير من الأشخاص. لقد قالت إن كتابها سيكون مشروعاً وطنياً مدعوماً من الحكومة الصينية، ولكن نائب القنصلية تاو أنكرَ ذلك».

قال كاي مينغ: «من المُحتمل أن يكون هذا صحيحاً، في حال دعَمه واحد أو اثنان من المسؤولين الكِبار. هؤلاء الأوغاد الذين يملكون السُلطة والنفوذ؛ هم أشخاص أغبياء، يعتقدون بأنهم يستطيعون شراء الولايات المُتحدة بزوج من ألواح الحلوى. إنهم لا يفهمون أن تلك القوة العظمى يجب دعمها بملايين الدولارات بشكلٍ مستمر».

سألته: «إذن، هل كانت رواية هايلي لوحاً من الحلوى فقط؟»

أجاب: «أو على الأغلب، قطعة من البسكويت».

انفجرتُ بضحكةٍ عالية، وتبعني كاي مينغ بذلك. ثم حرّك ذقنه وكأنه يوقظ نفسه. شعرتُ بأنه كان يُخفي عني شيئاً ما، لذلك لم أُشاركه توتره وقلقه كلياً. لقد كان رجلاً حادّ الذكاء، ويمكنه الشعور بالخطر مُسبقاً.

الفصل التاسع عشر

تم الانتهاء من مشروع بناء مجموعة الشُقق في شارع كرفتس. كانت جميع جوانبها مُحاطة من الخارج بأطُر خشبية مستدامة وضد الحرائق. بسبب خمول سوق العقارات، كان صاحب البناء يقوم بتأجير تلك العقارات أو بيعها حسب ما يسمح بذلك الطلب. كانت إشارات «للبيع» و«للإيجار» مُثبّتة في الأرض على امتداد جانبي الطريق. في طريقي للعمل في صباح اليوم التالي؛ التقيت مصادفة براندي. كان يرتدي سُترةً من الجلد لونها بني، وكان يمشي ورأسه منحنٍ قليلاً، وكأنه كان يُفكّرُ بشيءٍ ما بعُمق. لقد كان شعرهُ الذهبي مُجعّداً، ومن الواضح أنه لم يحلق ذقنه منذ ثلاثة أو أربعة أيام.

نزلتُ من على دراجتي لألقي عليه التحية؛ لأرى إن كان ما يزال يتذكّرُني.

قال: «مرحباً دانلن»، وانتفض من حلم اليقظة الذي كان مُستغرقاً به، وتابع قوله: «كيف تسير الأمور؟».

صرّحتُ له: «ليس جيداً»، سألته: «هل تتذكر تلك المُحادثة التي أجريناها حول معرفتي بمهنة النجارة؟ هل تقبل بتوظيفي نجاراً عندما يكون هناك شاغر؟».

أجاب: هذا ممكن إذا كنتَ جيداً في عملك. عليك أن تُرينا عملك أولاً. ثم نستطيع أن نقرر توظيفك أم لا. ولكن فصل الشتاء قادم. ولن نبدأ في أعمال بناء جديدة حتى فصل الربيع المُقبل».

«أتفهّم ذلك. أنا نجَارٌ مُحترم كما تعلم».

«هل لديك تصريحُ عمل أو بطاقة خضراء؟».

أجبته بفخر: «أنا مواطنٌ أمريكي».

قال راندي سريعاً: «أنا آسف، لم أفترض ذلك».

أجبته مؤكّداً: «لقد حصلتُ على الجنسية مؤخراً».

«حسناً، تهانينا إذن». صافحني قائلاً: «توقّف هنا في كل مرة تستطيع ذلك».

«شكراً لك، هذا يعني لي الكثير».

«لا مشكلة، يا صديقي».

مشى بعيداً، وكان يحمل تحت ذراعه وحدة تخزين للملفات والأوراق. كانت بجانبه شتلات من خشب الزان

طولها يبلغ ست أقدام، واقفة حيث بدت جذوعها بيضاء تحت أشعة الشمس.

لديّ بطاقة العمل خاصته في درجي. هذه الأيام لا أشعر بالأمان في العمل في وكالة الأنباء العالمية. أحلم دائماً طوال الليل بالرُضّع وبأشخاص صغيري الحجم؛ بعضهم يبسطون أذرعتهم الصغيرة يطلبون مني أن أحملهم. بحسب الفلكلور الصيني، يُمكن تفسير هذا بدلائل خُبث ومَكر، وجعلني ذلك أفكّر باحتمالية العمل مع شركة راندي.

استدعاني كاي مينغ حالما وصلتُ للعمل. خلعتُ سُترتي القصيرة وذهبتُ إلى مكتبه. حالما رآني، كوّمَ ورقة وألقاها في سلة المهملات الشائكة. بدا مُنهكاً جداً، عيناه مُتعبتان ووجهه ذابل قد أجهده التعب. يبدو دون شك، أنه لم ينم جيداً الليلة الماضية. كان يرتدي قميصه الأبيض، وأشار لي بالجلوس أمام مكتبه.

جلستُ للأسفل على الكرسي ووضعتُ قدمي فوق بعضهما متقاطعتين. كان الجدار خلفه مُزيناً بالشرائط الملوّنة، قدمته مؤسسة خيرية لوكالة الأنباء العالمية؛ وكانت مُزركشة بالرموز التالية: «دع الحقيقة تشعُ في الكلمات». على يسار كاي مينغ، كانت خزانة لحفظ الملفات بلون الزيتون الأخضر مقابل الجدار.

قال: «دانلن، أريدك أن تأخذ إجازة».

قلتُ له: «ماذا؟»، وأمسكت يداي بالكرسي بإحكام، تابعت: «أتعني أنني مفصول؟».

«لا، لا»، حرّكَ رأسه وضحك قليلاً. ثم قال: «يا لله، أنت أيضاً أعصابك مُحطمة. أعني أنني أرسلُك إلى خارج المدينة في إجازةٍ مدفوعة».

أرخيتُ قبضتي عن الكرسي. سألته: «كم مدتها؟».

أجاب: «أسبوع».

سألته: «لماذا؟ من الذي أقف في طريقه بوجودي هنا؟».

«نحنُ نواجه ضغطاً من قِبل المسؤولين على كل الجوانب. من الأفضل لك أن تبقى على مسافة بعيدة من هذا الوضع بأكمله».

قلتُ له متحمساً للفكرة: «حسناً، أستطيع أن أذهب في إجازة».

أومأ كاي مينغ برأسه، بدا مُرتاحاً. قال: «هل تودُ الذهاب إلى برلين؟ هناك مهرجان سيقام في عطلة هذا الأسبوع للاحتفال بالثقافة الصينية. سيتم عرض بعض الأعمال الفنيَة للفنانين المعروفين، وبإمكانك تغطية هذا الحدث».

قلتُ له: «أودّ الذهاب بالطبع». وافقته، بالرغم من أنني أعلم أن المهرجان لن يكون ممتعاً جدَاً. لم تكن تلك فرصةً للسفر فقط، أدركتُ أيضاً ببعض الحزن، أنها أيضاً فرصة للابتعاد عن كيتي لفترة من الزمن.

لقد أعدّتْ أمتعتها لرحلتها إلى الصين. إذا كنتُ موجوداً قربها؛ سأكون أكثر عنفاً. قررت أن تبقى في الصين طوال مدة عطلة الربيع؛ ولجزء من الصيف المقبل أيضاً. شعرتُ بأن علاقتنا من الممكن أن تنتهي في أي وقت إذا قابلت هناك رجلاً آخر. لقد كانت علاقتنا غير المثمرة مضيعة كبيرة في حياتي، ومؤخراً؛ أتطلع للاستقرار وتكوين عائلة، لأعيش حياة هادئة مليئة بالسلام، ومع ذلك، ما زلتُ غير متأكد إذا كنتُ أريد الزواج. ولكن أدركتُ أخيراً أنني أريد إنجاب أطفال، وأدركتُ أنني يجب أن أفكّر في إمكانية ذلك. كنتُ متأكداً في صميم قلبي أنني لم أرغب أن أصبح أعزباً دائماً، «ولداً كبيراً في السن». أتمنى لو كان لديّ بعض المُدّخرات. كنتُ متشوّقاً لاستخدام جواز سفري الأمريكي للمرة الأولى. أعرف أشخاصاً ذهبوا إلى تورنتو بعد أن حصلوا على الجنسية بفترةٍ وجيزة فقط؛ ليختبروا أنفسهم إذا كانوا يستطيعون عبور الحدود إلى كندا، ورجعوا دون حدوث أية مشاكل. ابنة أخت كاي مينغ تدرس في جامعة دالهاوسي في هاليفاكس في كندا، ولكن لم تستطع تلك

الفتاة أن تأتي لرؤيته؛ لأنها تحمل جواز سفر صينياً، وتخاف من الإجراءات المُملة والمُحبطة المُتعلِقة بطلب الحصول على التأشيرة. في الفصل السابق، ارتحلت أخت كاي مينغ من مدينة شينزن إلى مدينة نوفا سكوشا لترى ابنتها، وكانت على أمل أن تتوقف في نيويورك حتى تلتقي بها، ولكن لم تستطع الحصول على التأشيرة مُسبقاً، لذا؛ كان على كاي مينغ أن يُسافر لمدينة هاليفكس ليراهما؛ بالرغم من جدول عمله المُزدحم. بعد ذلك، بقيَ يُخبر الآخرين أنه فقط حينما يسافر المواطنون الصينيون إلى مئة وخمسين دولة دون ضرورة حصولهم على التأشيرات مُسبقاً، تصبح الصين دولة قوية بالفعل. كان يقول ذلك من باب الدعابة، حتى أمام بعض المسؤولين الصينيين. عندما كان يقول له أي شخص إنّ الصين بالفعل قوة عُظمى، كان يُجيب كاي مينغ «لا، لا، لا، ما زال لديهم الكثير ليصبحوا كذلك. ليس حتى تملك الصين الرعاية الصحيِة الشاملة الخاصَة باليابان، التعليم الألماني المجاني، والإجازة الأبوية المدفوعة التي في هولندا، والنظام الإلكتروني المفتوح لدى المكتبات العامة الأمريكية في كل بلدة، وجواز سفر مُوحد لمواطنيها، بعد ذلك يُمكننا أن ندعو الصين بالقوة العالمية العُظمى». كما كان سابقاً، إنّ جواز السفر الصيني يسمح لحامله الدخول فقط إلى عدد من الدول الصغيرة دون تأشيرة.

عندما أخبرتُ كيتي بإجازتي، قالت بأن خُططي كانت مُبالغاً بها؛ من يتخلى عن كلّ شيء مقابل إجازة في ألمانيا في أواخر نوفمبر؟ قلتُ لها إنها أيضاً رحلة عمل لن تُكلّف الكثير. إلى جانب ذلك، إن وكالة الأنباء العالمية ستدفع جميع مصاريف هذه الرحلة. يوجد هنالك سلسلة من الفنادق الصينية الشعبية حول أوروبا، وكانت الإقامة فيها رخيصة الثمن، بتكلفة عشرين يورو في اليوم الواحد ويشمل ذلك الإفطار. لكن إذا جاءت كيتي معي، سيجب علينا الإقامة في أحد فنادق المدينة؛ الأمر الذي سيُكلف ثلاثة أو أربعة أضعاف المبلغ السابق.

عثرتُ سريعاً على أحد الفنادق الشعبية في مدينة شارلوتنبيرغ، وهي بلدة تقع خارج غرب مدينة برلين. صاحب المكان، السيد هوانغ، أكّد لي أن بيته كان بالطبع ملائماً لكل شيء، وقريباً من محطة إس-بان؛ حيثُ أستطيع أن أستقل القطار إلى أي مكان في المدينة. قمتُ بالحجز ودفعتُ خمسين دولاراً كعربون من خلال بطاقتي الائتمانية.

الفصل العشرون

لماذا جئتَ إلى ألمانيا؟ سألني ضابط الجمارك صاحب الشعر الخمري اللون، بينما كان يتفحص جواز السفر الخاص بي.

أجبته: «لأشاهد المناظر الجميلة ولحضور اجتماع».

تابع أسئلته: «كم ستبقى في البلدة؟».

«أسبوعاً واحداً».

ختمَ أوراقي وسمح لي بالمرور. هل تمّت الأمور بتلك البساطة؟ بقيتُ مُتعجباً؛ بينما كنتُ أدير عجلات أمتعتي خارج الباب الزجاجي البلوري. يا لها من ميزة أن تحصل على جواز سفر غربي!

ولكن جعلتني دهشتي أفكّر مليّاً؛ تخيلتُ أن لديّ طفلين، أحدهما وُلِد في الصين والآخر في الغرب، تم منح كل واحدٍ منهما جواز سفر مختلفاً عن الآخر عند الولادة؛ أحد الطفلين ضَمِنَ بشكلٍ أوتوماتيكي حرِية السفر. لماذا على الطفل الصيني

أن يكبر دون أن يكون له حق الطفل الآخر نفسه؟ ما الذي، أو من المسؤول، عن السبب في حرمان هذا الطفل؟ البلد الذي وُلد فيه الطفل. إن الدولة التي لا تستطيع منح مواطنيها الحق المتساوي في السفر والهجرة؛ كما تفعل معظم الدول الأخرى، والدولة التي تقوم بتصنيف مواطنيها على أنهم مواطنون من الدرجة الثانية في العالم أجمعه، دولة فاشلة، ويجب تحميلها المسؤولية من قبل عامَة الشعب.

الكثير من التحقير والسخط الذي نشعر به تجاه الغرب؛ إنما هو في الحقيقة آتٍ من الدولة التي صنعناها بأيدينا، ولكن لم نستطع أن نُحمّلها المسؤولية. نحن من سمحنا للدولة، التي من المُفترض أن تحمي حقوقنا ومصالحنا، أن تحكمنا وتستغلنا كما لو كانت إلهاً.

احتفظت في داخل عقلي بملاحظة مهمة، أنه في المرة القادمة؛ عندما يُجادلُ شخصٌ ما حول موضوع القيم العالمية بالإصرار على انفرادية الصين، سأستخدم تلك اللامساواة دليلاً على أنه عند التشديد على الفروقات في ما بيننا، فإن ذلك يؤدي إلى التقليل من إنسانيتنا؛ يجب أن نُقاتل من أجل الحصول على الحقوق نفسها التي يمتلكها أي شخص في العالم.

يقع المكان الذي يقطن به السيد هوانغ في نهاية الزقاق

القريب من محطة القطار. لقد كان بيتاً مؤلفاً من ثلاثة طوابق، ويعلوه سقفٌ مرتفع بداخله نافذة مائلة، تسكن عائلته في الطابق الأرضي، والطابقان الآخران كانا مُخصَصين للضيوف. لأن الموسم كان في غير أوانه، حظيتُ بغرفةٍ كبيرة مؤثثة بثلاثة أسرّة والقليل من قطع الأثاث، ولكنني شعرتُ أنني وحيد في مثل تلك الغرفة الكبيرة خصوصاً في الليل، بالرغم من شُعاع القمر المُتسلل إلى داخل الغرفة من خلال الألواح المعدنية لستارة النافذة.

كان هناك أربعة ضيوف في الفندق بأكمله، من ضمنهم أنا. أما الآخرون فكانوا طالبة كورية وزوجان صينيان شابان؛ جاءا إلى ألمانيا للاستمتاع بمشاهدة المناظر الطبيعية ومعالم المدينة. كان الزوجان قد حصلا على درجة الماجستير مؤخراً في الهندسة المدنية من جامعة مانشستر، وسيعودان إلى منزلهما في سوجو الشهر المقبل.

بينما الطالبة الكورية كانت امرأة شابّة ممشوقة القوام ورشيقة؛ تُدعى دونا كيم، تدرس الموسيقى في فيينا، حيث كما تقول، يوجد العديد من الطلاب الكوريين يدرسون الموسيقى. أخبرتنا دونا، بكل براءة، أنها تريد الزواج من أوروبي قبل أن تنتهي صلاحيةِ تأشيرتها؛ حتى تتمكن من

العيش في أوروبا بشكلٍ دائم. مازحتها قائلاً إنني أتمنى أنها قد وضعت عينها بالفعل على أحدهم بوصفه فرصة المستقبل، ولكنها قالت إنها لم تفعل ذلك لغاية الآن.

كانت السيدة هوانغ امرأة كورية سمينة، شعرها مُجعّد وترتدي مئزراً ملوناً بطريقة الباتيك، من ولاية يانبيان، وهي منطقة كورية مستقلة تقع في شماليّ الصين، كان ذلك السبب في استقبالهم للضيوف الكوريين أيضاً.

لأنني انحدر من المقاطعة نفسها، فإن السيدة هوانغ تناديني بـ(ابن البلد). استمتعتُ بالإفطار المنزلي السخي الذي قدموه؛ والمكون من الكيمتشي، ومُخلل الفاصولياء، وحساء فول الصويا، وقطع من فجل الدايكون مختلط ببعض البابريكا، وقطع الجمبري والحبار الصغيرة، وبيض البط المملح، والفول السوداني المقلي، وعصيدة الأرز، وجدائل الكعك المخبوزة على البخار. لم أتناول مثل هذا النوع من الإفطار منذ سنوات.

عندما كنتُ مراسلاً في الصين؛ اعتدتُ الذهاب إلى المنطقة الكورية المُستقلة مرتين في السنة.

ركبتُ قطار ال إس بان؛ التابع لوسط المدينة كي أذهب لمهرجان الثقافة الصينية. أحببتُ القطارات الألمانية؛ كانت نظيفة، وهادئة ودقيقة في المواعيد. بعضها كانت جديدة

تظهر فيها رائحة المعدن والبلاستيك. لم أدرك في جولتي الأولى؛ أنه يجب عليّ أن أُفعّل تذكرتي، ولكن قاطعة التذاكر لم تجعلني أدفع أيَة غرامة. أخبرتني بأنني لو لم أكن مسافراً جديداً؛ لكنتُ دفعتُ أربعين يورو كغرامة مالية.

سألتها: «ولكن كيف أُفعّل بطاقتي؟». شرحت لي الطريقة، ولكن لم أفهم كلّ شيءٍ قالته. بعد أن نزلتُ من القطار، شاهدتُ الناس يقفون على رصيف المحطة ويدخلون تذاكرهم في صندوق معدنيٍ أحمر صغير؛ ليحددوا الوقت المناسب لهم، تعلّمتُ كيف يتم ذلك.

المهرجان المقام في بيت الثقافات العالمية، كما كنتُ أتوقَع، لم يكن مثيراً للإعجاب. بالإضافة للمجموعات المنوّعة من اللوحات الفنية، والصور، والعروض التقديمية، كان هناك عروض مسرحية، قراءات شعرية، ومحادثات. معظم العروض الشعبية قدّمت مشاهد مسرحية منفردة، يُمثُل فيها ممثل واحد، لأن تكلفة السفر للفِرق المسرحية كانت باهظة الثمن، وكنتيجة لذلك، كانت تلك العروض بسيطة وغير متقنة. لم أستمتع بالقراءات الشعرية وجلسات المحادثة أيضاً. بدت العروض الأدبية ضعيفة، ربما لأن معظم القراءات تم تقديمها من قبل مترجمين وممثلين ألمان؛ بالنيابة عن مؤلفيها الفعليين. الأمر

الذي كنتُ أتطلعُ إليه؛ هو الاستقبال البسيط للمشاركين في المساء، حيثُ كنتُ أخطط لإجراء بعض المقابلات مع الفنانين والمسؤولين. ولكن لأن المضيف الألماني سمح لشاعرٍ مُنشق يعيش في لندن؛ أن يجلس مع اللجنة في ظهيرة ذلك اليوم، رفض السفير الصيني المجيء إلى تلك المناسبة.

كان المُنظمون الألمان متحمسين لغياب السفير شانغ، وقاموا بتهنئة الشاعر الذي كان في منتصف العمر، لقدرته على إغاظة كبير الدبلوماسيون الصينيون. حرّك الشاعر المُلتحي كتفيه النحيلتين مستهجناً، وبدا مرتبكاً؛ كان لا يزال يحمل وردة حمراء طويلة الساق؛ قُدّمت له بعد انتهائه من قراءته الشعرية.

سألته بعض الأسئلة؛ والتي أجاب عنها بأجوبة موجزة كنتُ أقتبسها بصعوبة. رفع كأسه عالياً ليشيرَ للساقي بأنه يرغب بكأسٍ آخر من النبيذ الأحمر. كان هنالك ثلاث نادلات يحملن صواني المُقبلات حول المكان؛ وكانت عبارة عن: فطائر اللحم المقلية، فطائر الجمبري، لفائف سبرنغ المحشوة، أصابع الدجاج الحلوة والحامضة، فطائر شوماي المطهوّة على البخار، مربعات الباذنجان المطهوّة، رقائق العجين المحشوة باللحم، والكوسا المطبوخة. كان الطعام رائعاً، وبدا فاخراً جداً في بعض الأحيان، ولكن شعرتُ في تلك المناسبة بعدم

الراحة؛ بما يخص كل تلك المُقبلات. كان المطبخ الصيني يطغى على فنوننا الصينية الأخرى، كما لو كانت تلك الفنون عبارة عن ثقافة يتم إشباعها فقط عن طريق المعدة.

جاء رجلٌ ألماني يرتدي النظارات، وعرّف عن نفسه لي باللغة الإنجليزية باسم ستيفان. كان يرتدي بدلةً سوداء، وربطة عنق أرجوانية اللون، وحذاءً كلاسيكياً من طراز أوكسفورد لرجال الأعمال، وكانت على رأسه بقعة من الصلع محاطة بالشعر المُجعّد. عندما علم من أكون، أصبح متشوّقاً للحديث معي حول عمله؛ إنه يكتب مقالة مُطوّلة حول الأدب الصيني المُعاصر. أُعجبتُ باطلاعه الواسع حول ذلك الموضوع، بدا أنه سريع الملاحظة وواسع المعرفة. لقد شاركَ في اختيار المؤلفين المشاركين في المهرجان، ولهذا السبب؛ كان عليه قراءة العديد من الروايات. سألته، من بين كل تلك الروايات التي قرأها، ما أكثر رواية أثارت إعجابه؟ حرّك رأسه وقال: «لا شيء منها». أدارَ كأس نبيذ العنب وقال: «لقد صرفنا مليون يورو لمجموعة المناسبات هذه، أشك بأنها تستحق ذلك». لم أعرف كيف أجيبه.

لاحظتُ أن ستيفان كان يطلب إعادة تعبئة كأسه بالنبيذ بشكلٍ مُتكرر. قال بأنه يُحب أنواع نبيذ كاليفورنيا؛ لأنه

يشعر بمذاقها المُعتّق بأشعة الشمس. تساءلتُ إذا كان كلامه منطقياً، لأنني لم أشعر بأي مذاقٍ غريب في أنواع النبيذ تلك.. في نهاية حفلة الاستقبال، دعاني لزيارته في بيته القريب من مكان الحفلة؛ ما زال لديه بعض الأسئلة ليوجهها إليّ، إنْ لم يكن لديّ مانع من إسداء هذا المعروف له . بالرغم من أنني كنتُ مُمانعاً بعض الشيء، لكن وافقت؛ بعد أن أكّد لي أنه من السهل عليّ أن أستقل القطار للعودة إلى شارلوتينبيرغ.

كانت شقة ستيفان مُكدّسة بالكتب، حتى إن غرفة المعيشة مُقسّمة إلى صفوف من أرفف الكتب. في اللحظة التي جلست فيها على المقعد، غادر الغرفة بينما ظهرت زوجته؛ امرأة لتوانية طويلة القامة، وسكبت لي كوباً من شاي البيكو، ووضعت طبقاً من لفائف بسكويت الويفر بجانبه. عاد ستيفان وذراعه مُحمّلة بالكتب. وضعها على طاولة القهوة الزجاجية وقال لي: «هذه الترجمات الألمانية لروايات من الأدب الصيني المُعاصر، قرأتُها جميعها بغية التحضير للمهرجان. أرجو أن تلقي نظرةً عليها من فضلك».

كانت جميع الروايات الموضوعة على الطاولة معروفة في الصين، وحاولت أن أفكر في ما يجب أن أقوله.

تابع ستيفان: «أريدك أن تخبرني بصدق: هل يبدو أن

هؤلاء الكُتاب قدّموا الأدب الصيني المعاصر بشكلٍ دقيق؟ أو هل أنهم فقط عبارة عن بعض المؤلفين قمنا باختيارهم نحنُ الألمان حسبَ تفضيلاتنا».

اطّلعتُ على عناوين عشرات الكتب، وربما أكثر من ذلك، ووجدتُ أنها جميعها كُتبت من كتاب الصفوف الأولى في الصين، لذلك قلتُ له: «هؤلاء المؤلفون معروفون جداً، ويُعتبرون كأفضل المؤلفين في مجال الكتابة والتأليف حالياً».

تنهد ستيفان وقال بصوت خافت: «إن عدد سكان الدولة أكثر من بليون نسمة».

زوجته، صاحبة الوجه اللطيف في الثلاثينيات من عمرها، شاركتنا الحديث قائلة: «قرأتُ بعضها، إنها ممتعة. إن ستيفان ناقدٌ أكثر من كونه مُتزمتاً برأيه».

لماذا كنتُ أشعر بعدم الراحة؛ وحتى أيضاً بالخجل؟ لماذا أهتم بهذا الأمر؟ لم أكن كاتب قصص، ولم أعد أحمل جواز سفر صينياً بعد الآن، لماذا عليّ أن أعيرَ تلك الروايات اهتماماً وأن أهتم بما هو رأي الألمان بها؟ هل كان ستيفان منافقاً مغروراً؟ أو هل كان ناقداً كفؤاً وصادقاً ومنطقياً في أحكامه؟ لقد كان من الصعب عليّ الحُكم على ذلك. بدا أنه كان حسن النية.

بقيت تلك الأسئلة تُزعجني؛ حتى بعد أن عدتُ إلى منزل السيدة هوانغ. ندمتُ أنني لم أشرح لستيفان أن هؤلاء الكُتاب، جميعهم، كانوا موهوبين، ولكن كانوا مضطرين لأن يلتزموا الحدود؛ ليس فقط على الورق؛ بل أيضاً في خيالاتهم، لأنهم يستلمون رواتبهم من الحكومة، ولم يستطيعوا أن يخاطروا بمعيشتهم.

تساءلتُ في ما إذا أظهر ستيفان تعاطُفاً أو احتقاراً للشرح الذي قدمته. معظم الغربيين ليس لديهم أي فكرة عن كيف كانت عمليات المراقبة تعمل بقسوة وبدقة على الفنان في الصين، والذي غدت موهبته، بالرغم من كونها مذهلة، غدت ضعيفة وذليلة.

في اليوم التالي، بعد أن أرسلت المقالة إلى وكالة الأنباء العالمية، ذهبتُ إلى مركز المدينة لأشاهد معالم المدينة. شعرتُ بالتشاؤم والكآبة في وقتٍ مُبكرٍ من الظهيرة، لذلك بعد أن تناولتُ غداءً متأخراً مكوّناً من سُجق مطهو بالكاري في حديقة الحيوان في برلين، عدتُ إلى منزل السيدة هوانغ.

إن الشتاء في برلين محبط؛ كان النهار قصيراً، وكان الجو ضبابياً. فكّرتُ بالذهاب إلى حفلة موسيقية في برلين؛ تؤديها فرقة هاوية للموسيقى، ولكن تمّ إخباري أن جميع التذاكر قد بيعت منذُ مدةٍ طويلة.

كان يوجد جهاز حاسوب في منزل السيِدة هوانغ؛ حيث يستطيع الضيوف استخدامه في غرفة مُخصصة للدراسة. عندما كنتُ أتفحص بريدي الإلكتروني في ليلة الثلاثاء، رأيتُ من بين رسائل الأعمال التجارية والرسائل غير المرغوب بها، رسالة من نيا، كتبت فيها: «دانلن، لديّ بعض الأخبار لك، ولكن يجب أن أخبرك بها شخصياً؛ لأنني لن أستطيع أن أنقل إليك الصورة بشكلٍ منطقي عبر البريد الإلكتروني. هل بإمكاننا أن نلتقي غداً أو بعد غد؟» وأضافت وجهاً تعبيرياً مبتسماً.

أجبتها: «بالطبع، سأكون مسروراً برؤيتك. أنا في مهمة في برلين الآن، أتمنى لو نستطيع أن نلتقي هنا. عثرتُ هنا على مطعمٍ صيني رائع في مركز مدينة شارلوتنبيرغ. لديهم طعامٌ رائع يحتوي على حبوب القمح. ولكن سأعود إلى نيويورك بعد عدّة أيام، وبإمكاننا أن نلتقي حينها».

في الحقيقة، كان المطعم يقع في كانتستراس. كان يُدعى ميلينا، وهو اسم استثنائي بالنسبة لمطعمٍ صيني. من المؤكّد أن هذا الاسم الغريب قد استخدم بشكل متعمد؛ لجعل المكان يبدو للناس وكأنه مطعم يُقدّم طعاماً حقيقياً أصلياً؛ يُمثل الصين الغربية. بحسب قول السيِدة هوانغ، لقد تم افتتاحه قبل مضي شهر فقط.

بشكلٍ مدهش، أجابت نيا على رسالتي بعد مضي بضع دقائق فقط، قائلة: «برلين؟! أحبُ تلك المدينة، وأستطيعُ أن ألتقيك هناك. أستطيع أن آخذ إجازة يوم الجمعة. لقد فزتُ بالسفر لأطنانٍ من الأميال مع شركة الخطوط الجوّيَة الأوروبيِة، والرحلة لن تكلّفني شيئاً. صديقتي التركية آيلن تعيش في مدينة وانسي، وأستطيع البقاء معها. هل تودّ رؤيتي؟ هل تنصحني بالسفر؟».

قرأتُ رسالتها مرةً أخرى، مُحاولاً أن أكتشف ما أخفته بين الكلمات. لم تسألني لماذا سافرتُ بعيداً عن نيويورك، ومن المؤكّد أنها افترضت أنني لوحدي. من المؤكّد أيضاً أنها جاءت إلى برلين من قبل، وأنها على معرفة جيدة بها. كنتُ دائماً أعتقد أن فيها شيئاً يشبُهني، ما زلتُ غير معتاد على الحياة ذات الثقافات المتعددة التي تدفعنا إليها الظروف. إنها تبدو الآن مسافرة ذكية. أتذكرُ أنها قالت ذات مرة بأنها مهووسةٌ بالسفر، وأنها تغادر نيويورك عادةً في إجازات نهاية الأسبوع الطويلة. اعتقدتُ بأنها ذهبت إلى مكانٍ ما في الولايات المتحدِة، ربما لاس فيغاس أو منتزه يلو ستون الوطني، أو حتى ويست بوينت. الآن أدركتُ أنها مسافرة عالمية.

أمضيتُ بضع لحظات لأستجمع أفكاري، ومن ثم كتبتُ

الرد على رسالتها: «يمكنك القدوم إذا استطعتِ. سأكون سعيداً برؤيتك في وانسي، وقد أخبرني أحدهم بأنها منطقة جميلة. أنهيتُ واجباتي، والآن أستمتع بمشاهدة المناظر. سأعودُ إلى نيويورك الاثنين المقبل».

لم أسأل عن الأخبار التي لديها، لأنني فهمتُ أنها لم ترغب بذكرها في الرسالة. دوّنتُ لها رقم هاتفي في حالِ قررت أن تأتي.

لدى السيدة هوانغ ابنة تدرس في جامعة بوتسدام، وهي جامعة أكبر قليلاً في العمر من السيدة هوانغ نفسها، حسب ما اعتادت أن تقول. إنها تدرس الفلسفة، وما زالت تستطيع التحدث بلغة الماندرين، ولكنها نسيت كيف تقرأها أو تكتب بها. تحدثنا أنا وهي باللغة الإنجليزية، والتي تعلّمَتها في النادي الرياضي. على النقيض من والدتها السمينة، كانت رشيقة القوام بعينين جوزيتين. لديها صديق ألماني، اسمه آندرياس؛ أتى ليتناول معنا الطعام في المساء. بعد العشاء بقيت الفتاة والشاب في غرفة الدراسة؛ ليقوموا بواجبات المدرسة أو لتمضية الوقت سوياً. وكانا يُدخِنان السجائر أيضاً، الأمر الذي كان مسموحاً من والديهما. قاما بلف السجائر بقطع من التبغ من كيسٍ صغير، ووضعا أعقاب فلاترٍ صغيرة في

نهاية كل سيجارة. تحدثتُ معهما؛ واكتشفتُ أن والدَي أندرياس كانا من اليهود الرُوس. لقد وُلدَ في حيٍ صغير خارج فالديفوستوك، وجاء إلى ألمانيا عندما كان في التاسعة من عمره. ما زال يتحدث الروسية في بيته، وقد اعتاد على أن يذهب للمدرسة اليهودية في نهايات الأسبوع، ولكنه توقف عن ذلك منذ سنوات. «كان عليّ أن أعمل بجدٍ لأحصل على شهادة في علم الحاسوب»، أخبرني آندرياس. كانت بقعة من الشعر على جبهته العلوية بشكل رقم سبعة تلامس حاجبيه. وقد تعلّم اللغة الإنجليزية التي تُكتب بها التطبيقات الخاصة بالحاسوب. على عكس صديقته، فقد انتسب إلى مدرسةٍ مهنية. أحبَّ أن يمضي وقته مع السيدة هوانغ، ومراتٍ كثيرة كان يسهر الليل لوقتٍ متأخر. لقد أخبرتني السيدة هوانغ عن ابنتها بلغة الماندرين بطلاقة: «نحنُ ندفع لها رسوم الدراسة ونزوّدها بالطعام والمأوى، ولكن عليها أن تحصل على مصروف الجيب الخاص بها؛ من خلال عملها في ترتيب الغرف في نهاية الأسبوع». قلتُ لها: «لديها صديقٌ جيد». قالت السيدة هوانغ: «ما الذي أستطيع قوله؟ إنها ناضجةٌ الآن. ليس هناك من طريقةٍ نستطيع أن نثنيها بها عندما تُقرر فعل شيءٍ ما».

سألتها مندهشاً: «ألا يعجبك ذلك الفتى؟».

أجابت: «ليس الأمر كذلك؛ الأمر فقط أنه من المُبكر جداً أن يكون لديها صديقٌ شاب».

تحدثتُ ذات مرة إلى ابنتها، وأُعجبتُ بذكائها ولسانها الطلق. لم تعد الابنة ترى نفسها صينية أو كورية، ولم تعُد تفتقد الصين أيضاً، وهي التي غادرتها في السابعة من عمرها. قالت بأنها تُفضّل البلدة الريفية الأوروبية، على مدينة مثل بكين أو شنغهاي أو حتى هونغ كونغ.

قالت وهي تلوح بسيجارتها وتنفذ الدخان خارجاً: «لم أرغب في العيش في أي من تلك البالوعات». قمتُ بتذكيرها بأن العديد من الصينيين أصبحوا أغنياء، وأن تلك المدن التي تشمئز منها؛ أصبحت المحور الرئيس للفرص؛ حيثُ يتدافع حتى الأوروبيون. أجابت: «لا أريد أن أصنع الكثير من المال. أنا فقط أرغبُ بحياة هادئة وذات نوعية جيدة». لم أعرف كيف أجيب عن ذلك، افترضتُ أن كل شخص من حقه أن يكون لديه جزؤه البسيط من السعادة الشخصية. بدت الفتاة سريعة الغضب. وبالمقارنة مع أبيها، فهو متتبعٌ نَهم للأحداث في الصين، وقارئ للأخبار في العديد من المواقع باللغة الصينية؛ على الأقل مرتين في اليوم. وقد تصادف أن عرف اسمي، وقال

بأنه يستمتع بمقالاتي، وأنه تشرف بمعرفتي بشكلٍ شخصي، بالرغم من أنه لم يعتقد أنني أصغر عمراً من أربعين عاماً.

«أنت رجلٌ شاب وعملي». قال أبوها، «رائع...».

سألته ضاحكاً: «أنتَ تتخيلني كعجوز مترهل». كنا نجلس على أريكةٍ من قماشٍ كتاني، وقلت له: «أخبرني يا سيد هوانغ، منذ متى وأنت تعيش في ألمانيا؟».

«منذ ثماني سنوات، وقبل ذلك كنا في فرنسا، وإيطاليا».

«هل تتكلم الفرنسية والإيطالية كذلك؟».

«الفرنسية فقط، وبشكل بسيط».

«هل وجدتَ الإقامة هنا أفضل؟».

رفع كوب الشاي بنكهة ورد البنفسج، وارتشف منه رشفةً، وقال: «يمكنني القول، أفضل بقليل. هنالك العديد من الصينيين في فرنسا وميلان، ومن الصعب أن تكسب قوتك في تلك المدن».

«هل عُدتَ إلى الصين؟».

«لا. لقد عُدتُ مرة واحدة منذُ عشرين عاماً، وبعدها لحقت بي عائلتي إلى إيطاليا. لقد توفي والداي، وليس هنالك من شيءٍ لأعود من أجله».

«ألم تشتق إلى الوطن؟».

«بالطبع أشتاق إلى الوطن. ولكن لم أعد قادراً على معرفة أين هو موطني. لذلك قررنا أنا وزوجتي أن نفتتح هذا النُزُل. لا نربح الكثير منه، ولكننا نُحبُ أن نلتقي بالناس من الصين وكوريا. هذا يجعل حياتنا أقلّ عزلة. وكما يقول المثل الشائع: النحلة المشغولة لا تعرف الحزن».

أستطيع أن أُقدّر أنهم لا يربحون الكثير من هذا المشروع، خاصة أني علمتُ بأنهم يتقاضون خمسة عشر يورو لليوم؛ الواحد، وخارج المواسم، فإنهم يُقدِمون العشاء مُقابل ورقتي يورو إضافيتين فقط. قلتُ في نفسي، كيف لهم أن يربحوا المال؛ وهم يُقدّمون خدماتهم مقابل هذا المبلغ الزهيد. سألته: «لو كان لديكم الخيار ما بين أوروبا والصين، أين ستودون العيش؟».

«بلدنا طبعاً. ولكن بلدنا مكانٌ قاسٍ؛ إنه مثل الأب المجنون الذي يستمتع بإيذائك حتى تفقد صوابك وإحساسك بالشعور الإنساني. لم نعد قادرين على العيش في الصين، عندما تُغادُرها؛ فأنت تغادرها لسببٍ وجيه».

أخشى أنه كان مُحقاً، ولكنني سألته: «لماذا؟».

«لأنك حين تبدأ برؤية أماكن مختلفة؛ فإنك تفكر بطريقةٍ مختلفة، ويصبح لديك خيارات. من ذا الذي لا يرغب في أن يختار مكاناً هادئاً وجميلاً للعيش فيه؟».

«هل تعتقد أن أوروبا أفضل من الصين؟».

«بشكلٍ عام... نعم».

«ألا يوجد هنا اضطهاد ولا سوء معاملة؟».

«بالطبع يوجد... هنالك الكثير، ولكن في الغرب، خاصة في ألمانيا، فإن المجتمع يعمل بالقانون. كل وظيفة لها قوانينها. هنالك قوانين معمارية، قوانين تعليمية، ومبادئ قانونية، وقوانين للفنادق، وقوانين للمطاعم. لذلك يمكنك أن تعرف ما الذي عليك فعله، وما الذي لا يجب أن تفعله. حتى القوي عليه أن يتبع القوانين، ولا يمكنه أن يلوي ذراعك ما دمت لم تتجاوز القوانين. هذا الأمر يجعل حياتك أسهل وأكثر أماناً، خاصةً للناس العاديين أمثالنا. كل ما نطلبه هو حياة تخلو من التشويش: اليوم مثل البارحة، والغد مثل اليوم».

واستمرّ يقول: «هنالك قوانين جيدة في الصين، ولكن لا أحد يتبعها. وكنتيجة لذلك، فإن القوانين لا تعني شيئاً هناك، والشخص القوي يمكنه أن يلغي القوانين متى رغب بذلك. هذا يجعل الحياة لا تُحتمل بالنسبة للأشخاص العاديين.

عندما رجعت زوجتي قبل سنتين إلى هناك، لاحظت كيف أنّ كل شخصٍ هناك يحاول أن يستغل وظيفته التي بين يديه، حتى بائع التذاكر الذي يعمل في محطة قطارٍ صغيرة؛ لم يبعها التذكرة حتى قضت مصلحةً شخصية له؛ كخدمة بالمقابل (بدا صوته مكتئباً أكثر). كيف لك أن يعيش بشكلٍ مريح في مكانٍ مثل هذا؛ بعد أن رأيت كيف يعيش الناس ويعملون في بلدان أخرى؟ ولكن بالنسبة لي، من خبرتي الشخصية، إنّ أسوأ جانب في الحياة في الصين؛ هو أنه عليك أن تواجه التهديد لتتمكن من العيش. عليك أن تكون قادراً على أن تؤذي الآخرين، أن تدمّر بغضب وقوة أي شخصٍ يُضايقك. وهذا السبب يفسر سعي الناس وراء القوة بأي طريقةٍ كانت. الشخص الأمين اللطيف وطيب القلب هو لا شيء، فقط عبارة عن مداسٍ للأقدام».

«أليس هذا الأمر نفسه في كلّ مكان، لسوء الحظ؟»، قلتُ ذلك لأجعل محادثتنا تستمر أكثر، وتابعتُ: «الناس تأخذ اللطف والأمانة على أنها ضعف وغباء. في أمريكا، هنالك قول شائع: الشبان الجيدون يأخذون حصتهم في النهاية».

قال: «ولكنْ في الصين، فإن عقلية استخدام التهديد شائعة جداً، وقد أحدثت بين الناس حالة من الهوس وعدم الثقة»

وأصرّ بقوله: «لقد أصبحت طريقة حياة، يمكنها أن تدفعك نحو الجنون. يجب عليك أن تكون دائماً متيقظاً للمخاطر، ولا تستطيع أن تستريح؛ لأن الناس من حولك يشكلون خطراً عليك؛ يصبح كل شخص طيراً من الحمام وفريسة سهلة لمن يطلقون الرصاص. يعتقد الناس بأنه حتى الشيطان يصبح خائفاً من تلك القذارة، كلما كنت سيئاً أكثر، هنالك فرصة أفضل لك للعيش. لو استمررتُ في العيش هناك مدةً أطول، لا أعرف بحق السماء الأشياء التي يمكن أن أفعلها. الحقد والحزن ربما يدفعاني لأن أصبح رجلاً شريراً عديم المبادئ. من المستحيل أن تعيش حياةً نزيهة في مكانٍ يعُجّ بالكراهية والخوف. والآن؛ منذ متى وأنت في الولايات المتحدة؟».

أجبته: «منذ سبع سنوات».

قال: «وكيف تبدو المدينة؟».

فكّرت للحظتين حول ما يمكن أن أقوله. قلتُ أخيراً: «مشابهة لأوروبا، من ناحية القوانين التي ذكرتها».

«إذن، من المؤكّد أنها مكانٌ مناسبٌ للعيش»، وبرقت عيناهُ المُرقطتان. وتناول رشفةً من الشاي، وبدا خداه مُقعرين بعض الشيء. وكانت فروة رأسه المُتعرِّقة مُنقطة ببقع التقدم بالعمر. من المؤكّد أنه في الستينيات من عمره. أتساءل ما إذا

كان قد فكّر يوماً ما بالعودة إلى بلدنا الأم ليُدفن هناك حين يموت. ولكن لماذا سيرغب بذلك؟ ليس لدينا خيارٌ لتحديد المكان الذي سنولد فيه، وأحياناً المكان الذي سنموت فيه. نحنُ مدينون لأنفسنا بفرصة النضج والتقدم في العمر، وإيجاد موطن لنا في أي مكانٍ كان، وإدراك أنفسنا.

وصلت نيا إلى برلين في مساء يوم الخميس، واتصلت بي بعد أن وصلت إلى منزل صديقتها آيلن. اتفقنا أن نلتقي في اليوم التالي في الساعة الثالثة والنصف. ستلتقيني في محطة القطار في وانسي. قالت بأنه يمكننا أن نذهب لمشاهدة بعض المناظر في تلك المنطقة؛ بينما نتحدث سوياً. شعرتُ بوخزةٍ من عدم الارتياح جرّاء ذلك اللقاء، ولكن كنتُ أتطلعُ لرؤيتها أيضاً. تراسلنا أنا وكيتي عبر البريد الإلكتروني كل يوم، ولكن لم يكن لدينا الكثير لنقوله. لقد كانت منشغلة بإنهاء الفصل الدراسي، لتستعد لمُهمتها في الصين.

عندما نزلتُ من القطار في وانسي ظهر اليوم التالي، مررتُ بمنصات بيع الخُضار والفواكه الموجودة في منتصف النفق الأرضي وصولاً إلى نهايته، رأيتُ نيا تقفُ على الشرفة العريضة للدرج؛ والتي تؤدي إلى الفُتحة الأمامية من المحطة.

كانت ترتدي معطفاً أسود ذا صف أزرار واحد، وحذاءً عالياً

من جلد العجل السويدي، ونظارات شمسية. كانت تتكئ بكتفها اليسرى إلى الحائط، وكان شعرها أشعث. كان وجهها يوحي بأنها تبتسم، وقد ظهر ناباها الصغيران. ركضت نحوي وعانقتني. خرجت من معطفها رائحة نفتالين ضعيفة. كنتُ متفاجئاً؛ لم نكن مقربين من بعضنا البعض لهذه الدرجة من قبل.

قلتُ لها: «من المفترض أن تختبئي خلف مجلة».

سألت: «لماذا؟».

«هذا يجعلكِ أشبه بمحققة أو مُفتشٍ سرّي؛ سيبدو ذلك احترافياً أكثر، كما تعلمين».

ضربت كتفي ضربة خفيفة وقالت: «لا تجعلني أضحوكة».

خرجنا سوياً من المحطة. كانت بحيرة وانسي تقع في الشارع المقابل، كانت بركة الماء على مرأى منا، تومضُ بضعفٍ مقابل أشعة الشمس. اقترحتُ أن نذهب إلى شاطئ البحيرة، وبإمكاننا أن نذهب من هناك في جولة بالقارب. كان هنالك عدد من المراكب في أرصفة الموانئ، وأيضاً إشارات تُعلن عن الجداول الزمنية والمواقف المُخصصة لكل رحلة: بحيرة غريبنتزي، وبحيرة جلينيكر، وجزيرة الطواويس، وذلك بالرغم من وجود عدد قليل من الأشخاص هناك. أحد القوارب اسمه موبي دك. قالت نيا وهي تجذبني من ساعدي: «هيا، تعال. فلنأخذ جولة

في هذا القارب». أحببتُ منظر قارب السياحة هذا؛ لقد كان يشبه بضخامته حوت الروائي ميلفيل في روايته الحوت الأبيض، ذا الأسنان المُدببة، والجوانب الفضية، وبطن مصقول، وظهر مستوٍ وحواف حرشفية نصفها لامع والنصف الآخر معتم. لكن، جاء رجلٌ على ظهر السفينة، يعمل بمشعل الأستيلين ويرتدي الزجاج الواقي للحام، أخبرنا أنه تم وضعها في المراسي من أجل الشتاء. لذلك، تمشينا أنا ونيا على طول شاطئ البحيرة، مُشيرين إلى اليُخوت المربوطة وإلى العصافير وهي تتمايل برأسها على الأمواج. من على بُعدِ مسافة، رأينا رياضيين يُجدفون بالمجاديف، وانعكست صيحاتهم على الماء، كان سطح الماء واسعاً كالخليج المفتوح المتلألئ في الظلام الدامس.

وجدنا مقعداً وجلسنا عليه. أخبرتني نيا: «تحدثتُ إلى هايلي مؤخراً. أعتقدُ أن هناك أمراً فظيعاً سيحصل، ومن المُحتمل أن تتأذى، ولكن لا أعرف ما الذي يحصُل بالضبط. لقد أصبحت مُبهمة وغير مفهومة، لكن بدا كل شيء تقوله عنك كالتهديد.

أومأت برأسي، شعرتُ بضيقٍ شديد في معدتي. سألتها: «ماذا قالت؟».

«قالت، أنتِ لا تخدعينني، أليس كذلك يا نيا؟»، أخبرتُها

أنني أريدُ أن أبقى على الحياد، لأن الموضوع تطوّر وأصبح سياسياً، ولم أرغب أن أتورَط في السياسة. بدأت تصرخ: اتّهمتني بأنني صديقةٌ لك، وأنني أقوم بخداعها».

سألتها وقد نفد صبري: «ولكن ماذا قالت عني؟».

أجابت نيا: « قالت: «إنّ دانلن عبارة عن لا شيء الآن. لقد جعلتهُ تصرُفاتهُ عدواً للصين»، سألتُها، «أليسَ لديكِ شفقة تجاهه؟ بأفضل الأحوال أو أسوأها، لقد كنتِ تحبينَهُ يوماً ما». قالت «لم أعُد أشعر بالحب أبداً. إنه يريدُ أن يُدمر الآخرين، ولكنه جلبَ الدمار لنفسه فقط. إذا رأيتِه، أخبريهِ بأنني سأُسامحهُ فقط في حالِ رمى بنفسه أمام قدمي ولعقَ حذائي».

سألتُها وقد ثارت في عقلي الشكوك والتخمينات: «إذن، هل تشفقينَ عليّ؟».

أجابت: «أعترف بأنني كذلك». أخفضت عينيها ثم نظرت إلي بتمَعُن.

سألتها: «هل ما زلتِ صديقةً لهايلي؟».

أجابت؛ وقد حرّكت رأسها بالنفي: «لم أعُد أشعر بأنني مُقربةٌ منها. في البداية كنتُ على علم بأنها ارتكبت بعض الأخطاء بطريقة تَولِيها لموضوع الكتاب، ولكنني أعلمُ أيضاً

أنَك كنتَ انتقامياً تجاهها. عندها كنتُ أدافعُ عنها، بطريقة رغبتُ من خلالها مساعدتها بالحصول على تعويضات، وأن أمنع عنها الهجوم من قِبلك أو من قِبل الآخرين. ولكن بعدَ ذلك، أصبحتْ حقودة، وقامت بتحريض الحكومة الصينية ضدك»، توقفت نيا قليلاً ثم تابعت: «جميعنا يتخذ في بعض الأحيان قراراتٍ خاطئة، لا يجب أن يكون هنالك مشكلة كبيرة، طالما أننا نقوم بتصحيحها في الوقت المناسب. ولكن إذا أصرّ الشخص على ارتكاب الأخطاء، ستصبح تلك الأخطاء في مرحلةٍ ما، غير قابلة للغفران. لهذا السبب لا أستطيع أن أتكيّف مع هايلي بعد الآن. أتساءل أحياناً ما الذي غيّرها كثيراً بذلك الشكل. لقد أصبحت مُدمنةً على الشُهرة، وتستطيع فعل أي شيء للحاق بأي فرصة تجذب لها الانتباه».

نظرتُ إلى عيني نيا. الصِدق الواضح في عينيها، وأقنعني، وجعلني أشعر بحقيقة كلماتها.

سألتها: «هل تعتقدين بأن هايلي ستقوم برفع المزيد من الدّعاوى القضائية؟ هل من المُحتمل أن يكون هذا ما كانت تتحدث عنه؟».

«لقد قالت إنه لا فائدة من استخدام القانون ضد شخصٍ فقير. لقد بدت وكأنها لم تَعد تريد مهاجمتك بطريقة قانونية».

«ما الذي يحدُثُ إذن؟».

أجابت نيا بسُخرية: «لقد بدَت مسرورة، من المؤكّد أن شيئاً سيئاً حصلَ لكَ، جعلها مسرورة على هذا النحو».

صرختُ قائلاً: «ولكن إنْ كنت لا تعلمين شيئاً عمّا قالته، فلماذا جئتِ إلى هنا؟».

اعترضت نيا قائلة: «لا تغضب لأنني لا أعرفُ القصة كاملة، ولم آتِ فقط لأفسدَ رحلتك. جئتُ لأرى صديقتي أيضاً».

قلتُ لها: «أنا لستُ مجنوناً»، حاولتُ الحفاظ على صوتي هادئاً وقلت: «أنا مُتوترٌ فقط. شكراً لإخباركِ لي بما سمعتِه».

قالت ببطء: «هنالك شيء آخر بعد، إنّ لاري يبدو مشتركاً معهم الآن».

«ماذا تعنين بأنه مُشتركٌ معهم؟».

«قام لاري بمنح هايلي قرضاً كبيراً. لقد كانت سعيدةً جداً بذلك؛ حتى إنها كانت تتقطّرُ فرحاً، لكنني لا أعلم كم المبلغ الذي أخذته منه».

أصدرتُ تنهيدة وأنا أفكر في ما قالته نيا، وقلتُ لها: «تستطيع فعل الكثير بالمال، إنها تستطيع أن تستخدم مُحامياً ماهراً، تستطيعُ أن تُوظِّف كُتّاباً فاشلين ليكتبوا المقالات، وتستطيع أن ترشو المسؤولين».

بدت نيا حزينة، وتنهَدت قائلة: «نعم، أظن ذلك».

قلتُ لها: «هيا ساعديني لأفكّر. ما الذي يستطيعون فعله لي؟».

«لقد حاولت؛ لقد كنتُ أحاول ذلك طوال الطريقِ إلى هنا. لا أستطيع بصدق أن أعرف ما الذي سيحصل. هاتفتُ هايلي مرَةً أخرى قبل أن أُغادر نيويورك؛ لأرى إن كانت ستودُّ إخباري بأي شيء، ولكنَها لم تَبُح بشيء».

زاد الظلامُ عُمقاً، اجتاحت الرياح المكان واصطدمت بالقوارب البحرية على المرفأ القريب، العديد من تلك القوارب مغطّاة بأقمشة ذات ألوان متنوِعة. كانت صواريها مائلة ومُترنحة. وحبال الصواري تصدر رنيناً مُتقطعاً، بينما كانت الأمواج اللطيفة ترتطم بصخور الشاطئ الصلبة. جاءت أسراب كبيرة من الطيور المائية: البط البرِي، طيور الغرَة ذات المنقار الأبيض، الإوز، والبجع؛ وحتى بط الماندرين، كلها كانت تخوضُ في الماء بين الحين والآخر. لقد بدت تلك الطيور جائعة، تنظر إلينا مُستفسرة، تمنيتُ لو كان معي بعض الخبز أو الفشار أو بعض الرقائق لإطعامها. سيكون الشتاء قاسياً على تلك الطيور. من أين ستجد الطعام؟ تساءلت. لماذا لم تطر تلك الطيور نحو الجنوب؟ من المؤكّد أن هنالك جزيرةً قريبة من أعشاشها.

قالت نيا: «أحب البجع، الطريقة التي يبقون بها في أزواج مع بعضهم البعض، ذكر وأنثى، ما نوع هذه؟» سألت وأشارت إلى إحداهن.

أجبتها: «بط الماندرين».

قالت متفكرة: «لم أشاهد بط الماندرين من قبل، ألا تعيش في أزواج أيضاً؟».

قلتُ لها بصدق: «لا أعلم، ربما فقط في ثقافتنا الشعبية.. من المؤكّد أن الصيف ممتع هنا».

قالت نيا؛ وقد ارتفع صوتها: «إن الجو رائع في الربيع والصيف هنا، قوارب الإبحار، الطيور والأزهار والأطفال في كل مكان، الشاطئ هناك في الأسفل مفتوح أمام جميع الناس ليسبحوا في البحيرة. عليك أن تأتي مرة أخرى إلى هنا».

سألتها: «هل أنتِ جائعة يا نيا؟» شعرتُ فجأةً بعدم الراحة.

أجابت: «جائعةٌ جداً».

عرضتُ عليها أن نذهب إلى المطعم الذي ذكرته لها سابقاً في البريد الإلكتروني، ولكنها أرادت أن تُجرب مطعماً هندياً، وذاك الذي أُعجبت به آيلن بالتحديد. توجهنا سوياً إلى الغرب نحو كونيغستراس باتجاه ذلك المطعم.

قالت نيا إنها ستغادر مع آيلن إلى مدينة دريسدن في الصباح المقبل. كانت مفتونة بلوحات القلاع هناك، وكانت تطمح إلى أن تراها منذ وقتٍ طويل.

كان المطعم الهندي يقع على بُعد مسافة طويلة من شاطئ البحيرة. تمشيتُ في الممر الأحمر الممتد على طول الرصيف الحجري. أخيراً سحبتني نيا بعيداً عنه قائلة إنه مُخصص لراكبي الدراجات. بدأتُ أرى بالفعل أن الدراجات جميعها تسير في الشريط العريض ذي الخمس أقدام، و المُبلّط بمربَعات من الموزاييك.

القليل من الألمان الذين مررنا بهم كانوا سمينين، وجميعهم يُطبقون قوانين المرور بحذافيرها، ينتظرون الضوء الأخضر ليعبروا الشوارع، حتى لو لم تكن هناك أية سيّارة على مدّ نظرهم.

كان المطعم مكاناً جميلاً، نظيفاً وهادئاً، تنبعث منه رائحة بخور خفيفة. كانت إضاءة المكان جيدة؛ ولكنها ليست مبهرة، بغرض خلق جو من الألفة. كانت توجد شمعة على كل طاولة ومزهرية صغيرة مُخططة، تُحيطُ بزهور دوار الشمس الصغيرة. قادَنا نادلُ نحيل إلى طاولة في الزاوية، وأشعل الشمعة الموضوعة عليها.

بينما كنتُ أطلبُ مشروب الهينيكين، استوقفتني نيا قائلة: «فلنجرب بيرة البرميل. في ألمانيا يجب عليك تذوُقها».

لذلك حصلَ كلٌ منا على كأس طويلة من تلك البيرة. كان مذاقها رائعاً، حاداً وطازجاً وبنكهة مُعتقة. طلبنا سمكاً مُبهراً بتوابل المسالا، ودجاجاً مُتبلاً بأوراق الريحان؛ والذي يقدم مع طبقين صغيرين من السلطة وخبز النان. قالت نيا إنه في المطاعم الألمانية؛ تُعتبر تلك الحُصص من الطعام كبيرة، لذلك لا يجب أن نطلب شيئاً أكثر حتى الآن.

كانت مُحقة؛ كان الطبقان كافيين لنا. أحببتُ طريقة تقديم الأطباق، كل منها طبق معدني موضوع على دعامة معدنية كالفرن الصغير الذي تقع في أسفله شمعة صغيرة تشبه شموع الصلوات، لتبقي الطبق ساخناً. كان خبز النان منتفخاً في سلة مُسطحة من الخيزران، لقد كان لذيذاً... وكان مزاجنا عالياً.

قالت نيا بحماسة: «هذا طعامٌ رائع، لم أتذوق أرز البسمتي منذُ مُدة طويلة».

قلتُ لها: «أنا سعيدُ لأنك أحببته، أخبريني يا نيا، هل كان والداك يُجوّعانك عندما كنتِ طفلةً صغيرة؟».

«ما هذا السؤال الغريب؟» نظرت إليَ مشدوهة. «هل تحاول أن تجعل مني أُضحوكة؟».

«كلا، مُطلقاً. معظم النساء من الشمال الشرقي طويلات القامة وأقوياء»، أوضحتُ لها. «ولكنَك جذابة ورشيقة، كإحدى الجميلات من شمال يانغتزي».

«أنت تعبثُ معي مُجدداً»، قالت وهي مرتاحة، حيثُ قَبلت بالمُجاملة الذكيّة.

قالت: «أتعلم شيئاً، في الحقيقة، كان والداي يَحُثانني أن آكل أكثر عندما كنتُ في مرحلة المراهقة المبكرة. ولكنني لم أكُن أنهي ما كانا يُقدمانه لي من طعام، مطلقاً. كانا دائماً يُحذرانني، قائلين: «أنتِ تأكلين كالعصفور، ولن تصبحي طويلة القامة»، ولكنني كنتُ عنيدةً جداً، ولم أستمع لهما. كان أولاد عمي يمازحونني دائماً بقولهم إنني كنتُ أُجوّعُ نفسي لأنني كنتُ أرغب أن أبدو مثل راقصة الباليه. كان هذا قبل أن أصبح عمري ثمانية عشر، حينها بدأتُ أستمتع بطعامي. كان قد فات الأوان لأن أنمو أكثر في مثل ذلك الوقت».

قلتُ لها: «أنا سعيدٌ لأنكِ أحببتِ هذا الأرز. أحياناً كنتُ أطبخ أرز البسمتي في الوطن. كان هذا صحيحاً، بالرغم من أنني لم أكن أطبخه بدرجة استواء مثالية مثل ما تم تقديمه هنا».

قالت نيا: «لا أُصدقك. لا يوجد لدينا هذا الأرز في الصين».

قلتُ لها: «أقصدُ في نيويورك».

«هل تمزحُ معي؟ أتستطيعُ كيتي أن تُميز بين أرز البسمتي وأرز النيشكي أو أرز الياسمين؟».

أجبتُها ضاحكاً: «ليس من الصعب أن تتذوق الفرق».

«يا لها من امرأة محظوظة. أخبرتني هايلي بأن المسؤولين الصينيين قد أبعدوا كيتي عنك، قالت أيضاً: فقد دانلن عروسه؛ وهذا جزاؤه، هل هذا صحيح؟».

أجبتها: «ليس صحيحاً». بالرغم من كلمات نيا اللاذعة. تابعت: «أنا وكيتي لم نُخطط أبداً للزواج؛ نحنُ نعلم بأننا سننفصل عاجلاً أم آجلاً. والآن، سترحل لمتابعة منحتها الدراسية، كلما سارعنا في الانفصال، كان ذلك أفضل. سيكون الخلاص من الأشياء مؤلماً فقط».

قالت نيا: «أنت رجلٌ طيب يا دانلن، ولكن يبدو أن حظك دائماً سيئ مع النساء. في حالة كيتي، ربما بذلت جهداً كبيراً».

«ماذا تقصدين؟».

«لقد كنت ترغب بأن تحافظ على سُمعتك، وألا تفقد احترامك بعد أن تركتك هايلي، أليس كذلك؟».

أجبتُها مُعترفاً: «لقد كان هناك شيء من هذا القبيل، ولكن كان هنالك أكثر من ذلك».

قالت نيا؛ وقد شعرت بالغيظ قليلاً: «لا تُحاول أن تُخفي غرورك».

أجبتها: «بصدق، كانت لديّ أسبابٌ أخرى في البداية».

«وما هي؟».

«فكّرتُ بأن الحياة من الممكن أن تصبح أسهل بالنسبة لي إذا عشتُ مع امرأة أمريكية، على الأقل ستتحسن لغتي الإنجليزية. في الحقيقة، لقد تعلّمتْ كيتي الكثير عن اللغة الصينية مني. لا تبتسمي هكذا. أنا أُخبركِ الحقيقة. إن الرجال والنساء يتشابهون في معظم الأحيان؛ جميعنا نبحثُ عن شركاء يُحسّنون من حياتنا».

قالت نيا: «إذن، كما هو الأمر بالنسبة لهايلي، هل الزواج بمثابة فرصة بالنسبة لك؟».

أجبتها: «لم أُفكّر بالزواج أبداً، ولكنني كنتُ أواعد كيتي بهدف تحقيق بعض المصالح العملية. الآن، أدركتُ أنني كنتُ مخطئاً. لقد ساعدتني كثيراً في البداية، لكن حماسها هذا جعلني مُتراخياً ومُتساهلاً جداً. ولكن في المُجمل، كل ما منحته كان أكثر مما حصلتُ عليه».

قالت: «أحب صراحتك، دانلن؛ أنت دائماً تتحدث باستقامة. كما قلتُ لك، لقد كنتُ أتجنب الرجال الصينيين بشكلٍ عام، لأن الكثير منهم يشعرون بأنهم أفضل من الآخرين، خصوصاً الناس من المُقاطعات الذين يقومون بالأعمال المُهينة».

سألتها مُبتسماً: «إذن، أنا لستُ رجلاً صينياً مثالياً؟».

قالت: «على نحوٍ مُعيَن، لا. نحنُ متشابهان». أشارت إلى نفسها وقالت: «أنا امرأة جيدة، ولكن ليس لي حظٌ جيد مع الرجال. دائماً ألتقي بالمُخادعين، والمتطفلين والفاسدين، لذلك أدركتُ أنني بحاجة أن أكون مُستعدة لأكون عزباء بقية حياتي».

لم أستطع إلا أن أسألها: «أنتِ متأكدة أنك امرأة جيِدة؟».

أخذت ذلك السؤال بجدية وقالت: «حسناً، أنا صادقة وودودة، وأنا جيدة في أعمال الطبخ، في غرفة النوم وفي غرفة المعيشة».

«لم أفهم الأخيرة، لماذا في غرفة المعيشة؟».

قالت ضاحكة، وهي تمسح شفتيها بمنديلٍ وردي: «أنا جيدة في تنظيم الحفلات. لا. لا يجب أن أقول ذلك، لا أحب الحفلات لتلك الدرجة. ولكن أعرف كيف أجعل الضيوف يشعرون

بالراحة؛ أعرف كيف أكون مُضيفة جيدة». وأطلقت تنهيدةً خفيفة. وتابعت: «إذا وقعتُ في الحب مرةً أخرى، سأبذل كل ما بوسعي لأستعيد ذلك الشعور؛ ولو كان لمدة أسبوع فقط».

كنتُ متحمساً لأقول لها بأننا كلانا تجاوزنا حالة الانسجام تلك. ولكن قلتُ لها بدلاً من ذلك: «ماذا لو كان بإمكانك أن تبدئي حياتك من جديد؟ هل ترغبين أن تعيشي الحياة نفسها التي تعيشينها الآن؟».

«مستحيل» حرّكت رأسها بأسف؛ وتابعت: «كنتُ سأتزوج أول فتى أحبني عندما كنا مراهقين، ولكن كنتُ غبيةً جداً بعد أن أضعته من يدي».

قلتُ لها مُحذراً: «إذا ذهبتِ في ذلك الطريق، كنتِ ستبقين عالقةٍ في مدينة ريفية للأبد».

قالت نيا مُؤكّدة: «لم أكن سأمانع ذلك، وماذا عنك؟ ما الذي ستقوم بتغييره؟».

أجبتها: «كنتُ سأرغب أن أولدَ خارج الصين، وألا ترى عيناي يان هايلي أبداً».

اتَسعت عينا نيا وقالت: «إنها سببت لك صدمة بالفعل».

رجع النادل إلى طاولتنا وسألنا إذا كنا قد استمتعنا

بالوجبة. أجبنا بالمديح لما قدموه لنا. كان اسمه فيفيك من مدينة جايبور. جاء إلى الطاولة مرة أخرى، وقال بأنه لم يعتد على الحديث باللغة الإنجليزية. كان وسيماً، نحيلاً بعض الشيء، وفي منتصف العشرينيات من عمره وأب لطفلين. سألته كم مرَة يرجع إلى الهند. أجاب: «أذهب إلى الوطن لمدة شهر في كل شتاء»، قال: «إن الجو باردٌ هنا».

على العكس من فيفيك، فإنّ الرجال الآخرين من آسيا الجنوبية الذين يعملون هنا، كانوا أقوياء بعض الشيء، وبعضهم الآخر كانوا يتمازحون ويُمررون الطلبات بأصوات مُدوّية. أحدهم كان رأسه محلوقاً، وبدا شرساً أكثر من الآخرين.

وضعتُ اثنين يورو كبقشيش، كنتُ أتساءل في ما إذا كان ذلك قليلاً أم لا. «أحد عشرَ في المئة هي نسبة أكثر من كافية» قالت لي نيا مؤكّدة، تابعت قولها: «إن البقشيش يُدرج من ضمن الفاتورة هنا، والناس يتركون القليل من المال فقط».

حالما خرجنا من المطعم، أضافت: «آيلين قالت إن هذا المكان قد تم إفساده من الأمريكيين الذين كانوا أسخياء جداً».

سألتها: «أتقصدين أنّ الأمريكيين يدفعون بقشيشاً كبيراً؟ إذن، فأنا أفترض أنني أمريكي بسبب ذلك. لماذا لا نكون سُعداء برؤية الآخرين سُعداء أيضاً؟».

«أنت رجلٌ طيب القلب»، وتشبثت بذراعي من الأعلى بكلتا يديها واستندت عليها، ووضعت ذقنها مقابل كتفي. وضعت يدي حولها لأغطيها من الرياح الباردة، ومشينا بهذا الشكل طوال الطريق لمنزل صديقتها.

ما فاجأني، بالرغم من اسمها التركي، هو أن آيلين بدت نمطاً للمرأة الألمانية الجميلة، ذات عينين زرقاوين وشعر بلون الكتان. بدت لطيفة ومحترمة، أحببت هذا النوع من النساء، بفستانها ذي اللون الباذنجاني، وجواربها الرمادية اللون. كانت تضع حَلقاً من نوع أوبال وأساور فضية. جلسنا في غرفة المعيشة التي تفوح منها رائحة العطر، وتجاذبنا أطراف الحديث ونحن نشرب شاي الريز، مُختمراً في إناءٍ من البورسلان.

قالت آيلن برقة ومرح؛ بأنها تفتقد نيويورك، ولكن برلين كانت مدينتها الأم، وأنها مُحاطة بالأصدقاء والعائلة هنا؛ لقد ذهبت مرة إلى الولايات المتحدة لتقوم بتنفيذ مشروع للخريجين. بالإضافة لذلك، لديها وظيفة إدارية جيدة في أحد المستشفيات الآن. تحدثت الإنجليزية بلكنة ناعمة، تخللتها كلمة أو جملة ألمانية من وقتٍ لآخر. لقد تحدثت عن أبيها الذي عاد للتو إلى مدينته في إسطنبول. وعندما كانت تتقدم

في العمر، كان الرجل يُخبر أولاده أنه سيعود إلى موطنه حالما يتخلى عن مسؤوليته تجاههم، ولكن لم يُصدقه أحد، وعندما تخرج أخ آيلين الأصغر في الكلية السنة الفائتة، فإن والدهم قد نأى بنفسه ووفى بوعده؛ بالرغم من اعتراضات العائلة. لم يكن لدى والدة آيلين أي خيار إلا أن تلحق به، سألتها: «هل هو سعيد بعودته إلى تركيا؟»، أجابت: «يبدو كذلك. لقد كان يشعر دائماً بأنه غريب عن هذه المدينة».

«كم عاش في هذه البلدة؟».

«سبعة وعشرين عاماً».

حركتُ رأسي. وقلت: «هذا وقتٌ طويل في الابتعاد عن الوطن، كيف استطاع أن يُعاود التكيف مع العيش هناك بعد المكوث فترةً طويلة بعيدة عن تركيا؟».

أجابت آيلين مؤكّدة: «الشهور الأولى كانت صعبة، ولكن هو ووالدتي يشعران بالاستقرار الآن».

أضافت نيا: «إنهما محظوظان لحدٍ ما، لديهم وطن يمكنهم العودة إليه».

قالت آيلين: «الآن، أنا وأقاربي سنعودُ لزيارتهم على الأقل مرة واحدة في السنة».

وحوالي الساعة التاسعة غادرتُ؛ لأن كليهما يحتاجان أن يستيقظا باكراً في الصباح لرحلة القطار. جاءت نيا معي ووضعت ذراعها حولي وقبلتني على خدي. قالت: «فكّر بي أحياناً، حسناً؟».

سألتني وعيناها تلمعان في الظلام. أجبتها: «حسناً سأفعل. أتمنى لك رحلة موفقة».

التفتُ وتوجهتُ نحو محطة القطار، حيث كان القمر يتدلى هلالاً مُشعاً رائعاً. كان الهواء المتحرِك رطباً بعض الشيء بسبب البركة المجاورة. صفَرتُ قليلاً أثناء المشي؛ شعرتُ بأنني بحالةٍ نفسيةٍ جيدة منذُ أن غادرتُ نيويورك. شعرتُ بالهدوء أكثر، واستمتعتُ بمقابلة الناس.

لم أتخلص من الملاحظات المزعجة التي بدت وكأنها علامتي التجارية المميزة. هل كانت برلين مختلفة عن نيويورك؟ تأملت. ربما لا. ربما يعود السبب كونها تخلو من أولئك المحتالين الثلاثة الذين كنتُ أُقارعهم في الليل والنهار. صراعي معهم كان يؤثر فيّ سلباً في أعماقي. كان هذا الصراع المستمر يتسللُ إلى داخل قلبي ويُهددني ليلوي شخصيتي. كنتُ أتمنى أن أُمضي وقتاً أكثر بعيداً عن زحمة نيويورك. هنالك طرقٌ أفضل ليعيش المرء حياته.

الفصل الواحد والعشرون

رجعتُ إلى نيويورك مُحمَّلاً بالقلق. عندما ذهبتُ إلى العمل في صباح اليوم التالي، مُترنِحاً قليلاً بسبب فرق الساعات الست بين البلدين، وجدتُ وكالة الأنباء العالمية تقريباً فارغة، حتى لوحة الإعلانات الفلينية الموجودة في الممر؛ تم وضع أشرطة عليها. كان فوقها أنبوب رقيق ذو إضاءة مُتلألئة. فقط كان باب مكتب وينا مفتوحاً، استطعتُ سماع طقطقة أصابعها على لوحة المفاتيح. كنتُ محتاراً، ذهبتُ إلى غرفة الاستراحة، ووجدتُ إبريق القهوة ينتظر، كما يحدثُ في كلِ صباح. سكبتُ لي فنجاناً من القهوة، حالما أوشكتُ أنْ أرتشف منها، دخل كاي مينغ وقال: «دانلن، هل أستطيع التحدُثَ إليك قليلاً؟»

شربتُ رشفة كبيرة من القهوة، وتبعتُه إلى مكتبه. شعرتُ بضيقٍ في معدتي؛ هل كان هنالك العديد من الإقالات الوظيفية؟. حالما جلستُ على الكرسي مقابل مكتبه، قال: «لقد تغيرت إدارة شركتنا. علينا أن نرحل جميعاً».

«ماذا؟»، شعرتُ بأن قلبي وصل إلى حلقي من شدة الذهول. سألته: «ماذا تعني؟».

أجاب بوضوح: «لقد اشترى جياو فانبنغ وكالة الأنباء العالمية، إنه الآن مالك الشركة».

حدّقتُ في وجه كاي مينغ، شعرتُ بأن الكلمات ضاعت مني. كرر قائلاً: «لقد اشترى جياو شركتنا».

سألته: «ولكن كيف سمحتَ بأن يحدث ذلك؟ لقد أمضيتَ مُعظم حياتك في وكالة الأنباء العالمية، لقد كنا الوكالة الوحيدة المُتبقية في الغرب؛ والمختصَة بالأخبار في اللغة الصينية».

«لا تنسَ أنني رجل أعمال»، وسحبَ الهواء لداخلِ فمه؛ كما لو كان يخفف من ألم الأسنان.

قلتُ: «ماذا حدث لحُلمك بأن تصبح جوزيف بولتزر؟ ألا تُريد أن يتذكرك الآخرون كشخصٍ رائدٍ في تاريخ الصحافة الصينية؟». بينما كنتُ أتحدث، شعرتُ بمرارةٍ في حلقي وتجرّعتها.

أطلق تنهيدةً كبيرة، تورم خداه وبَهُتت عيناه، «ما الذي أستطيع فعله؟» قال ذلك بعدم ثقة.

وتابع: «إنني أملك أربعين في المئة فقط من أسهم الشركة. قام جياو بشراء بقية الأسهم من المساهمين الآخرين. وكنتيجةٍ لذلك، أصبح يملك أكثر مما أملك من هذه الشركة، ولم أستطع فعل أي شيء سوى أن أبيعه أسهمي. أنا آسفٌ بشأن هذا التغيُر المفاجئ، دانلن، ولكن هذا هو الواقع الذي يجب علينا تقبله».

قلتُ له: «اللعنة على ذلك، ألم تقبل بهذه الصفقة قبل أن تُقصيني إلى ألمانيا؟ لماذا أخفيتَ عني تلك الأمور؟ لقد كنتُ غبياً لأني وثقت بك». أعرف أن جياو لم يكن ليتمكن من إتمام عملية الشراء تلك دون أن يتعاون مع كاي مينغ وبعض المساهمين الآخرين. من المؤكّد أن رئيسي في العمل كان قادراً على أخذ جميع الاحتياطات بسهولة كي يمنع جياو من أن يحصل على العديد من الأسهم. من المؤكّد أيضاً أن كاي مينغ استحوذ عليه الطمع، وباع كل شيء من أجل الحصول على المال. ربما كانت كل تلك المتاعب التي سببتُها للحكومة الصينية قد رفعت من قيمة وكالة الأنباء العالمية في أعينهم. لقد كانت فكرةً حاسمة؛ لكن لم أمتلك الدليل لإثباتها.

واستمر كاي مينغ بقوله: «ليس هنالك أمامنا من طريقة

للتغلب على المشاكل التي تحيطُ بنا. تم إنهاء الصفقة المالية؛ وسوف تظهر على الصحف اليوم. لحدٍ ما، أنا أيضاً خاسر».

سألته: «لماذا نحن جميعنا مطرودون؟ ألا يحتاجون طاقم عمل؟».

أجاب: «سيتم تعيين أشخاص جُدد من بكِين. باستثناء لوشينغ، سيبقى، وقد عرض عليّ جياو منصب نائب المدير، ولكنني رفضت. أريد أن أمضي عاماً من السفر والقراءة؛ لأُجدد نفسي ولأعرف ماذا عليّ أن أفعل».

«ولكن من هم هؤلاء المراسلون الجُدد؟» سألتهُ وبصَقت. «هل يكونون من أذناب وخدَم الحكومة؟».

سألني: «هل تعرف المُحرر جو بينغ؟».

«وماذا عنه؟».

«كان من المُفترض أن يترأس الفريق الجديد، ولكنه غيّر رأيه؛ لأنه مشغول بمشروع مهم في الوقت الحالي، وهو تحرير جزء كبير من تاريخ الحزب كهدية بمناسبة الذكرى الستين لتأسيس جمهورية الصين الشعبية، لذلك سيأتي شخص آخر، وسيرأس قسم التحرير».

«أظن أن هذه هي اللعبة». ارتشفتُ جرعة ممتلئة من

القهوة الراكدة، وأخيراً فهمتُ لماذا أخبرتني نيا حول القرض الذي منحهُ لاري لهايلي.

«أنا آسفٌ للوضع الذي أنت عليه الآن»، قال كاي مينغ ذلك وفتح جارور مكتبه؛ وأخرج دفتر الشيكات خاصَته؛ وقطع منه شيكاً مكتوباً من قبل. وقال: «هذا شيء بسيط يُعبّر عن شكري للرجل الذي قدّم خدماتٍ رائعة وكبيرة لعمله لمدة ثلاث سنوات. آملُ أن يساعدك هذا في التغلب على مشاكلك حتى تجدَ عملاً آخر».

شكرته وأخذتُ الشيك ذا الألفي دولار، هديَتهُ الشخصيّة لي. من الواضح أنه لم يحصل أحد على مكافأة إنهاء الخدمة.

قبل أن أقوم بجمع أغراضي، تحدّثتُ إلى وينا وعرفتُ أكثر حول عملية الاستحواذ تلك. لقد بيعت الوكالة مقابل ستة عشر مليون دولار، وحصل كاي مينغ على ستة ملايين ونصف. كان من المُحال أن يرفض صفقة كهذه.

ولكن من أين حصل جياو فانبنغ على رأس المال الضخم هذا؟ هل حصل عليه من هايلي؟

«ليس منها» أجابت وينَا، تلوح بيدها وترمش بعينها، تابعت: «زوجتك السابقة تملك نسبة صغيرة فقط من الشركة.

لقد استثمرت هي وزوجها بمبلغ مليون دولار في وكالة الأنباء العالمية. جياو هو المالك الحقيقي».

سألتها: «هل هو بهذا الثراء؟». لم أكن أتخيل أن لديه ذلك القدر من المال.

قالت وينَا: «حسناً. لقد حصل على قرض كبير من الحكومة الصينية». وابتسمت ابتسامة ملتوية.

قالت أيضاً: «هل سمعتَ عن حملة الصين من أجل الحصول على حقوق حرية التعبير؟».

أجبتها مُتذمراً: «نعم، سمعتُ عنها. سخرتُ من أحد كبار المسؤولين الذي صرّح قائلاً: «فقط عندما نملك الحق في التعبير؛ سيقبل العالم بدولتنا كدولة لها دور مهم في العالم»». ضحكت وينَا، وحكّت أنفها السمين بمفصل سبابتها. قالت: «لقد صرفت الحكومة الصينية بلايين الدولارات على اكتساب وتأسيس الخدمات الإعلامية في الخارج؛ حتى يكون لها صوت وموقف مؤثر في الآراء العالمية؛ كما هو الحال في الإعلام الغربي».

قلتُ لها مومئاً برأسي: «أنا أعلم أنهم متشوقون جداً ليؤسسوا نسختهم الخاصة من BBC البريطانية، وCNN الأمريكية، ولكن وكالة الأنباء العالمية عبارة عن مؤسسة صغيرة جداً».

قالت وينَا: «حسناً، هذا يعتمد على كيف سيقوم جياو، والنفوذ الذي خلفه، بتقديم وكالة الأنباء العالمية للحكومة الصينية. لقد سمعتُ بأنه حتى الصحف الصغيرة والدنيئة في تايوان وهونغ كونغ؛ بيعت إلى البر الرئيسي الصيني بملايين الدولارات لكلٍ منها. إنّ الحكومة الصينية مُتدفقة بالكثير من المال، وكانت تحاول الحصول على كل الأنواع الرخيصة والتافهة من كل شيء. ولكن سمعتُ أيضاً أن هناك بعض الأقاويل في بكِين حول كيفية شراء صحيفة نيويورك تايمز».

كانت تلك الفكرة غريبة؛ ولكن بعد ذلك، تمّ كل شيء بالطريقة نفسها. قلتُ معترضاً: «بالرغم من ذلك، كيف سيتمكن جياو من تسديد القرض؟ لن يستطيع تحصيل الكثير من الأرباح من العمل في مجال الأخبار».

أجابت: «هذا لا يزعجه. إنها ليست أمواله الخاصة؛ تلك التي يقوم بصرفها بأي شكلٍ كان. من المُحتمل أن تقوم الحكومة بإلغاء القرض، وأن تعتبره خسارة حصلت في نهاية المطاف، مثل مشاريعها الأخرى التي فشلت من قبل».

حرّكتُ رأسي، أُفكّر مليّاً في كل ما عرفته للتو. سألتُها: «هل تعتقدين أن الحكومة الصينية ستستمر بالسيطرة على الإعلام كما تفعل الآن؟».

أجابت: «من الصعب أن أجيبك عن سؤالك» وابتسمت. لمعت أسنانها البيضاء قليلاً؛ وتابعت: «بكل الأحوال. بالنسبة لي، حان الوقت كي أنسحب وأستقيل».

أدركتُ أنه من خلال تلك الطريقة، هناك فرصة كبيرة لكل المُساهمين السابقين الكبار في الشركة أن يحصلوا على الأرباح. لقد كانوا سبعة أو ثمانية. بعض الموظفين تم منحهم حصصاً في الشركة كجزء من تعويضاتهم، وبعضهم الآخر مستثمرون خارجيون. لقد أصبحوا من أصحاب الملايين بين ليلةٍ وضُحاها. من المؤكّد أن وينَا واحدة منهم.

سألتُها؛ وقد نظرتُ إليها بحقد: «ماذا ستفلعين بعد ذلك؟».

«سأعود إلى تيانجن في كانون الثاني».

« حقاً؟ هل استقلتِ من مهنة الصحافة؟».

سألتني بلغة جافة: «هل يوجد صحافة حرة شريفة في الصين؟، لماذا يجب عليّ الاهتمام بهذا؟ كنتُ أملك سبعة في المئة من وكالة الأنباء العالمية، وقد بعتُ لجياو كل حصتي، لذلك لقد حان الوقت لأبدأ حياة جديدة».

بالرغم من دهشتي؛ قلتُ لها: «أتمنى لكِ حظَاً مُوفقاً».

قالت مبتسمة: «شكراً جزيلاً، ربما سأتمكن من فتح متجر لبيع الكتب بالقرب من الحرم الجامعي في مدينة تيانجن».

«بإمكانك أن تؤسسي سلسلة من متاجر بيع الكتب مثل بارنز ونوبل».

«لا، أريد فقط أن أفتتح متجراً واحداً مُزوّداً بمقهى صغير؛ حتى يتمكن الزبائن من الجلوس وقراءة الكتب إذا لم يكُن بمقدورهم أن يشتروا الكتب».

«بغض النظر عما ستفعلينه، ستصبحين سيدة أعمال ناجحة».

تجاهلت محاولتي في السُخرية وقالت: «دانلن، أنا آسفة بسبب خسارتك لوظيفتك. ولكنك رجلٌ ذكي، وأنا أعلم جيداً بأنك ستنجح في أحد الأيام».

أجبتُها: «الله أعلم، قد يكون هذا اليوم بعد العديد من السنوات الضوئية. هل ما زال كاي مينغ يملك دار النشر؟».

«ربعها فقط. جياو هو المالِك الحقيقي».

لقد خيّب ذلك أملي في الاستمرار بالعمل لدى كاي مينغ. لم أكن أستطيع التصديق كيف تخلى بسهولة عن حلُمه بنشر صحيفته ومجلته الخاصة حول العالم أجمعه. أدركتُ أنني ربما أنا الخاسر الوحيد في عملية الاستيلاء تلك. شعرتُ مثل دون كيشوت، فارس الوجه الحزين!

«يا إلهي، انظر إلى هذا» أدارت وينَا شاشة حاسوبها

باتجاهي. كانت على الشاشة صفحة من أخبار تينسنت تظهر صورة لهايلي وهي ترفع بيد واحدة عالياً؛ أول صفحة من عقدٍ ما، بينما كانت تبتسم، كانت زوايا عينيها الخارجية تميلُ للأعلى. كانت تحمل بيدها الأخرى نسخة جديدة من روايتها، النسخة الصينية الأصلية.

كان يقف لاري خلفها مبتسماً، إحدى يديه كانت في جيب معطفه والأخرى رفع منها إبهامه للأعلى ليشير إلى تأكيد نجاح هايلي. وكان فوقهم العنوان الرئيس «مؤلفة مشهورة تبيع نص فيلم روايتها لهوليوود».

تصفَحتُ تلك المقالة سريعاً، أُصارع ذُعراً غير مبرر. كشفت المقالة صفقة لمشروعٍ مشترك بين استوديو جريت وول وشركة شوكيت للصور، وهي شركة تقع في لوس أنجلوس. بلغَ ثمن النص أكثر من مليون دولار، بحسب ما قال التقرير، والذي وصف الصفقة بالتقدُم العظيم نحو التبادل الثقافي بين الدولتين.

سيقصد الكثير من الممثلين الصينيين هوليوود ليمثلوا في الفيلم. أخبرت هايلي المُراسل الصحفي: «الآن، يستطيع الجميع أن يعرف من هو الكاذب. يجب على فينغ دانلن أن يحفر الأرض ويختبئ فيها مثل دودة الأرض التي لا تستطيع أن تُسبب إزعاجاً».

سألتُ وينَا: «هل تُصدِقين أن هذا صحيح؟».

أجابت بغموض: «سواء صدقت أم لا، هذا ليس له صلة بالموضوع. لديها عقدٌ بين يديها الآن، ومن المُؤكّد أنها في كامل انبساطها الآن».

قلت؛ وقد شعرتُ بأنني غضبتُ مرة أخرى: «ولكن هذا يختلف كثيراً عما كانت تدّعي، لم توقع عقداً مع شركة بانوراما للصور. من المؤكّد أن الفيلم تم تمويله من الصين».

قالت وينَا بحزنٍ قليل: «أنا وأنت نعلم ذلك».

وتابعت: «ولكننا كلانا يعلمُ أيضاً بأن الجمهور لا يهتم أبداً بهذا النوع من التفاصيل».

قلت: «أظنُ أنهم أيضاً لم يعودوا مهتمين إذا كانت رواية هايلي ستتم ترجمتها للغاتٍ أخرى أم لا».

«أعتقد أن الفيلم سيستحوذ على كلِ شيء» قالت وينَا وهي تتصفح المقالة مرة أخرى. وتابعت: «من الآن ولاحقاً، سيبدؤون الحديث حول أي من الممثلين النجوم سينضم إلى كادر الفيلم، كم سيكون حجم ميزانيته، أين سيتم تصويره... إلخ، إلخ».

جعلتني كلماتها أدرك أنه لا فائدة من الكتابة حول الاحتيال الذي ارتكبته هايلي بعد الآن. بحسب المقالة، فإن

هايلي تُخطط للذهاب إلى دار دولفين للنشر، شركة جديدة تقع في بروكلين ويملكها جياو فانبغ، والتي تنشر كتباً فنية ذات مستوى رفيع، روايات كلاسيكية مترجمة، قصص واقعيةِ، ومُلصقات إعلانية.

لقد انتصرت؛ وذلك بدعمٍ من الصين. يا له من حظٍ جيد أن يكون لديك دولة بأكملها تدعمك. إذا لم تُضطَر فقط لأن تُطيعها مثل الأبله، وأن تُذلِل أُذنيك وتُغمض عينيك عمَا يجري حولك، أو إذا وجب عليك أن تتعلَم متى تهُز ذيلك، أو متى يجب أن تدُسّهُ بين قدميك.

بخطواتٍ ثقيلة وبحقيبة مُتدلية فوق كتفي، سرتُ متثاقلاً خارج وكالة الأنباء العالمية. انطلق صفير الرياح الغربية الشمالية، حيثُ كانت تضربُ ظهري. كانت درَاجتي تُطلقُ صريراً كلما دستُ على البدَالات. لأنني لن أعود هنا مُجدداً، كان عليّ أن أحملها إلى القطار كي أعود إلى حي فلاشينغ. أصبحت السماء مُعتمة بلونٍ رماديٍ داكن، وأوراق الشجر الميتة تنزلق على امتداد الشارع. شعرتُ بالتخبُط، كما لو كان عالمي الخاص قد تفتت.

الفصل الثاني والعشرون

«ماذا تُخطط أن تفعل؟» سألتني نيا. كانت تسندُ ذقنها بيد واحدة، حيثُ كنا جالسين في مطعم الأغاني المحبوبة في وسط المدينة في حي فلاشينغ. «لستُ متأكداً» أجبتُها وأنا أعصرُ شريحةَ من الليمون على مشروب التيكيلا.

تابعت قولي: «ربما أعملُ نجّاراً؛ علمني والدي تلك الحرفة عندما كنتُ صغيراً. أعرف شاباً اسمه راندي يعمل في شركة للبناء. قال بأنه قد يوظفني عندما أحتاج إلى وظيفة». انفجرت على شفتيها ضحكة عالية، وسمعتُ صوت حفيف ابتسامةٍ مكبوتة تحشرج في أنفها.

سألتها بامتعاض: «ما المضحك في الأمر؟ هل هذه فكرة سيئة؟ يستطيع النجارون أن يجنوا مبلغاً جيداً من المال». قالت: «لا، لا، لقد أُعجبتُ بذلك. سواء نجحت أم فشلت، ستستطيع دائماً البقاء على قيد الحياة يا دانلن. أنت رجل»، رفعتْ كأس جعة الشعير خاصتها وشربت رشفةً كبيرة، ثم

تابعت: «رأيتُ هايلي البارحة، وطلبت مني أن أوصل رسالةً لك».

«ماذا قالت؟».

«إنها تعرض عليك عملاً في دار دولفين للنشر»، واتسعت عينا نيا وتابعت: «أترى؟ كما قلتُ لك، بإمكانها أن تكون كريمةً جداً».

«ما نوع تلك الوظيفة؟»، كنتُ متأكداً أن ذلك العرض لم يكن به شيء من الكرم كما تعتقد نيا.

«ربما محاسب».

«ربما ماسك الدفاتر والسجلات، لأنني لا أملك شهادةً في المحاسبة. إنها تعلم بأنني نزيهٌ جداً، ولا أستطيع اختلاس الأموال».

قالت بحرارة: «يجب عليك أن تُقدّر عرضها، أليس كذلك؟».

تابعت قولها: «أعتقد أنها ما زالت تُكِنّ لك بعض المشاعر».

للحظة ما فكّرتُ بكلماتها. ثم أدركتُ أن هايلي لا تستطيع حتى أن تعرض عليّ وظيفة؛ لا بُدّ أن هذه مصيدة

يقودها ذلك الثلاثي. حركتُ رأسي وقلت: «أخبريها أنني أستطيع دائماً أن أعمل كنجار. أستطيع أن أعمل دونهم؛ أنا أفضل منهم».

قالت نيا: «لماذا لا تكون أكثر عطفاً، لقد قصدت مُساعدتك».

«إنها لم تقم بتقديم هذا العرض من تلقاء نفسها» أجبتها غاضباً، لم أستطع إخفاء انزعاجي.

تابعت: «إنهم يريدون أن يتحكَموا بي. حالما تصبح حياتي بين يديهم، لن أستطيع أن أكتب أي شيءٍ ضدهم. وهايلي تعرف أن من المحتمل ألا أقبل هذا العرض منها مباشرةً، لذلك قامت بإرسالك لي لتخبريني بذلك. بالطبع، إنها تفعل كلّ ذلك لتبين كم هي نبيلة وكريمة».

قالت نيا: «أفهم ذلك الآن»، بدت كالحمقاء، وقالت: «إذن يجب عليك تجُنبَهم».

تناولتُ رشفةً أخرى من مشروبي لأُهدّئ من روعي. ولكن لم أستطع أن أخفي فضولي لفترةٍ أطول.

قلتُ لها: «ماذا تفعل هايلي هذه الأيام؟».

أجابت: «إنها تنوي الذهاب إلى الصين هي ولاري ليتبنُوا طفلاً».

«طفلاً؟» فركتُ عيني.

قالت نيا: «نعم، طفلة عمرُها سنتان. رأيتُ صورةً لها؛ إنها لطيفة وودودة».

قلتُ لها: «لم أعرف أن هايلي كانت تُحب الأطفال». في السنوات التي عشنا فيها مع بعضنا، لم تذكر أبداً أن لها رغبة بأن تصبح أماً.

قالت نيا مستغربة: «لقد قالت بأنها كانت ترغب بشدة بأن تصبح أماً، كل امرأة تشعر بتلك الرغبة في مرحلةٍ ما من حياتها».

سألتها: «إذن فهي لا تستطيع الإنجاب هي ولاري؟».

«يبدو أنهما لا يستطيعان».

«حسناً»، قلتُ مؤكّداً: «عليّ أن أعترف بأنهما يفعلان شيئاً جيداً إذا استطاعا أن يمنحا الطفلة بيتاً مستقراً، يوجد العديد من الأطفال الإناث في الصين تم التخلي عنهن منذ زمنٍ طويل».

أكملت نيا قولها: «لقد كانا أيضاً يبحثان عن شقة. يريدان شراء منزل في مدينة تشيلسا».

قلتُ لها مُبدياً ملاحظتي: «ذو ثمنٍ باهظ، إذن... صفقة الفيلم حقيقية».

أجابت: «بالطبع، إنها صفقة مشتركة؛ لقد وافق الجانب الصيني على أن يمول المشروع بنسبة خمسة وسبعين في المئة من ميزانيته».

سألتها: «هل ستحصل على المليون دولار».

«أعتقدُ ذلك».

«أترين»، مُحاولاً أن أعبر عن فكرتي بمرارة، «لا تنقطع خدمة الوطن حتى لو قدمت روحك من أجله».

«حسناً» رمشت نيا وقالت: «هل روحك أثمن من أن تُباع؟».

أجبتُها بضجر: «دون شك، إنها باهظة الثمن».

ضحكت نيا وقالت: «لا عجب في أن تدعوك هايلي بالمُصاب بجنون العظمة، ولكنني أحبُ ذلك فيك».

ضحكتُ أيضاً، وضعتُ يدي فوق يدها، وصافحتها بامتنان. شعرتُ أن أصابعها جافة ولكن دافئة.

«من يعلم؟»، قلتُ لها، «ربما أنا مغرورٌ جداً أو غبيٌ جداً لأستسلم».

قالت نيا بجدِية: «بالرغم من ذلك، لا أعتقد بأنك يجب أن تعمل بالنجارة، لديك أشياء أخرى ذات قيمة أكبر لتقدمها».

سألتها بسخرية: «مثل مقالاتي؟، لا يبدو أن هنالك أحداً يرغب بقراءتها بعد الآن».

قالت نيا مُتجاهلة سخريتي: «كلانا يعلم بأن لديك قُرَاءً من جميع أنحاء العالم، لقد تمّ اختيارك مسبقاً كمُفكّر جماهيري من هؤلاء القُرّاء، ويجب عليك أن تؤدي ذلك الدور، أليس كذلك؟ ألم تقُل بأنك ستحافظ على ذلك اللقب؟».

«ولكن لم يعد لي مكان أنشر فيه مقالاتي بعد الآن. أين أستطيع نشرها؟ كيف سيتمكن الناس من سماعي؟ حتى لو حاولت البدء بتأسيس مدوّنة إلكترونية، لا أزال أحتاج إلى وظيفة كي أتمكن من العيش».

وشربتُ رشفة من شراب التيكيلا خاصتي. «هنالك أمر آخر، لا أعتقد أن كتابة المقالات ستكون ذات منفعة أكبر من صناعة الأثاث. إنها فقط حرفة أتقنُها».

قالت نيا بشجاعة: «في كل الأحوال، لو كنتُ مكانك، سأذهب إلى كليةِ الدراسات العليا وأكمل دراسة الدكتوراه».

أجبتها: «قد يستغرق هذا سنوات، وهذا إذا حالفني الحظ وسجلتُ في برنامج الخريجين».

تنفست نيا بإحباط، وقالت: «أنتم الرجال الصينيون تفكّرون

فقط بسرعة تحقيق الأشياء، تبحثون عن طريقة لا مجهود بها مثل أكل المعكرونة. أنا أؤمن بأن هناك طريقة واحدة فقط لفعل شيء واحد بطريقة صحيحة؛ وتلك هي الطريقة الأصعب عادةً. الآن، أنت لم تصبح مُفكّراً حقيقياً بعد، ولكن لم يَفُت الأوان لأن تصبح كذلك. لو كنتُ مكانك، آخر شيءٍ أقوم بفعله؛ هو أن أتخلى عن التمسُك بالفرصة».

قلتُ لها بعناد: «الكلام أسهل من الأفعال».

قالت نيا: «فكّر بذلك، حسناً؟».

رقق ذلك قلبي، فقلت: «أتعتقدين أن الذهاب إلى كلية الدراسات العليا هي الطريقة الوحيدة لأصبح مفكّراً حقيقياً؟».

سألت نيا: «وهل هناك بديل؟».

أومأت برأسي، مُتفهماً رأيها. قلت: «سأفكّر في ذلك».

عندما نهضت نيا لتذهب إلى حمام السيدات، رأيتُ أنها تركت نسخةً من مجلة أوبن فوق معطفها على الكرسي الإضافي. كان غلافها يحوي لاعبة البينغ بونغ المشهورة ليلي ليو، والتي فازت مؤخراً بالبطولة الآسيوية؛ حيثُ كانت ممثلة لليابان. كنتُ أعرف قصتها وبدأتُ أتصفح المقالة. لقد تدربت بالأصل في الفريق الصيني الوطني، وشاركت عدة

مرات في المسابقات الدولية. في إحدى المباريات العالمية المهمة، طلب منها مُدرب الفريق أن تدع أحد زملائها يفوز في المباراة الأخيرة لكي تستطيع الصين الحصول على الكثير من الميداليات، ووافقت على طلبه، بالرغم من أن ليو فازت بالميدالية الذهبية، والصين لم تخسر أياً من الميداليات المتوقعة، لقد تم طردها من الفريق، ومُنعت من جميع المباريات المحلية والدولية، من بينها الأولمبياد. بعد ذلك، تفاجأ الجميع بزواجها من رجل ياباني، غادرت الصين لتستمر في التدريب في طوكيو. بعد ست سنوات، حالما حصلت على الجنسية، ظهرت مُجدداً، تُمثل اليابان التي تبنَتها في الألعاب الآسيوية.

لقد تجاهلها الفريق الوطني الصيني، واعتبروها لا شيء، ولكن ليلي ليو ردت انتقامها، لعبت بشكلٍ عنيف، وهزمت جميع اللاعبين الصينين لاعباً تلو الآخر. كلما كانت تُسجِل هدفاً، ترفع صوتها عالياً باليابانية «جوتشا»! عندما كان المراسلون الصينيُون يُجرون معها المُقابلات بعد فوزها، كانت تتحدث فقط باللغة اليابانية. كانت مواجهتها تُغيظ الكثيرين من مُعجبي لعبة البينغ بونغ الصينيين، والذين وصفوها بالخائنة، وبعضهم هدَدَ بأن يسحق بيت والديها في شنغهاي.

سألتُ نيا حول ليلي لو عندما جاءت وجلست مرَة أخرى: «حسناً، ما الذي تفكّر به حولها؟ أتعني لك شيئاً؟».

أجبتها: «لا أستطيع لومها على ما فعلت» ووضعتُ المجلة على الكرسي. تابعت: «إن الدولة هي التي خانتها أولاً؛ لقد كانت فعلتها مُبررة. قالت: «لا أوافقك. لقد ذهبت بعيداً جداً، وبصقت على الصين».

قلت لها: «ولكن الدولة قتلت أفضل ست أو سبع سنوات من عمر مهنتها، لذا؛ من المتوقع أن تكون غاضبة. أنا أتفهم دفاعها بأنه نوع من تأكيد ذاتها».

هزت نيا رأسها غير مقتنعة: «إن مُدربي فريق البينغ بونغ الوطني لا يمثلون بلدهم. كما أن الحزب الشيوعي لا يُمثِل الصين».

سألتها: «من يمثل الصين إذن؟ أنت أم أنا أم النادلة هنا؟ أم الساقي خلف الطاولة؟ أم هؤلاء المُنشقان في ميرلاند اللذان اعتذرا إلى الديلي لاما عن جميع الصينيين؟ في هذه اللحظة من التاريخ، فإن الحزب الشيوعي في الحقيقة هو الوطن؛ لأنه يحكم الصين ويتربع على مجلس الأمن في الأمم المتحدة. إنه لمن السخافة أن نبقي على هذا التمييز بين الدولة والحزب الحاكم، لأن كل مسؤول برتبةٍ عالية في الصين؛ هو عضو في

الحزب؛ لقد جعل الحزب نفسه متطابقاً مع الدول. الحقيقة أن الدولة ليست إلهاً، إنها عبارة عن تركيب تاريخي. من الغباء أن نتخيل الدولة كبُنية غامضة، أو أُم نبيلة قامت بتربية جميع الصينيِين، والذين يجب عليهم في المقابل أن يكونوا مُطيعين لها، يحملون لها الحب والحنان. إنها فكرة مخادعة، وكاذبة».

قاطعتني نيا قائلة: «انتظر لحظة، أنا أعترض، أنا أعتقد بأننا يجب أن نحافظ على تلك المسافة بين الدولة والسلطة الحاكمة، تماماً كما أحب الصين؛ ولكن أكره الحكومة الصينية. عارٌ عليك ما قلتُه قبل قليل».

قلتُ لها: «إذن، دعيني أُخبرك بقصة. في اليوم التالي من قراءتي لصحيفة سنغ تاو اليومية، هؤلاء الأشخاص الخمسة في تايوان، الذين أحرقوا أنفسهم لأن منازلهم تم تدميرها من جماعة مُخرّبة حتى يتم بناء فندق في الموقع نفسه. ولأن الحكومة تملك الأرض؛ والتي كانت تقطنها تلك العائلات كمستخدمين فقط، وجب عليهم أن يُسلّموا بيوتهم لهم. حالما ضاعت منازلهم، لم تعد تعني الحياة لهم شيئاً. لقد اعتقد الخمسة رجال بأن موتهم سيجعل الحكومة تؤمن لعائلاتهم بعض المال، لذلك قاموا بإحراق أنفسهم. اثنان منهم لم يموتا، وبدلاً من منحهم التعويضات، تم إرسالهما إلى السجن بالرغم من الحروق الشديدة في أجسادهما. في

البداية تمت مُحاكمتهما بتُهمة إحراق المباني وتخريبها، ثم تغير ذلك لتُهمة «إثارة غضب الشعب وتحريضه». الآن، هل تعتقدين أن هؤلاء الرجال حافظوا على كرامتهم كما تفعلين أنت. لقد كان المسؤولون المحليون هم من قاموا بتدمير منازلهم وليس الدولة من فعلت ذلك؟ الدولة دائماً جيدة؛ وفقط المسؤولون المحليون الفاسدون سيئون. هل فكروا بتلك الطريقة؟ إن المسؤولين لم يقوموا بتشكيل القانون، ولا يملكون أرض الدولة أيضاً. إنَهم يعملون لدى الحكومة، ولكن ماذا تُمثل الحكومة؟ الدولة» توقفتُ قليلاً ثم تابعتُ بهدوءٍ أكثر: «كنتُ أفكّر بهؤلاء الرجال كلَما قرأتُ قصَتهم. إنها تُضايقني كثيراً. أنا متأكد أنهم شعروا أن الدولة هي المالكة لجميع أراضي الصين؛ ما جعل حياتهم مستحيلة. الحقيقة أن كل من يملك السُلطة والقوة يتحدَث باسم الدولة. إنني ببساطة غير مقتنع بالهراء الذي يصف الدولة بالكريمة والجيِدة، والأم الحاكمة النبيلة التي أنجبت وربّت كل المواطنين، والذين يجب عليهم بالمقابل أن يتصرَفوا كالأبناء ينحنون لرغبتها. إن ذلك أشبه بالتهويدة، أو بحرز مخدر، أو حكاية طويلة تسحب الناس نحو العبودية. لقد تخلصتُ من هذا كله. إذا أساءت الحكومة التصرُف، فالناس لديهم كل الحق بمنعها ومعاقبتها وإصلاحها. تلك هي مسؤولية المواطنين».

«ما هذا الهراء الذي تحدثتَ به للتو. إن هذا انتهاك للدولة». نظرت إليّ نيا عابسة، وكانت عيناها مُتأججتان غضباً. قالت: «يجب أن تُفرّق بين الدولة والحكومة».

أجبتُها مُصرّاً: «لا، لن أفعل ذلك، السلطات لا تستخدم كلمة الحكومة مطلقاً عندما تقوم بغسل أدمغة الشعب وإدانة المُنشقين. إنها تحافظ دائماً على أن تكون متطابقة مع الدولة بقدر الإمكان؛ حتى تظهر أمام الناس قانونية ومُقدّسة. أي شخص ضد الحكومة الدكتاتورية؛ ستتم معاقبته كخائن للدولة. لقد حان الوقت لمواجهة الدولة وجهاً لوجه، وأن نكشف زيف أسطوريتِها وقُدسيتِها».

قالت نيا: «إذن ستجعل من نفسك أحمق».

سألتها: «إذن أنت تعتبرين أن فكرة الدولة يجب أن تكون مُقدَسة؟».

أجابت: «لا، ليس الفكرة، ولكن الصين، الأرض الفعلية، مُقدسة بالنسبة إليّ. إن فيها شيئاً ما يجذبني إليها لا أستطيع أن أشرحه».

كنتُ للحظةٍ ما غير قادر على التعبير. ثمَ قلتُ بهدوء: «أستطيع أن أُقيّم الدولة فقط بناءً على كيفية خدمتها للهدف العام. أحتفظُ بحقي بازدراء أية دولة. بالنسبة إليّ، الدولة

ليست أعلى شأناً من الكلب، بل كلب حراسة، لذا، فإنه من غير المعقول أن يطلب الكلب من مالكيه أن يحبوه ويعبدوه. بل من المفترض أن يكون ممتناً للناس الذين يقدمون له الرعاية ولا يجعلونه يشعر بالجوع».

بصقت نيا وقالت: «أنتَ شخصٌ فظيع».

ساد الصَمت. كنتُ على وشك أن أُذكّرها بأن أباها قال ذات مرة إن الصين أبادت مواطنيها، وأنه حثها أن تهرب، ولكنني تراجعتُ عن ذلك.

أزلتُ بإصبعي بعض الملح من على حافة كأسي وشربت جرعةً من التيكيلا. أدركتُ أنها تحملُ في صميمها كثيراً من المشاعر الدينية نحو موطننا الأصلي؛ كلما عاشت مدة أطول وعلى مسافةٍ أبعد عن الوطن، تصبح أكثر ارتباطاً به وأكثر حباً له. من الأفضل لها أن تلتحق بكنيسة أو معبدٍ ما.

قالت نيا أخيراً دون أن تنظر إليّ: «بكل الأحوال، فكّر مرة أخرى بكلية الدراسات العليا».

ضحكتُ نصف ضحكة، وقلت: «أخبريني، إذا ذهبتُ إلى بلدة بعيدة لأكمل دراستي العليا هل ستأتين معي؟».

أجابت فوراً: «هذا غير وارد، إلا إذا غيّرت أفكارك نحو وطننا الأم».

أجبتها ضاحكاً: «ربما لن يحدُث هذا، حاولتُ أن أصبح بوذيّاً يصل إلى النور والنجاة عن طريق التخلِي عن أصوله. ليس لديّ ارتباط مع أي مكان».

قالت نيا ساخرة: «لن تصبح بوذياً مُطلقاً، أنتَ ممتلئٌ بالرغبات المادية، وإحساسك بذاتك قويٌ جداً».

قلتُ لها: «إنني أرى أن الصين تحولُ بيننا كطرفٍ ثالث».

حدّقت بي باندهاش، وانفجرت ضاحكة. قالت: «لديك خيالٌ منحرف، أنت مجنونٌ أكثر مني».

ضحكتُ أيضاً، بتوتُر.

قالت: «لقد تفوّهت بكلام فظيع. لا تتحدث كذلك أمام الآخرين؛ وإلا ستقُحم نفسك في المشاكل».

حرّكتُ كتفي وقلتُ لها بشجاعة: «لقد أصبحتُ بالفعل في ورطة كبيرة».

افترقنا، وما زلنا أصدقاء، شعرتُ بانتفاخٍ في حلقي، ما سبَّب لي الدوار وصعوبة في التنفس. خرجتُ من الحانة، وتوجهتُ في عكس الاتجاه الذي اتخذته نيا، حاولتُ تشجيع نفسي بدندنة أغنية فيلم قديم اسمه: «لستُ خائفاً من الوحدة»:

حبيبتي، هل ما زلت تحلمينَ بالبرِية؟

كم مرة سألتك متى يمكننا الرحيل،
نذهب بعيداً، بعيداً جداً
تُحرّكينَ رأسك دائماً وتبتسمين
وتقولين حتى أحصل على لقبٍ مشهور

لم أكن أحب نغمة تلك الأغنية، لكنها هزّت مشاعري وخرجت من فمي. تصوّرتُ في مخيلتي شاباً مكسور القلب يُشغل شاحنته الصغيرة، موشكاً أن يبدأ رحلته في البرية، تاركاً صديقته للأبد. كان معظم الشارع أمامي مهجوراً، كانت هنالك فقط مجموعة كبيرة من طيور السوادية جاثمة فوق قمة شجرة خالية من الأوراق، ساكنة بلا حراك كما لو كانت في سُبات. عصفت ريح وانتزعت بعض أواني الأطعمة البلاستيكية، وطارت باتجاه عربة التسوُق على المنعطف، وفي هذه الأثناء، كنتُ أرددُ أغنيتي مرةً بعد مرة في طريقي للمنزل، لقد انتقيتُ بعض الأسطر منها ولم أهدأ في ترديدها.

لم أرَ أي هدفٍ لي في إكمال الدراسات العليا. لأنني الآن أحتاج إلى وظيفة كي أدفع من خلالها الفواتير؛ فألفا دولار كاي مينغ، لن تدوما طويلاً. في ذلك المساء، ذكرتُ فكرة الدراسات العليا لكيتي، وفاجأتني بقولها إنها لم تكن فكرةً سيئة. لقد أكّدت لي أنه في أمريكا معظم طلاب الدكتوراه

في أقسام العلوم الاجتماعية والإنسانية يحصلون على منحٍ مالية؛ يدفعون لهم ليتخصصوا في المجالات غير العملية. ربما تكون هذه المِنح غير كافية، لكنها تكفي للمعيشة البسيطة. لذا، فإنّ هذا هو السبب لوجود الكثير من طلاب الدراسات العليا في أمريكا. أخبرتني كيتي بأنها تستطيع كتابة رسالة توصية ممتازة لي، ولكنها قالت: «عليك أن تجعلني سعيدةً الليلة»، أجبتُ: «سوف أحاول».

في اليوم التالي: «ذهبتُ إلى لوشينغ مقابل سيتي بانك، وتحدثتُ معه حول موضوع الدراسات العليا. كان دائماً حكيماً ومعطاءً بطريقةٍ فنية، لذلك أنا أحترمه. ومما أثار دهشتي أنه شجّعني على أن أقدم للدراسات العُليا؛ قائلاً بأنه تمنى لو أنه فعل ذلك منذ وصوله إلى الولايات المتحدة قبل أحد عشر عاماً. لقد ذكر بعض المُنشقين في أمريكا الشمالية، وقال بأن جميعهم عُرض عليهم قبولات للدراسات العليا في الأيام الأولى من نفيهم، ولكنهم رفضوا هذه الفُرص؛ مُعتقدين أنهم سيكونون أكثر راحةً وشهرةً عندما يُصبحون شخصيات مشهورة ونُشطاء سياسيين. حتى إنهم اعتقدوا بحماقة، بأن الصين ستفتح أبوابها لهم قريباً، لذا؛ لم يكن هنالك ـ برأيهم ـ حاجة للدراسة بجد هنا.

قال لوشينغ: «انظر إليهم الآن، ماذا يفعلون؟» وأطفأ سيجارته في مزهريةٍ من الورود.

تابع: «لقد أصبحوا عالةً من نوعٍ ما، واعتمدوا على صدقات الجمعيات السياسية. يجب عليك ألا تعيش بهذه الطريقة. لا تكن اتكالياً. حاول أن تكون مكتفياً ذاتياً».

لقد أدهشتني كلمات لوشينغ بعمق، ولكنني ما زلتُ غير قادر على اتخاذ القرار. فكّرتُ لعدة أيام ما الذي يمكن أن أفعله. إن فكرة الالتحاق بالدراسات العليا أحزنتني، لأن عمري الآن ستة وثلاثون عاماً، وعليّ أن أُقدّم لامتحان التحصيل العلمي للدراسات العليا (جي. آر. إي)، الذي أحتاج للتحضير له لشهرين أو ثلاثة. بالإضافة إلى ذلك؛ فإنني سأضطر لإنفاق مئات الدولارات لدفع رسوم الطلبات. قرأتُ مقالة جدلية بالمصادفة عن كالفن إيليوت، وهو بروفيسور في جامعة كاليفورنيا الحكومية.

تكلم الرجل أمام الملأ ضد حرب العراق وأدانها بشدة؛ باعتبارها غزواً إمبريالياً للشرق الأوسط، وصرّح بأن الحرب شُنّت فقط للسيطرة على مصادر النفط، وبأن الولايات المتحدة لم تكن أبداً تدعم حقوق الإنسان في العالم العربي، وبأن تصدير الحُريات والديمقراطية كان فقط خدعةً

وأكذوبة. بالرغم من أنه انهالت عليه الكثير من الانتقادات والشتائم، وبالرغم من أن الكثير من أعضاء الكونغرس طالبوا بفصله، إلا أن جامعته رفضت التفريط به. ودافعت عن قرارها بتمسّكِها بالحرية الأكاديمية. لقد دُهشتُ جدياً من موقف الجامعة. جعلني ذلك أُدرك أنه ليس من المصادفة أن العديد من المفكرين المشهورين أمثال نعوم تشومسكي وإدوارد سعيد، قد احتفظوا بأُستاذيَتهم في الجامعات التي هي آخر معاقل حرِية التعبير. لذا؛ قررتُ أن أُقدم.

ساعدتني كيتي على أن أجمع لائحة من الجامعات. أحتاج إلى ثلاث رسائل توصية للتقديم لطلبات الجامعات. وافقت كيتي أن تكتب لي واحدة، كما أنني فكّرتُ بأن أطلب من رودولف، ولكنها قالت بأن هذا قد لا يكون لائقاً؛ لأنه لم يُدرسني من قبل، ولم يكن على معرفة بعملي. ولأنني لم أعرف أكاديمياً آخر، رجعتُ إلى نيا وكاي مينغ، كلاهما كانا سعيدين بكتابة رسالة من أجلي. رئيسي السابق في العمل، كتب رسالة توصيته بالصينية، وطلبتُ من وينا أن تترجمها، كتبتُ أنني أرغب بدراسة دور الدولة في الإعلام الإنجليزي والصيني، وكيف تستخدم الحكومات الإعلام لأهدافٍ تعليمية ودعائية، لإثارة أو كبح الغضب الشعبي

ودعم الوطنية، وكيف يسهم الإعلام في حفظ أو تشويه الذكريات الكلية للناس. (كيتي قالت بأن هنالك منحة معتبرة في الإعلام الإنجليزي؛ وسوف يكون مشروعي ناجحاً أكثر إذا قمتُ بدراسةٍ مقارنة).

كنت واضحاً في طلبات التقديم بشأن مؤهلاتي الضعيفة، حيث إنني لم أكن متخصصاً في مجال العلوم السياسية، وأنه عليّ البدء من الأساس في بعض المواد. والأكثر إشكالاً أنه دون نتائج امتحان التحصيل العلمي، فإنه عليّ أن أقدم طلبات غير مكتملة، ولكني لم أستطع الانتظار أكثر. ولأنني لم يكن لديّ نماذج كتابية منشورة باللغة الإنجليزية، أرفقتُ مقالتي غير المنشورة في ما يتعلق بفضيحة رواية هايلي؛ كدليل أنني أستطيع الكتابة باللغة الإنجليزية. بدا كل واحدٍ من طلبات التقديم كمقالةٍ طويلة.

الفصل الثالث والعشرون

غادرت كيتي إلى الصين منذُ أسبوعين. وكنا على تواصل عن طريق البريد الإلكتروني، وعلى ما يبدو؛ فإنها استقرت في جامعة هينان، وكانت سعيدةً بالترتيبات داخل قسم علم الاجتماع. كانت متحمسةً بشأن بحثها الإجرائي، ومستعدة للتوجه للريف لمقابلة ضحايا مرض الإيدز، الكثيرون منهم كانوا (بائعي دماء)، وقد التقطوا عدوى الفيروس من الإبر الملوثة. حثثُتها ألا تتسرَع بما أن لديها الكثير من الوقت. أخبرتها بأنها لا يجب أن تأكل من الطعام الذي يُباع في الشوارع، ليس لأن الأطعمة غير نظيفة؛ بل لأنها ستأخذ أشهراً عديدة لتعتاد عليها، وكذلك أيضاً عليها أن تكون حذرة بألا تُعرض نفسها للخطر، ولا لأولئك الذين يساعدونها. وحتى لو أن رجال الشرطة، لم يقوموا بمضايقتها؛ فإنهم قد يضايقون من يُساعدها.

وكما توقعت، لقد بدأت بالشكوى من المشاكل التي

واجهتها. كان واضحاً أن السلطات ستفعل أي شيء من أجل إحباطها. لم تكن متأكدة أنها قابلت فعلاً ضحايا مرض الإيدز، وبدأت تشعر بأنها خُدعت في مشروعها.

طيلة الوقت لم تقل شيئاً بشأن عودتها إلى نيويورك قريباً؛ استنتجتُ أنها في حالة لم تتمكن من إجراء المقابلات في الريف، فربما عليها أن تذهب إلى بكين وتمضي فصل الربيع كباحثة في أكاديمية الصين للعلوم الاجتماعية. ستكون فرصةً نادرة على أية حال. بالإضافة إلى الكثير من الوقت الليلي المفضل عندها هناك.

رسائلها كانت دائماً تُقلقني، ولم أستطع معرفة أنها كانت مهووسةً بوظيفتها وبعثتها. ولكني لم أتذمر، ولم أرغب بأن أضع عليها الضغوطات. فلطالما كانت دائماً مُلاحقةً بأنظار الرجال، امرأةٌ جذّابةٌ وجميلة وممتلئةٌ بالعقل والحيوية. ربما عدد غير قليل من الناس سيعتبرونها مذهلة، ويتزايد جمالها مع حقيقة أنها أمريكية.

لاحقاً، بعد بداية رأس السنة، استقبلتُ مكالمةً من البروفيسور غامبرل في جامعة نيويورك الحكومية في بافالو. وضّح برفق قائلاً: «حسب معايير القبول، لا نستطيع قبولك في البرنامج؛ إذا لم تأخذ امتحان ال (جي. آر. إي) للتحصيل

العلمي. أنا أتصل لأخبرك بأننا معجبون بك كمُرشَح للقبول، ولكننا لم نتلقَ نتائج الاختبار. هلّا أرسلتها إلينا حالاً؟». قلتُ: «لأكون صريحاً؛ لم أخضع للامتحان لغاية الآن؛ عليّ أن أحضر له لبضعة أشهر».

قال: «متأسف لسماع ذلك. دون اختبار ال (جي. آر. إي)، حتى لو تم قبولك، فلن تصادق كلية الدراسات العليا على طلبك، وهي لديها القرار النهائي. ولكننا نأمل أنك سوف تُقدم مرةً أخرى العام القادم».

قلت له: «سأفعل ذلك».

«لقد أذهلنا طلبك، خاصَةً بأحد التوصيات؛ وهي امرأةً صينية. لقد أكّدت على قصتك التي ذكرتها في رسالتك التوضيحيَة: وكالة الأخبار التي كنتَ تعمل بها، التي بيعت للصين، وأنك فقدتَ وظيفتك. تستطيع أن تعمل في النجارة وتكسب عيشاً كريماً، من خلال عملك في شركة إنشاءات، ولكنك تريد أن تُصبح مُفكّراً مشهوراً، لأنه ما زال لديك الاطّلاع الواسع في الصينية، وتأمل أن تُصبح صوتاً نزيهاً. ومع هذا، القوانين هي القوانين؛ لا نستطيع قبولك دون طلبٍ مكتمل».

أجبته محبطاً: «أفهم ذلك». وبعد المكالمة، وقفتُ على الشباك لوقتٍ طويل، مندهشاً بأنَهم أخذوا رسالة توصية نيا

بشكلٍ جدي، بالرغم من أنها لم تكن أكاديمية. وباعتقادي أن نيا كانت وطنيةً بشغف، ولكن لماذا أهملتها؟ لماذا احتفظتُ بها كصديقة وافتخرتُ بصداقتها؟ هل كان السبب لا شعورياً بأنني أردتُ إقناعها أن تتفق معي؟ أو هل كان السبب بأنني كنتُ مُنجذباً لعشقها للوطن الذي سيطر عليها؟ لستُ متأكداً. ربما الشيئان معاً.

كان الثلج يتساقط بحبَات كبيرة تعومُ بشكلٍ مُتعرج، وتتجمع على الأشجار وعلى أعمدة إنارة الشوارع، تملأ الهواء وتكتم صوت حركة المرور. مرّ شخصٌ نحيف مُتحزّماً بمعطفٍ ويمشي ببطءٍ شديد على الرصيف، لقد كان رجلاً مُشرداً ذا أُذنين عريضتين مُجعدتين مثل حبتي فطرٍ صغيرتين، وكان يتكلم لغة الماندرين بلهجةٍ من مقاطعة شان دونغ الصينية، الذي كان يجلس على طاولتي عندما آكل رقائق المعكرونة أو البيتزا. أحياناً أتوقف عن الطعام في منتصف وجبتي وأدعهُ يُكمل بقية الطعام.

وفجأةً تزحلق ووقع، تمالك نفسه وداس على الثلج بقوة ثم مشى مُترنحاً في طريقه، حيث كان معطفه الأزرق الداكن مُرقّعاً. في طقسٍ كهذا، ربما من الأفضل أن يُمضي ليلته في مأوى كنيسة القدِيس جورج.

ربما وحدتي من الداخل لم تكن مختلفةً عنه، ولكنّ هذا لم يعُد يقلقني أبداً، ربما أن الوحدة هي مُتطلبٌ سابق للاعتماد على الذات. (كيف تشعرُ بالوحدة؟ هنالك أكثر من ستة بلايين إنسان في الخارج)، وبّختني نيا ذات مرة بقسوة. فكّرتُ بالتواصل مع نيا في المساء لأخبرها بأن الجامعة أخبرتني بردّها.

إن مكالمة البروفيسور غامبرل قد منحتني بصيصاً من الأمل، بالرغم من أنني لا أتخيُل نفسي كباحث. مستقبلي كان غامضاً. ولكنني سأستمرُ بكشف الحقيقة. وحيثما يظهر قارب يَعجُ بالأكاذيب والخداع، بصرف النظر عن هوية علمه التي يرفعها، سوف أفضح أمره للعالم كله.

شكر وعرفان

أود أن أشكر ليوان والتر، كاثرين تونغ، ولين زاشاري، لدعمهم وصبرهم وتشجيعهم. كما أشكر أيضاً بعض الأصدقاء الذين قرؤوا الكتاب في طور الإعداد؛ وقدموا النصح القيّم. أنا مُمْتَنٌّ وشاكر جداً لهم: اسكولد ملنيزوك، وسقرد نونيز، وجيترا ديفاكروني، وبيري لينك.

أعمال أخرى لـ «ها جين»

خريطة الخيانة

ليليان شانغ، أستاذة تاريخ في جامعة ميرلاند، عرفت أن والدها، «قاري» هو من أهم الجواسيس الصينيين الذين تم اعتقالهم في الولايات المتحدة. ولكن عندما اكتشفت مذكراته بعد وفاة والديها، كشفت صفحاتها عن الآلام والحنين الذي اعترى حياته الازدواجية ـ حيث كانت تشير إلى أنه لديه عائلة أخرى سراً؛ تركها خلفه في الصين. بينما كانت ليليان تتبع محاولات أبيها في العودة للمقاطعات الصينية، بدأت تتفهم مدى المشكلة التي كان أبوها يواجهها تائهاً ما بين انتمائه لموطنه الأصلي، وبين مشاعر المحبة والمودة للبلد الذي استقبله. بينما بدأت تدرك أن «قاري» أيضاً تعرض للخيانة، اكتشفت أن الأمر يعود إليها في المحاولة لمنع المجازفة؛ وإيقاف مأساته لكيلا لا تحدث لجيلٍ آخر من عائلة شانغ مرة أخرى.

صورة مدهشة لعائلة متعددة الجنسيات، رواية خريطة للخيانة؛ تعد رواية عن الجاسوسية، وحده ها جين من يستطيع كتابتها فقط.

محيط من الكلمات

يقع مكان القصة في الحدود الباردة بين الصين وروسيا، الزمن في بدايات عام 1970؛ عندما استعدَ عملاقان لبداية الحرب. والشخصيات الأخرى في تلك المجموعة القصصية المليئة بالإثارة؛ هم من الجنود الصينيين الذين يتفحصون ويدققون في العدو باستمرار، في الوقت ذاته؛ هم أنفسهم يتم مراقبتهم في حال ظهرت عليهم علامات المرض القاتل من التحررية البرجوازية. في رواية محيط من الكلمات، الكاتب الصيني ها جين؛ يكشف المأزق الذي وقع فيه هؤلاء الجنود البسيطون ذوو الثقافة المحدودة بإيجاز أخّاذ وإنسانية. تتراوح الرواية من عاملي إرسال برقيات غرامية إلى رجال عسكريين عنيفين، من سجين روسي غامض إلى مجنَّد شاذ؛ ولكن حماسي، إن شخصيات ها جين تمتلك عمقاً ونشاطاً، يجسد شخصيات

«القوزاق»، في أعمال إسحاق بابل وتيموثي أوبرين. محيط من الكلمات؛ هي رواية قوية، ومأساوية وساخرة ومروعة.

في المستنقع

رواية ها جين الحائزة على جائزة الكتاب الوطني، حيث لفتت الأنظار منذ ظهورها الأول، رواية في المستنقع؛ تمثل صورة ممتعة وغامضة لخطاط، هاوٍ يمسك بفرشاته الرفيعة؛ كما لو كان يحمل سلاحاً بوجه حزب البيروقراطيين الأقوياء؛ الذين يحكمون مقاطعته الصينية التي يقطن بها. «شاو بين» عامل مُضطَهد، يعمل في مصنع للأسمدة في النهار وخطاطاً في الليل. تمَ تجاهُل اسمه في قائمة من أسماء الأشخاص الذين قدَّموا للحصول على شقة بسيطة لعائلته، بينما تم تقديم هؤلاء الذين لديهم بعض المصالح مع رؤساء الحزب على دوره، اشتاط شاو بين غضباً من ضعفه، عندما حاول أن يفضح فساد رؤسائه عن طريق رسم بعض الشخصيات الكرتونية الساخرة، أثار سلسلة من الحلقات المتزايدة من الهجمات العنيفة التي ترسل بعض الإشارات حول مجتمعه البسيط.

إن روايـة فـي المسـتنقع؛ هـي روايـة تم حبكها بشـكل فني رائـع، وتشـكِّل أرضـاً خصبـة ومخضبـة لحكايـة حـول حيـاة الأشـخاص البسـيطين المتواضعيـن؛ الذيـن حاصرتهـم قوى اجتماعيـة أكبـر منهم.

خيال أدبي

متوافر أيضاً

على قيد الحياة

العريس

المخبول

حياة حرة

السقوط الموفق

تعويذة (ترتيلة) نانجغ